الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب : ٤١٢٣ بيروت – تلفون : ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban
B.P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول

الدكتور سهيل ادريس

Propriétaire - Directeur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير

عايدة مطرجي ادريس

Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

الادارة

شارع سوريا – راس الخندق الغميق – بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في اميركا : ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات

يتفق بشانها مع الادارة

العدد الرابع – نيسان (ابريل) ١٩٦٢ – السنة العاشرة

تحية الى الجزائر

البشرى لنا، اينها الجزائر العظيمة، يا ارض البطولات الخالـدة !

منذ سبعة اعوام ونصف ، ونحن نصغي لها ، هـذه البشرى ، لتجزي أرضك مما سقيت من دماء ، هذه الدماء التي تطلع اليوم من تربتك الزكية أشجار غار باسقة ، وثمار مجد يانعة .

اننا اليوم ، يا جزائرنا الحبيبة ، نحل على الدنيا بثورتك ثورة عظيمة ، خصتها عنا فداء لكل الآلام التي كابدناها في هذين القرنين ، فنحن اليوم نمتلىء زهوا ونشوة بأن مـا نملك من طاقات الحياة التي كشفت عنها ثورتك العملاقة ، يهزأ بكل محاولة لاذلالنا واضطهادنا ، ويدفعنا من جديـد ماردا يشق طريقه في النور ، ويحمل للانسانية تباشير أمل مشرق بحياة جديدة كريمة .

يا جزائر الثورة الكبرى !

انك تردين لنا الروح ، وتعيدين الشبـاب ، وسوف تمتد اليك أذرعنا ، عبر الفيافي والبحار ، لتأسو الجـراح التي تنزف في جسم كل أسرة من اسرك المجاهدة المناضلة ، ولتستمد روحا وأيدا يعيناننا على المضي في طريق الثورة، طريقنا الوحيدة الى النصر والمجد .

اليوم فقط بلغنا ، اينها الجزائر ، نبـأ وقف النار في أرضك المقدسة ، فلم يتح لنا بعد ان نفيق من نشوة النصر، لنستعيد من تاريخك الكبير امثولات وقدوات ، ولنشفـي ارواحنا من كلوم الزمن وصروف الدهر .

ان هذه الكلمة القصيرة ، وكلمات طويلة كثيرة اخرى، لاعجز من ان تعبر عما نحن مدينون به لـك ولثورتـك ، ولكننا نعتقد مع ذلك بأن هذه الثورة ، ستعمل كما تعمـل كل ثورة عربية مخلصة على رد القيمة للحرف العربـي ، هذا الحرف الذي ما يزال يهدره كثير من التدجيل والنفاق، وسيكون من شأن ثورتك ان يرفعه من جديد الى صعيـد الحرمة والقداسة .

ستظلين يا جزائر ، الى مدى بعيد ، مهوى افئدتنا ، ومنار تاريخنا الحديث ، ومشعل حريتنا المنتصرة . وكلما واجهتنا صعاب جديـدة ، وستواجهنـا مـن غير ريب ، فحسبنا ان نذكر ثورتك ونضالك ، لنمتلىء عزما واقداما ، وحسبنا أن نذكر تضحياتك ، لتهون لدينا كل تضحية .

اينها الجزائر العظيمة !
تحية تمجيد واعتزاز !
تحية الى روحك ، روحنا الثائرة ، التي لن تنطفـىء شعلتها الى الابد .
تحية حب ، أعمق الحب ، يا جزائر !

((الآداب))

حول كتاب سارتر :

عاصفة على السكّر !

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

كتاب سارتر « عاصفة على السكر » (١) ، على عفوية اسلوبه وبساطه افكاره ، يثير في ذهن القارىء اجواء عريضة وسيلا متوالدا من المشكلات . انه ينتقل به في كل خطوة الى ذكريات تتصل بمسائل تكاد تكون خطا مشتركا بين الكثير من البلدان المتخلفة التي عانت من تحكم الاستعمار ومن استغلال الطبقة الاقطاعية والراسمالية . ويجد فيه القارىء العربي خاصة صدى لكثير من اوضاع بلاده ولقاء ثوريا مع امهات الافكار التي تخلق الثورة في نفوس جيلنا العربي الجديد .

انه قصة كوبا ، قصة البلد الغني بثرواته الطبيعية ، الغني بسكره . والذي يحيله الاستعمار الخارجي والاستغلال الداخلي بلدا فقيرا يشقى بسكره ، ويفتقر بغناه . ولعل مثال « كوبا » مثال نموذجي صارخ يعبر عن هذا الفراق الاساسي بين ثروات الطبيعة في بلد متخلف وبين سوء البشر ، ويفصح عما يؤدي اليه هذا الفراق من تناقضات تثير الفقر والعار ، والعار شعور ثوري كما اشار الى ذلك ماركس . وهو بعد هذا وفوق هذا درس قاس البلدان التي تحسب التناقض في حياتها امرا يمكن ان يستمر ويبقى ، والحكام الذين يحسبون أن تجاهل التناقض يمكن ان يزيل الشعور الثوري بضرورة تحطيمه .

لقد اخذت « باتيستا » ديكتاتور كوبا منذ عام ١٩٥٢ ، احلام الحكام وسدر في ضلالاتهم واغوته القوة ، قوة الجيش الكوبي الذي كان يدعمه والذي كان السند الصريح للملاكين الكبار واطمأن الى عنف رجال الشرطة والى رئيسهم الذي كان يعبد العهد « لانه كان يقبض كل صباح عشرة الاف دولار ضريبة على العاب القمار في هافانا » . وحسب ان القوة تستطيع ان تغلب الشعوب وتقضي على روح الثورة ، فاذا بقبضة من الرجال « العصاة » لم يكونوا يجاوزون في البداية ثلاثين ، يصعدون الى قمم جبال « ماسترا » اعلى سلسلة في الجزيرة ، ويختبئون في فراء السحب ، ويضيئون من هنالك شعلة الثورة ضد كل ذلك الدرع الحديدي الزائف . وتغير كل شيء عندما زهد هؤلاء القلة بالحياة مرة والى الابد ليعيدوا الى الجزيرة حياتها والى الفلاحين وجودهم . ان كل شيء كما يقول سارتر ، يتغير بالنسبة لانسان يكون الموت هو اعمق اسراره واكثر خطوطه مباشرة : فاذ ذاك تصبح المشاريع المستحيلة ممكنة ، وتغدو على قياسه وقده . ان النظام القائم يحتفظ ببدهياته في نظر الاشخاص الذين يريدون الحياة . ولكن حين يختار المرء العذاب والموت ، وحين يعبر « هذا الاختيار عن نفسه بتجنيد حقيقي للقوى الحية ، فان العود الى النظام هو الذي يغدو الاستحالة الجذرية » .

لقد كانت صرخة الكوبيين « الحرية او الموت » وتناول كاسترو هذه الصرخة وعدلها فقال « الامة او الموت » . لقد كان العنف اقوى من ان يكبح ، وكانت الثقة شاملة كاملة ، وكان كل شيء ، يستمد قوته من الغضب ، من التمرد ، من الشعور بالفضيحة والعار .

وكيف لايخلق الشعور بالعار في نفوس جمهور الناس وكيف لاتجسده الفئة الثورية ، حين تنقلب الامور في بلد مثل كوبا ، فاذا بالثروة تغدو فقرا ، واذا بالغنى يصبح تبعية ، واذا بكل رنة هاتف وكل تلألؤ نيون ، يتحول قطعة دولار صغيرة تغادر الجزيرة الى الولايات المتحدة الاميركية والى القارة الاميركية وتجد في انتظارها ملايين الدولارات التي سبقتها الى هذا المصير ؟

كيف لاتثور جزيرة كانت تحسب انها تعيش من السكر ، فاذا بها تكتشف ذات يوم بانها تموت من السكر ، ويقتلها داء السكر ؟

لقد اراد الاستعمار ، ممثلا في الولايات المتحدة الاميركية ، ان تكون اميركا الجنوبية لاميركا الشمالية . ورأى روزفلت ، رجل الاستعمار الاقتصادي ، ان ليس امام الولايات المتحدة الا وسيلة واحدة لاعادة توظيف رساميلها الفائضة : وهي أن تصبها على البلاد الجديدة في اميركا الاخرى ، اميركا الجنوبية ، ولا سيما كوبا التي كان سكرها يسيل اللعاب . ومنذ عام ١٩٠١ كانت الولايات المتحدة قد عرضت على كوبا – لانها كانت تحبها ! – ان تدفع لها ثمن نتاجها الرئيسي اكثر مما يساوي . وكان العرض يخفي شركا . ولكن اعيان الكوبيين رموا بانفسهم فيه ، واعمت الجميع ثروة الجزيرة المفاجئة المجنونة . وهكذا باعت كوبا نفسها في الواقع ، ولم تدرك ذلك الا بعد فوات الاوان .

لقد عرفت الولايات المتحدة ان تسترد بالشمال ماكانت تقدمه باليمين ، فاذا بميزان التجارة معها خاسر الى الابد ، واذا بالجزيرة تغرق ببضائعها ، من الحاصدات والرافعات الالية الى السجائر . بل ان اتفاقها مع الولايات المتحدة فرض عليها مصيرا زراعيا محزنا : فاذا بها تزرع القصب والقصب وحده ، من اجل الولايات المتحدة ، واذا بكوبا ، أخصب مقاطعات اميركا ، تضطر الى ان تستورد من الولايات المتحدة ثلث مواردها الغذائية ، بل نصفها في بعض المقاطعات واذا بالبندورة والارز وسائر المنتجات الزراعية تتدفق على البلاد من خارجها ومن دول اميركا الاخرى او من الولايات المتحدة نفسها . وهكذا كانت تدفع كوبا بالدولارات

---

(١) ترجمت الكتاب الى اللغة العربية حديثا السيدة عائدة مطرجي ادريس ترجمة فيها وضوح ودقة .

دولارات السكر ، ثمن حقها في الاحتفاظ بغذائها .

اما دولارات السكر هذه ، الدولارات الجميلة ، فان الكوبيين لم يكونوا مع ذلك يرون لونها : لقد كان هذا القطع النادر يصرف مقدما . وكان يبقى في الولايات المتحدة ، في مصارفها ، ليساعد على تامين حاجات الجزيرة ! بل انه لم يكن كافيا لتامين هذه الحاجات مادام على الجزيرة ان تشتري كل شيء لانها لا تنتج شيئا ، وما دامت البندوره والبرادات تترك المرافيء الاميركية افواجا فتحملها السفن الى كوبا !

وهكذا كان يتضخم الدين الكوبي باستمرار ، وكانت حكومات واشنطن تحدد اسعار السكر وكمياته كما يروق لها ، ولم يكن على كوبا الا ان تصمت . لقد امسكت واشنطن بخناقها ، لانها كانت وستظل الزبون الوحيد الذي يدفع ثمن السكر اغلى من الثمن العالمي .

وسارت المؤامرة الاقتصادية الاستعمارية جنبا الى جنب مع فساد الوضع الاجتماعي وسيطرة الاستغلال الداخلي . وادى تضخم السكر الى تهديم بنيان المجتمع الكوبي وتزييف شتى مظاهره ، واقام توزيعا سيئا للدخل، وكان من نتيجة هذه الزراعة الواحدة الوحيدة ان تجعل ثروة البعض وترفهم على حساب بؤس الجمهرة الكبرى من المواطنين . .

لقد ادى تدفق الرساميل الاميركية ، وتصرف الولايات المتحدة بالكوتا ، الى تجمع الاراضي الكبيرة في ايدي قلة من اصحاب رؤوس الاموال في كوبا ، وخلقت ، نتيجة لذلك المشروعات الكبرى الضخمة ، حتى ان ١٦١ مشروعا غدت تملك او تراقب ١٨٤ الف « كاباليرياه » (الكاباليرياه يساوي زهاء ١٣ هكتارا) أي ٢٧ ٪ من الاراضي القومية .

وأين كان ملاك هذه الاراضي الكبيرة ؟ لقد كانوا غائبين عن اراضيهم ، كما هي العادة . . فهم يعيشون في هافانا وفي نيويورك ، ويسافرون الى اوروبا . ومدراؤهم يوزعون الاعمال على عمال يوميين لا يتقاضون الا رواتب اربعة اشهر ، من تشرين الثاني الى شباط ، وعليهم ان يعيشوا ثمانية اشهر عاطلين ، يستدينون من سكان القرية او من صاحب العمل .

وهكذا كانت الاراضي بلا رجال ، وكان يحرثها رجال بلا اراضي . بل كان هؤلاء الملاكون الكبار يكتفون باستثمار القسم الذي يكفيهم من الاراضي ، ويذرون الباقي بوارا . ولم يستغلون الاراضي كلها ؟ ان الاراضي العذراء شيء جميل جدا . ويكفي أن يستغل منها ما يسر طلبات الزبون، طلبات الولايات المتحدة . اما ما تبقى فليكن طبيعة ، وليترك للشمس والبحر . وهكذا كان هؤلاء الرجال « الذين يرهقهم حتى في باريس ذكرى حرارة استوائية كانوا يفرون منها » ، يملكون ١٨٠ الف «كاباليرياه» او يراقبونها ، ولكنهم لم يكونوا يزرعون منها اكثر من ١٢٠ الفا . لقد كانوا يريدون انتاجا مرنا وحكيما يتبع تماما ما ترسمه اهواء « الكوتا » .

وطبيعي في مثل هذا النظام ان يكون قوامه قلة الرواتب وهزالها الى حد لا يكاد يصدق . فليس من الممكن لوقت طويل بيع منتوجات زراعية ، حتى بأغلى الاسعار ، مقابل آلات حديثة ، الا اذا كانت اليد العاملة الريفية لا قيمة لها : ولا بد من البطالة وزيادة السكان ليكونا مساعدين على تلك المهمة ايضا .

على ان تلك المهمة لا بد ان تجذب اليها فوق هذا كله ادواء المجتمع كلها . لا بد للنظام الرأسمالي ان يقوم بوظيفته كاملة غير منقوصة . لا بد للامية ان تكون سندا له وعونا وان تلعب دورها في هذا الميدان . اذ لا بد للشعب الذي يفتقر ليزيد غنى اغنيائه بملء ارادته ، ان يظل في جهله ، لئلا يكتشف الفضيحة . وتعليم القراءة يعني اصدار الاحكام . فالخير اذن الا نعلم الشعب شيئا وان نبقيه في نعيم الجهالة .

لقد كان نصف المدرسين في عطلة غير محدود عندما تولى كاسترو السلطة . وكان عدد الاميين قبل عام ١٩٥٩ زهاء ٤٥ ٪ وكان معظم هؤلاء ان لم يكن كلهم من الفلاحين ! ويحدثنا كاسترو نفسه عن دراسته في «هافانا» وعن الخيبة التي اصابته بسببها : لقد تعلم عبث الكلمات ولا جدواها ، وكان الاساتذة يتكلمون لكي لا يقولوا شيئا امام فتيان حائرين .

وبعد هذا كله يضع معجم الاستعمار بلدا مثل كوبا في زمرة البلدان المتخلفة اقتصاديا ، ويستخدم هذه العبارة المتأدبة ! وهذا صحيح ، ولكن السبب في ذلك هو ان بلادا اخرى ، بمعونة الاستغلال الداخلي، هي التي حالت بين ذلك البلد وبين النمو والتطور .

وماذا كان يفعل الجيش الكوبي وسط هذا كله ؟ لقد كان هذا الجيش، وعدته خمسون الف رجل، جيشا مرتزقا مأجورا وكان يدعم مصالح الملاكين الكبار ويدعم النظام السائد ما دام أسياده الحقيقيون يجدون فيه مصالحهم . ويعجب سارتر من هذه الشعوذة المخيفة . « كانت السيادة القومية تجد اقوى تعبير لها واعظم سند في المؤسسة العسكرية ، وكان الجيش الذي صنعته ، بوجودها واصولها ومواقفها الجريئة المخلعة ، يصبح حتى من غير ان تنتبه الى ذلك ، المطرقة العالقة التي كانت تفتتها . .

وما كان لهذا كله ان يدوم ! فاما ان يكون الكوبيون قرودا او يكونوا ثوريين . لقد زادت نسبة البؤساء في الشعب خلال خمسين عاما اربعة اضعاف ، وغدت الجمهرة العظمى من المواطنين فلاحين يعيشون في تلك الاكواخ القذرة، اكواخ « البوهيو » التي خلفها الهنود الحمر منذ ثلاثمائة سنة حين غادروا الجزيرة . اكواخ بنيت بالواح خشبية تقام حول عمود يحمل سقفا مدببا مصنوعا من سعف النخيل . ارضها من طين ، يعوزها كل شيء حتى المراحيض . وينغل على أرضها السوداء الباردة اولاد عجاف مرضى . اما الرجال فقد ذهبوا الى الحقول يعذبون الارض ليطعموا أجانب وملاكا غائبين ، وليشتغلوا وبطونهم خاوية .

لقد زرع الاغنياء ، بحقنات مكثفة من الدولارات، الفقر وندرة المؤن والجهل ، في قلب خصوبة لا تصدق . وادرك كاسترو وصحبه هذه المفارقة التي تزداد

وضوحا يوما بعد يوم ، وحدسوا بهذه الفضيحة العميقة وهي ان الطبيعه خيرة وان الانسان هو الذي يصنع الشر . وكان الفقراء والفلاحون يشعرون بهذه الفضيحة من غير ان يدروا وهكذا اكتسب كاسترو لنفسه حق قيادتهم الى النصر .

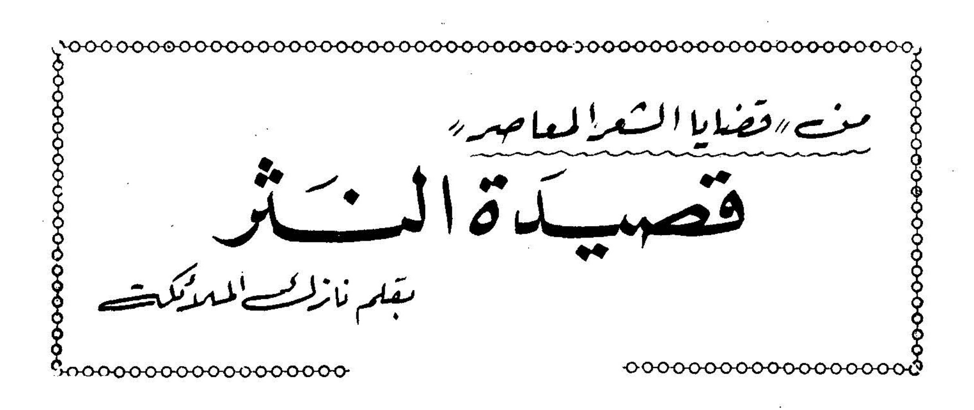
لقد انطلق كاسترو وصحبه من هذه النظرة الموحدة الثورية ، النظره التي ترى فساد النظام بكامله وتكامل هذا الفساد ـ واكتشف انه لابد ان يكون في وقت واحد ضد اساتذته وضد عائلته وضد طبقته . وهذه الرؤية الموحدة للمشكلات الكوبية هي التي انطلق منها ، وهي التي غدت فيما بعد « حقيقة الثورة » . لقد كان الاخصائيون اذ ذاك يعزون مصائب الجزيرة ، بكل رضا وطمأنينة الى الطبيعة القاسية او الى ظروف التاريخ . اما نظرة كاسترو الثورية العميقة فقد جعلته يبحث عن المسؤولين بين البشر انفسهم . ومن هم رؤوس المسؤولين ؟ لقد كانوا كبار الملاكين الكوبيين والرأسماليين الاجانب دون شك . ولكن المسؤول قبلهم وفوقهم هو الجيش الكوبي الذي يحميهم ويحمي مصالحهم . انه اذن أعدى اعداء الامة الكوبية ، انه الحجر الذي لابد من تحطيمه . وهكذا قرر ان يعود من المكسيك الى الجزيرة ، ومعه رجاله المسلحون القلائل ليشتت الخمسين الفا من الرجال المسلحين الذين ينتظرونه .

وكان ذلك في اول كانون الثاني من عام ١٩٥٧ . وكانوا قلة . كانوا ثمانين قدموا من المكسيك ، لم يصل منهم الى قمم جبال « الماسترا » الا ثلاثون ، ولكن الثورة لم تكن ثورتهم وحدهم . لقد اتضح منذ البداية ان الثورة الكوبية ستكون ثورة فلاحين او لن تكون ابدا . وهكذا اصبح الفلاحون الحلفاء الطبيعيين للثوار . ولم يفكر كاسترو ولا رجاله ان يحالفوا الفلاحين بالارهاب على الاطلاق . بل عاشوا واياهم حقيقة اوضاعهم وعرفوا معهم تمردهم ونقمتهم ، « ولكي يصبح الفلاحون متمردين، جعل المتمردون انفسهم فلاحين » فأخذوا يشاركون في اعمال الحقول ويشاطرون سكانها حياتهم وجهدهم وبؤسهم .

وسارت الثورة واخذت طريقها وسط الحقول والمزارع وكان الثوار ينبعون من الارض كالينابيع ويتشققون من التربة كسيقان قصب السكر . وكان حكم « باتيستا » الديكتاتوري يرهب ويعذب ، حتى بلغ ما قتله في عامين عشرين الف رجل . ودفعت ثورة ٢٦ تموز ـ كما سميت فيما بعد ـ الثمن غاليا . وانتصرت منذ مطلع عام ١٩٥٩ . وظلت بعد انتصارها ملكا للامة كلها وللفلاحين خاصة . وكان يوم ١٧ ايار ١٩٥٩ يوم الحقيقة بالقياس الى الكوبيين جميعا ففيه ابرمت الحكومة قانون الاصلاح الزراعي وابتداء من ذلك اليوم لم يبق للاجانب أي حق بالحصول على اية ذرة من الارض الوطنية . وابتداء من ذلك اليوم الغيت الملكيات الكبيرة « اللاتيفونديا » ولم يعد يحق للشخص ان يملك اكثر من ٣٠ كاباليرياة « ٤٠٠ هكتار » واخذت الدولة تصادر املاك الشركات والاشخاص مقابل تعويض يدفع بوساطة سندات . ثم يعاد بعد ذلك توزيع الاراضي المصادرة توزيعا قوميا شاملا .

على ان اهم ما في قانون الاصلاح الزراعي هذا ليس التوزيع لمجرد التوزيع والعدالة . فالاصلاح الزراعي في نظر الثورة الكوبية ليس تدبيرا سلبيا ، وانما هو في نظرها التنظيم الرئيسي للقوى المنتجة ولعلاقات الانتاج . ان مقدمة هذا القانون التي وضعها كاسترو ، لاتقف عند البؤس والظلم الاجتماعي وعند المسؤولين عنها بمقدار ماتقف عند فعالية

ـ التتمة على الصفحة ٧٩ ـ



شاعت في الجو الادبي في لبنان بدعة غريبة في في السنوات العشر الماضية فاصبحت بعض المطابع تصدر كتبا تضم بين دفاتها نثرا طبيعيا مثل اي نثر آخر ، غير انها تكتب على اغلفتها كلمة (شعر) . ويفتح القارىء تلك الكتب متوهما انه سيجد فيها قصائد مثل القصائد ، فيها الوزن والايقاع والقافية ، غير انه لا يجد من ذلك شيئا وانما يطالعه في الكتاب نثر اعتيادي مما يقرأ في كتب النثر . وسرعان ما يلاحظ ان الكتاب خلو من اي اثر للشعر فليس فيه لا بيت ولا شطر ولا قافية . واذن فلماذا كتبوا على الغلاف انه شعر ؟ تراهم يجهلون حدود الشعر ؟ أم انهم يحدثون بدعة لا مسوغ لها ؟ واذا كانوا يملكون المسوغ فلماذا لا يصدرون كتب النثر هذه بفذلكة يبينون فيها للقارىء الوجه الذي ساغ لهم به ان يصدروا كتاب نثر لا يختلف اثنان في أنه نثر ثم يكتبون عليه انه «شعر»؟ لماذا لا يمنحون القارىء ، على الاقل ، فرصة يتخذ فيها موقفا من هذه البدعة فاما ان يرى وجه تسويغاتهم فيقرهم عليها او ان يخالفهم فيرفضها ؟ وانما الخطأ ، ان يمضي المرء فيسمي النثر شعرا دون اي تبرير ، وكأن ذلك امر بديهي يتفق الناس كلهم عليه منذ أقدم العصور .

والحقيقة ، التي يعرفها المختصون والمتتبعون ، أن طائفة من ادباء لبنان يدعون اليوم الى تسمية النثر شعرا . وقد تبنت مجلة (شعر) هذه الدعوة الركيكة الفارغة من المعنى ، واحدثت حولها ضجيجا مستمرا لم تكن فيه مصلحة لا للادب العربي ولا للغة العربية ولا للامة العربية نفسها . وكان مضمون هذه الدعوة ما جاء في مقال كتبته السيدة الاديبة خزامى صبري عن كتاب نثر فيه تأملات وخواطر لاديب لبناني ناشىء . قالت عن ذلك الكتاب :

(مجموعة شعرية لم تعتمد الوزن والقافية التقليديتين . وغالبية القراء في البلاد العربية لا تسمي ما جاء في هذه المجموعة شعرا باللفظ الصريح . ولكنها تدور حول الاسم فتقول انه (شعر منثور) او (نثر فني) وهي مع ذلك تعجب به وتقبل على قراءته ، ليس على اساس انه نثر يعالج موضوعات او يروي قصة او حديثا ، بل على اساس انه مادة شعرية . لكنها ترفض ان تمنحه اسم الشعر .

وهذا طبيعي ، من وجهة نظر تاريخية ، بالنسبة للقراء العاديين . اما النقد فيجب ان يكون اكثر جرأة ـ أن يسمي الاشياء باسمائها الحقيقية . وأنا اعتبر هذا « النثر الشعري » شعرا .) (1)

وقبل ان نلخص مضمون كلام الكاتبة نحب ان نقتطف للقراء نموذجا من خواطر محمد الماغوط مؤلف الكتاب الذي تتحدث عنه ، ليلاحظ القارىء انه نثر طبيعي كالنثر ، على الرغم من ان كاتبه ينثره على اسطر كما لو انه كان شعرا حرا . ولسوف نكتب هذا النثر كما ينبغي ان يكتب النثر ، راجين ان يعذرنا كاتبه . قال الكاتب (وهو يملك ذوقا ادبيا جميلا وأصالة تسيء اليها الروح الاوروبية المصطنعة التي يدخلها قسرا على عباراته وخواطره) قال من خاطرة سماها (المسافر) :

(بلا أمل ، وبقلبي الذي يخفق كوردة حمراء صغيرة ، سأودع اشيائي الحزينة في ليلة ما : بقع الحبر وآثار الخمرة الباردة على المشمع اللزج ، وصمت الشهور الطويلة ، والناموس الذي يمص دمي هي اشيائي الحزينة ، وسأرحل عنها بعيدا بعيدا بعيدا ، وراء المدينة الغارقة في مجاري السل والدخان بعيدا عن المرأة العاهرة التي تغسل ثيابي بماء النهر وآلاف العيون في الظلمة تحدق في ساقيها الهزيلين ، وسعالها البارد يأتي ذليلا يائسا عبر النافذة المحطمة . والزقاق الملتوي كحبل من جثث العبيد) .

على هذا النمط جرت الخواطر في هذا الكتاب ، فيها صور غريبة وتخير للالفاظ وتلوين غير انها مكتوبة نثرا اعتياديا كالنثر في كل مكان وزمان . ولذلك يلوح غريبا ان دار مجلة شعر التي طبعت الكتاب قد أباحت لنفسها ان تضع عنوان الكتاب على غلافه بهذا الشكل :

حزن في ضوء القمر

شعر

وكأن تسمية النثر شعرا مسألة بديهية مفروغ منها . ولعله لا يخفى على اصحاب الدار ان مئات من القراء لا يملكون حاسة الوزن ليدركوا ان هذا نثر لا شعر حر ، ومن ثم فقد كان عليها ـ على الاقل ـ ان تصدر الكتاب بمقدمة تضع فيها تبريرا يسوغ تسمية النثر شعرا ، فان ذلك يمنح القارىء حريته فاما ان يقبل او ان يرفض .

ومهما يكن من أمر فان كلام خزامى صبري الذي اقتطفناه يتضمن ، في مفهوم النقد الموضوعي ، الحقائق التالية :

(اولا) تميز خزامى صبري بين شيئين هما :

أ ـ الوزن التقليدي وهو الوزن مطلقا .

ب ـ الوزن غير التقليدي وهو النثر في عرفنا .

(ثانيا) تقول خزامى صبري ان الشعر شيء لا صلة له بالوزن والقافية . وانما الوزن صفة عارضة يمكن ان يقوم الشعر من دونها ، ولذلك يتحدث اصحاب هذه الدعوة

(1) الكتاب المقصود هو كتاب (حزن في ضوء القمر) للاديب محمد الماغوط وفيه نثر اعتيادي لا اثر فيه للوزن او القافية . وقد نشر تعليق خزامى صبري في مجلة شعر . بيروت . العدد ١١ صيف ١٩٥٩

باحتقار عن الشعر (الموزون) (٢) وبذلك لا يكتفون برفـع النثر الى جوار الشعر ومساواته به وانما يزيدون فيزدرون الموزون ويعطون لنثرهم الفضل كله . قال احد دعاة هـذه الفكرة الهجين : (٣)

(ولذلك فان شعر توفيق صائغ لا يخسر شيئا باطراحه شكل القصيدة التقليدي ، بل يحقق الطريقة الوحيدة التي تمكنـه مـن قضيتـه) . (٤)

هذه هي خلاصة دعوة مجلة (شعر) وهي تصدر في بيروت بلغة عربية وروح أوروبية . وقد دعت اليها فـي عنف واثارت حولها ضجيجا متصلا خلال السنين الماضية ، وتطرف حاملو الدعوة الى ان المستقبل الاوحد انما هو لهذا (الوزن غير التقليدي) كما يسمونه ، أو (الـوزن غـير الموزون) كما اقترحت عليهم ، على سبيل الدعابـة ، ان يسموه . كتبت مجلة شعر تقول ان شعـراء معروفـين يذهبون الى « ان المستقبل انما هو لهذا الشعر الحـديث الذي يبتعد في شكله ومضمونه عن الفترة السابقة ومـا قبلها » . (٥) وكتب جبرا ابراهيم جبرا يقول ان السنين القادمة « سترى ولا شك تغلب الشعر الحر » ولنلاحظ انه اخذ ، دون مبالاة ، اصطلاحنا (الشعر الحر) الذي هـو عنوان حركة عروضية تستند الى بحور الشعر العربـي وتفعيلاتها ، اخذ اصطلاحنا هذا والصقه بنثر اعتيادي له كل صفات النثر المتفق عليها ، وليس فيه اي شيء يخرجه عن النثر في المصطلح العربي . وليته على الاقل تـرك اصطلاحنا ووضع غيره حرصا على وضوح الاصطلاحات في اذهان جماهيرنا العربية المتعطشة للمعرفة . وانما سمينـا شعرنا الجديد (بالشعر الحر) لاننا نقصد كل كلمة فـي هذا الاصطلاح فهو (شعر) لانه موزون يخضع لعـروض الخليل ويجري على ثمانية من اوزانه، وهو (حر) لانه ينوع عدد تفعيلات الحشو في الشطر ، خالصا من قيود العـدد الثابت في شطر الخليل . فعلى اي وجه تريد دعوة النثر ان تسمي النثر شعرا حرا ؟ وما هذه الفوضى في المصطلح والتفكير لدى الجيل الذي يقلد اوروبا في كل شيء تاركـا تراث العرب الغني المكتنز ؟

ان المضمون الواضح لهذه الحماسة من اصحـاب الدعوة هي ان النثر سائر ، في رأيهم ، الى ان يقتل الشعر، وان دولة الوزن ستدول فيكتب شعراء الامة العربية نثرا وننتهي من الوزن . وهكذا يذهب هـؤلاء المتحمسـون الخياليون الى أن الشعر شيء عتيق ينبغي ان يزول ويحل محله النثر ، على أن . . . . — انتبه ايها القارىء فانـهم يشترطون شرطا — على ان يحتفظوا بالكلمـات (شعر) و (شاعر) و (وزن) لانهم يريدونها لتسمية النثر والناثر وما يكتب . وهذا يبدو لنا من أعجب المفارقات ، والحـق يقـال .

والاساس النفسي في هذه الدعوة أن هؤلاء الكتاب الافاضل ، الذين يحسنون ابداع نثر جميل احيانا، يزدرون ما يمتلكون من موهبة ويتطلعون الى ما لا يملكون . انهم ، باختصار ، لا يحترمون النثر ، وذلك هو اساس الاشكال الذي وقعوا فيه . انهم مهما ابدعوا من صور وافكار فـي قالب نثري ، يحسون أنهم ما زالوا اقل ابداعا من شاعـر يخلق هذا الجمال نفسه ولكن بكلام موزون . ولذلك تراهم يعبرون عن ازدرائهم لموهبتهم باطلاق كلمة (شعر) عـلى ما يكتبون. وكانوا في السنين الخالية يقولون (شعر منثور) مشيرين بكلمة (منثور) على الاقل الى انه (نثر) فاصبحوا اليوم من الاستهانة بالمقاييس الموضوعية ، بحيث يجرؤون على ان يسموه شعرا على الاطلاق . لا بل انهم اصبحـوا يحتقرون الشعر ويسمونه (تقليديا) لكي يجعلوا الابداع والتجديد قاصرا على نثرهم المبتكر فهو الشعر الاوحـد برغم المقاييس كلها .

ولعله واضح ان دواء هذا الاشكال ان يمتلك هؤلاء الكتاب الثقة بالنثر . فمن قال لهم ان النثر وضيع او انـه لا يمنح قائله صفة الابداع ؟ ولماذا يحسبـون ان نثرهم لا يكتسب الاعجاب الا اذا هو مسخ ذاتـه وسمى نفسـه (شعرا) ؟ ولنفرض اننا وافقناهم وسمينا نثرهم شعـرا فهل ترى الاسم يغير من حقيقته شيئا ؟ او يزيده تغيير الاسم شرفا أو جمالا ؟

والذي يعرفه الملايين ان كثيرين من كتاب العربية قد كتبوا النثر « الشعري » ولنا في العصر الحديث منـهم طائفة مرموقة مثل اديب العربية الفذ مصطفى صـادق الرافعي والكاتب المرهف جبران خليل جبران وغيرهمـا كثير ، وليس ينقص من قيمة ما كتبوا انه نثر لا شعـر . ولقد كانوا يسمون نثرهم نثرا دون ان يسيئوا اليه فـي شيء . وبعد فهل اجمل من القرآن في اللغة العربيـة ؟ والقرآن نثر لا شعر ، وفيه ، مع ذلك ، كل ما في الشعر من ايحائية وخيال وثاب وصور معبرة والفاظ مختـارة اختيارا معجزا ، فهل ينقص من قيمة القرآن الجمالية انه نثر لا شعر ؟ واي شعر في الدنيا أروع وأحب من هـذا النثر القرآني المسكر ؟

وخلاصة الرأي أن للنثر قيمته الذاتية التي تتميز عن قيمة الشعر ، ولا يغني نثر عن شعر ولا شعر عن نثـر ، لكل حقيقته ومعناه ومكانه . فلماذا جاء هذا الناثر المعاصر ليزدري النثر ويحاول رفعه بتسميته شعرا ؟

هذا هو السؤال . ونحن نوجهه الى انصار هـذه الدعوة لعل له ، عندهم ، من جواب .

وخلال ذلك ، نحب أن نتفرغ لمناقشة هذه الدعـوة وسوف تكون مناقشتنا في اتجاهين : احدهما على اساس اللغة ، والآخر على اساس النقد الادبي .

المناقشة اللغوية

تقع دعوة « قصيدة النثر » في خطأ كبير هو انهـا تطلق كلمة (شعر) على الشعر والنثر معا ، فاذا كتـب شاعر قصيدة من البحر المنسرح ذات شطرين وقافيـة موحدة ، كانت لديهم شعرا واذا كتب ناثر فقرة نثريـة خالية من الوزن والقافية تمام الخلو كان ذلـك ، فـي حسابهم ، شعرا ايضا . فلا فرق اذن بين الشعر والنثر لانهما كليهما يسميان في عرفهم شعرا ، وعلى هذا يـكون كتاب الرافعي (رسائل الاحزان) شعرا مثل معلقة امرىء القيس تماما لا فرق بينهما . وما ذلك الا لان الدعـوة لا

---

(٢) اعتذر الى القارىء عن قولي (شعر موزون) فليس هناك في رأيي شعر الا وهو موزون وانما اتحدث بلغة البدعة .

(٣) هو جبرا ابراهيم جبرا ، مجلة شعر العدد ١٥

(٤) يشير ابراهيم جبرا بهذا الى كتاب عنوانـه « في جب الاسود » وهو كتاب نثر . ويلاحظ ان توفيق صائغ مؤلف هذا الكتاب لم يكتب في حياته بيت شعر واحد فيما أعلم . ان كل ما يكتبه نثـر مثل النثر . فلا ندري كيف يرضى جبرا ابراهيم جبرا ان يسميـه (شعـرا) .

(٥) مجلة شعر . العدد ١٦

تؤمن بوجود صلة بين الوزن والشعر فالكلام يكون شعرا سواء أكان موزونا أم لم يكن . لا بل ان النثر – لديهم – اكثر شعرية من الشعر ، لان وزن الشعر تقليدي كما سبق ان رأينا من احكام خزامى صبري وجبرا ابراهيم جبرا .

وهكذا نجد انصار هذه الدعوة يلغون الفرق بين الموزون وغير الموزون الغاء تاما ، ومن ثم يحق لنا ان نسألهم : لماذا اذن ميزت لغات العالم كلها بين الشعر والنثر ؟ وما الفرق بين الشعر والنثر ان لم يكن الوزن هو العنصر المميز ؟

ان هذا يسوقنا الى ان نرجع باذهاننا الى الاصل الفكري للتسميات اللغوية . ولسوف نلاحظ ان التسمية تقصد في الاصل تشخيص نواحي الخلاف بين الاشياء لا نواحي الشبه . فاذا قلنا « الليل والنهار » او « الشعر والنثر » فان احد الاسمين في كل فريق يشخص الناحية الكبرى التي يختلف بها عن قرينه . ان الليل والنهار يتشابهان في انهما كليهما يحتويان ، في المتوسط ، على أثنتي عشرة ساعة ، كما ان الشعر والنثر يتشابهان في ان كلا منهما يحتوي على عواطف انسانية وصور معبرة في المتوسط . غير ان قولنا الليل والنهار لا يثير في اذهاننا مسألة عدد الساعات هذه كما ان قولنا الشعر والنثر لا يثير لدينا مسألة المحتوى العاطفي والجمالي ، وانما تشخص التسميات الاربع خصائص اكبر من هذه وأوضح ، تشخص الظلام في الليل والضياء في النهار ، كما تشخص الوزن في الشعر وعدم الوزن في النثر . ومن ثم فاذا نحن سمينا كل كلام شعرا بمعزل عن فكرة الوزن ، فسوف نكون كمن يسمي الحياة كلها نهارا سواء أكان فيها ضياء أم لا . وانه لواضح انها تسمية مفتعلة . ان الليل ليل ، والنثر نثر . وواجبنا نحو اللغة والذهن الانساني ان نسميهما ليلا ونثرا دون ان ننتحل لهما تسميات مضللة لا تشخص شيئا . وما الذي نستفيده من تسمية النثر شعرا والليل نهارا يا ترى ؟ اوليس تشخيص الفروق احسن من ذلك واجدى ؟

ان اللغة ، التي هي محصول الذهن الانساني عبر عشرات القرون ، لا تضع الاسماء اعتباطا ولا عبثا وانما هناك مفهوم فلسفي عام يكمن وراء كل تعريف وتسمية ، في كل لغة . تحاول اللغة ان تشخص الملامح البارزة ، وترمي بذلك الى تصنيف الاشياء تصنيفا يسهل على العقل مهمة التفكير ، ويعطي الانسانية مجالا للتعبير عن منطقها وفكرها . فما نكاد نلفظ كلمة النهار في اية لغة حتى يشرق الضوء في الذهن الانساني وتنبسط فكرة النور ، وما نكاد نلفظ كلمة الشعر حتى ترن في ذاكرة البشرية موسيقى الاوزان وقرقعة التفعيلات ورنين القوافي . واليوم جاءوا في عالمنا العربي ليلعبوا لا بالشعر وحسب وانما باللغة ايضا وبالفكر الانساني نفسه . ومنذ اليوم ينبغي لنا ، على رأيهم ، ان نسمي النثر شعرا والليل نهارا لمجرد هوى طارىء في قلوب بعض ابناء الجيل الحائرين الذين لا يعرفون ما يفعلون بانفسهم .

ولست اظنني ابالغ حين احكم بان هذه المحاولة تكاد تكون تحقيرا للذهن الانساني الذي يحب بطبعه تصنيف الاشياء وترتيبها . فاذا اطلقنا اسما واحدا على شيئين مختلفين تمام الاختلاف فما وظيفة الذهن الانساني ؟ واذن فلماذا لا نرتد الى فترات الجاهلية اللغوية ، يوم لم تكن هناك اسماء للاصناف ؟ وانما التصنيف وتسمية الاصناف نتاج الحياة الفكرية للامم ، كلما كانت الامة اعرق في الفكر والحضارة ، كانت تفاصيل التسميات اكثر وأدق . وعلى هذا لا تكون تسمية النثر شعرا اكثر من نكسة فكرية وحضارية يرجع بها الفكر العربي الى الوراء قرونا كثيرة .

ولا يقف الامر عند هذا الحد وحسب وانما نجد له جذورا تمس الجانب الاجتماعي للغة . فلعلنا نستطيع ان نلاحظ كلنا ان تسميتنا للنثر « شعرا » هي ، في حقيقة الامر ، كذبة لها كل ما للكذب من زيف وشناعة ، وعليها ان تجابه كل ما يجابهه الكذب من نتائج . والكذبة اللغوية لا تختلف عن الكذبة الاخلاقية الا في المظهر . ان كل كذبة سائرة الى ان تنكشف امام عيون الطبيعة الصادقة التي لا تنطق الا بالحق وبالاستقامة . واللغة الانسانية ، كل لغة ، هي الصدق في انقى معانيه وأسماها . انها واقعية لانها تسمي الاشياء باسمائها الحقة ، فلا تخون ولا تكذب ولا تزيف . وهكذا نجد الكرسي يسمى كرسيا لان هذا الاسم يعطينا صفته في الاحوال كلها ولا يكذبنا قط . والنثر يسمى في اللغة نثرا لان اسمه هذا يعطينا صفة النثر ، كما ان الشعر يسمى شعرا ليعطينا صفة الشعر . وهذا الصدق المطلق في اللغة يكسبها ثقتنا واجلالنا . وهو ، ايضا ، يحمينا نحن الذين نتكلم هذه اللغة من أن نكذب ، فنحن نشدها الينا ونلوذ بصدقها في ساعات الضيق . فاذا هوجم شاعر بانه يكتب نثرا لا شعرا ، وجد امامه هذه اللغة الصادقة ذات التعابير المحددة الصريحة المستعدة لحمايته فيلوذ بها ويقول لمن يتهمه ان انتاجه شعر لا نثر . وهو في هذه الحالة يستعمل رصيد « الشعرية » الذي تملكه لفظة (شعر) في اذهان الناس . وهم ينسبون الى ما يكتب كل صفات الشعر فورا بمجرد ان يقول لهم ذلك .

والحق ان لغتنا العربية لن تحمينا بعد اليوم . ذلك ان هناك اليوم اناسا يكتبون النثر ويسمونه ، في جرأة عجيبة ، شعرا ، حتى فقدت كلمة شعر صراحتها ونصاعتها . ولسوف يتشكك الجمهور في أي شعر نقدمه له باسم (الشعر) لان لفظ شعر قد تبلبل معناه واختلط وضاع . والواقع ان هذه الكذبة ، وكل كذبة مثلها ، خيانة للغة العربية وللعرب انفسهم بالتالي . ان اللغة التي يستعملها اناس غير صادقين سرعان ما تتلوث بالكذب وتفسد . وعندما تكتشف الحياة ، او الضمير اللغوي العام الكامن في النفس البشرية – ان كلمة (شاعر) قد اصبحت نعتا للناثر ، فانها ستضطر الى الشك في كلمة (شاعر) وكلمة (شعر) . فمهما أكد الناس انهم يكتبون شعرا فلن يصدقهم أحد قبل التثبت الاكيد .

وما معنى هذه النتيجة ؟ معناها اننا لن نزيد على ان نخسر كلمة مهمة من كلمات اللغة فتموت كلمة (شعر) . ومن الطبيعي الا يعني ذلك ان الشعر نفسه سيموت . فلو زالت الكلمة من القاموس العربي لبقي الناس ينظمون الشعر مع ذلك . فانما اللغة رموز تذهب وتجيء . واما الحقائق التي تكمن وراء تلك الرموز فانها لا تموت على الاطلاق . ان الحقيقة لا تزيف مهما تلاعبنا باسمها . بلى نستطيع ان نزيف كلمة ناصعة بان نطلقها على ما لا تمثله في الاصل ، ولكننا بذلك سنقتل الكلمة نفسها ، واما الحقيقة فسوف تبقى ناصعة . وسرعان ما ستجد تلك الحقيقة لنفسها اسما آخر جديدا فيه النصاعة اللازمة . وبهذا تخلد الحقيقة وتسقط الكلمة .

ولسوف يجد دعاة « قصيدة النثر » انفسهم حيث بدأوا ، فلقد استحال معنى كلمة (شعر) الى التعبير عن النثر كما ارادوا ، غير ان الشعر وجد لنفسه اسما آخر

– التتمة على الصفحة ٧٠ –

صفحات من

تأملات وجودية

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

٢٨ يوليه ...

موضوع تأملي اليوم هو « الاعجاب » ، فأنا اشعر بأن معنى « الاعجاب » قد انكشف لي للمرة الاولى في صباح هذا اليوم حينما استيقظت في الصباح المبكر لكي أستمتع باشراق الوجود . انه يخيل الي ان القدرة على « الاعجاب » و (التعجب) مظهر من مظاهر تفتح النفس وصفاء الذهن، بدليل ان الرجل العادي المستغرق في احداث الحياة لا يكاد يجد في نفسه القدرة على تذوق شيء او الاعجاب بشيء . فالاعجاب عندي هو الخروج عن الذات،من اجل الاستغراق فيما هو أعظم من الذات . ولكنني ادركت اليوم فقط ما في الأعجاب من معنى عميق ، اذ وجدت نفسي مغمورا بشعور غريب انتزعني من نفسي ومن افكاري الصغيرة ، ولم ألبث ان وجدتني غارقا في محيط هائل من الجلال والجمال ، كأنما قذف بي في اعمال الوجرد الاعظم . وانه لشعور محرر ذلك الشعور الذي يستولي على النفس فيصرفها عن وجودها الضئيل ، لكي يجعلها تستغرق في ذلك « الكل » الشامل الذي تنزع اليه في قرارة ذاتها نزوعا باطنا دفينا .

نعم انني لا استطيع ان أحدد طبيعة « الكل » ، ولكن جهلي بطبيعته لا يحول دون الاعجاب به والشوق اليه . وانني لانظر فيما حولي فألمح اشعاعا الهيا في كل ما يوحي بالعظمة والجلال ، كأن الطبيعة نفسها تحاول ان ترفعني عن الارض وتعلو بي الى السماء . وهكذا اجدني مضطرا الى الاعتراف بأن في الاعجاب بالطبيعة ما يسمو بالنفس نحو آفاق عليا قد تكون هي الجو الروحي الوحيد الذي تستطيع الروح الانسانية ان تتنفس فيه . وليس اشقى من ذلك الرجل الذي لا يشعر بما في الوجود من جلال وجمال ، فيقف جامدا امام كل ما هو عظيم ، ولا يحس بأية لذة باطنة في ان يتذوق مجالي الطبيعة .

واما ذلك الذي يعرف كيف يفتح عينيه لكي يشاهد طلوع الفجر او شروق الشمس ، فانه لا بد ان يقف مبهوتا امام روعة الوجود حينما تنبثق الحياة في الصباح المبكر ، وعندئذ لا بد ان يسري في نفسه ذلك الاعجاب المقدس الذي هو اقرب ما يكون الى صلاة صامتة . والواقع ان الاستغراق في الطبيعة يعلو بالانسان فوق الاهواء الصغيرة والافكار الشريرة ، كأنما يطهر النفس من انفعالاتها المادية ، ويحررها من قيودها الارضية ، لكي يقربها الى الله نفسه .

... وفي صباح هذا اليوم همست في اذني طلائع الفجر فقالت : لا تنس ان النفس ايضا يجب ان تستعد للعمل بالصمت والسكون ، كما تستعد الارض لنهار العمل بسكون الفجر ! .. وامام تلك الخيوط الذهبية البديعة التي راحت عيناي تتملى جمالها ، وجدتني أفكر في ذلك النور الالهي الذي هو اشعاع نفاذ ، واشراق لامتناه ، ليست منه تلك الاضواء المرئية الا بمثابة صور باهتة واضواء شاحبة !

٣٠ يوليه ...

من الافكار التي ترددت على خاطري اليوم فكرة « الوجود » فان هذه الفكرة لا تكاد تبرح مخيلتي منذ طالعت بالامس الصفحات الاولى من كتاب « س » . والواقع انني ما فكرت في « الوجود » يوما الا وشعرت بدوار عقلي عجيب ، كأن « الوجود » يند عن « التفكير » ، او كأن كل محاولة لتعقل الوجود لا بد ان تقذف بنا الى عالم « اللامعقول » . ولكنني مع ذلك اميل الى الاعتقاد بأن « الوجود » هو الحقيقة الكبرى التي تشمل في طياتها العقل ، والعاقل ، والمعقول ، بل واللامعقول ايضا ، بحيث ان كل محاولة لاثبات الوجود عن طريق الفكر لا بد أن تبوء بالفشل ، ما دام الفكر لا يمكن ان يكون مكافئا للوجود .

ولكن ما هو الوجود ؟ بل ماذا عسى ان يكون معنى قولي : « انا موجود » ؟ هنا قد يبدو مثل هذا التساؤل عبثا لا طائل تحته ؛ فان الوجود موجود (كما قال بعض الفلاسفة) وليس ثمة معنى للتساؤل عن ماهيته . بيد اننا حينما نضع الوجود موضع التساؤل ، فانما نحاول ان نفهم السر في استحالة العدم المطلق ، وامتناع اللاوجود التام . والحق ان الوجود ليس في حاجة الى اثبات ، ولكننا في حاجة الى ان نعرف لماذا كان « العدم المطلق » مستحيلا استحالة الدائرة المربعة . نعم لقد بين لنا كثير من الفلاسفة (من بينهم برجسون وبلوندل وغيرهما) تناقض فكرة العدم ، ولكن احدا لم يحاول ان يبين لنا استحالة وجود « حد مقابل » لكلمة الوجود . وفي رأينا ان هذه حقيقة هامة ينبغي العمل على اظهارها ، حتى نجنب الفكر المعاصر كثيرا من العثرات،فان كثيرا من المفكرين المعاصرين يتحدثون عن « الوجود والعدم » ، كأن كلمة « الوجود » لا تعبر الا عن مجرد نفي او سلب négation لكلمة « العدم » . ولكن الواقع ان « الوجود » لفظ ايجابي مطلق ، وهو أبعد ما يكون عن تلك المفهومات السلبية التي تعبر عن افكار ناقصة . فالوجود حقيقة مطلقة لا تقدم عليها اية فكرة اخرى ، كائنة ما كانت ، ولا سبيل الى فهمها على ضوء اي مفهوم سلبي كائنا ما كان . ولكن الفكر حينما يجعل من « الوجود » فكرة ، فانه سرعان ما يثير ذلك السؤال الميتافيزيقي الذي عبرنا عنه بقولنا انه تساؤل عن السر في استحالة العدم المطلق او اللاوجود التام . بيد ان هذه الاستحالة قد لا تكون في حاجة الى أفضل بيان ، خصوصا اذا حاول الانسان ان يسمو بنظره العقلي – في لمحة خاطفة – الى أفق أبعد من ذلك الافق المنطقي القاصر .

فهنالك سيرى المرء ان العدم فكرة لاحقة على الوجود ، او ان اللاوجود مفهوم قاصر خلقه العقل الانساني الذي يعمم فكرته عن « التناقض » على كل شيء ، حتى على «الوجود» نفسه . ولكن « الوجود » هو الحقيقة الوحيدة التي لا تقبل نظام الفكر وتسلسل المنطق ، فليس ثمة موضع للحديث عن « نقيض » بالقياس اليه . واذن فالوجود هو ما هو ، ولا سبيل الى وضعه في اية قضية منطقية تحتمل السلب او النفي . ولكننا نعود فنتساءل : ماذا عسى أن يكون معنى قولنا ان « الوجود هو ما هو » ؟

اول اغسطس ...

بالامس جال بخاطري ان كل ما استطيع ان أقرره بصدد الوجود انما هو قولي « انه هو ما هو » ، وقد عاودت اليوم التفكير في هذه العبارة ، فخيل الي بادىء ذي بدء أنها لا تعني شيئا على الاطلاق ، ولكنني سرعان ما اهتديت الى مدلول هذه العبارة في لمحة خاطفة من لمحات البداهة للعقلية . والحق ان قولي ان الوجود هو ما هو انما يعني ان الوجود كل لا يند عنه شيء ولا يخرج منه شيء ، فهو ملاء لا موضع فيه لخلاء او نقص او تصدع . وبهذا المعنى يكون « الوجود » هو تلك الحقيقة الشاملة التي لا تقبل وصفا ولا تمييزا ، لانه لا سبيل الى الخروج عنها لوصفها وتمييزها .

٣ اغسطس ...

« انا موجود » : هذه العبارة الصغيرة كثيرا ما أرقت الفلاسفة والمفكرين ، ولكنها مع ذلك عبارة واضحة لا تحتمل لبسا ولا ابهاما . فأنا موجود لانني أشارك في هذا « الوجود » العام الذي يشمل كل شيء ، ويطوي في ثناياه كل ما هو موجود . وليس وجودي سوى شعوري بأنني جزء من ذلك « الكل » الذي أحيا وأتحرك وأوجد فيه . حقا انني قد اشك في وجودي او قد ارتاب في صحة مشاركتي لذلك « الكل » ، ولكن هذا الشك لا يرقى بحال الى صميم وجودي نفسه ، بدليل أنني اظل موجودا حتى في لحظات شكي وارتيابي . فالوجود لا يستخلص من الشك (او من الفكر) ، بل الشك مظهر من مظاهر الوجود، والفكر عرض مصاحب للوجود . ولكن هل « أنا موجود » كما توجد هذه الشجرة او ذلك المقعد او تلك المائدة ؟ لا شك ان وجودي يتميز بأنه مقترن دائما بشعوري بأنني « موجود » ، ولكن هذا الشعور نفسه هو كل ما أعرفه عن معنى « الوجود » . فقولي ان المائدة موجودة او ان المقعد موجود هو في الحقيقة « تجاوز » قوامه اسقاط وجودي الخاص على الاشياء . ولكن من يدريني، فربما كان الشعور حقيقة أعم من الفكر ، بحيث قد يكون لدى الاشياء ضرب من « الشعور » (او الاحساس الغامض المبهم) بوجودها ؟ وعندئذ فقد يكون « وجود » الاشياء هو نزوعها الضمني نحو مشاركة ذلك « الكل » الذي توجد فيه ، او اتجاهها الدفين نحو المساهمة في خلق تلك الصيرورة الكونية التي يتكون منها العالم . نعم ان مثل هذا الفرض يثير الكثير من المشاكل والاعتراضات، ولكننا لا نجد مبررا لتقسيم الوجود منذ البداية الى « وجود في ذاته » en soi و « وجود لذاته » pour soi كما فعل سارتر (مثلا) . والادنى الى المعقول في نظرنا ان يكون « الوجود » معنى عاما يطوى في ثناياه كل شيء ، بحيث لا تعود ثمة « هوة » او « ثغرة » يحتض بها الانسان ، كأنما هو مجرد « عدم » أو «تصدع» في صميم الوجود .

٤ اغسطس ...

حينما أحاول ان أفكر في « معنى » حياتي ، فانه يخيل الي ان الحياة ليست شيئا يتضمن « معنى » ، لانها ليست « موضوعا » يمكن ان أتعقله او ان أفكر فيه ، بل هي ذلك « الكل » الذي تنبعث ابتداء منه سائر المعاني... فالحياة لا تفسر بغيرها ، وانما يفسر كل ما عداها ابتداء منها .

بيد ان المشكلة قد بدت لي أعقد من ذلك ، لانني في العادة أحيا دون ان افكر في معنى حياتي ، وحينما تثور في ذهني مشكلة « معنى » الحياة ، فان حياتي نفسها تكون قد اخذت تفقد معناها . وهناك اناس لا يفكرون قط في معنى حياتهم ، وهؤلاء عندي هم في الغالب ممن تحمل حياتهم معنى تلقائيا قد لا يرقى اليه الشك ، او ممن لا تقف في سبيل نشاطهم الحيوي اية عقبة فكرية . ولكنني لا أملك ان أحول بين فكري وبين اعاقة نشاطي الحيوي ، لانني كثيرا ما اشعر بضرورة التساؤل عن معنى حياتي . وفي هذه الحالة اراني مضطرا الى الشك في « قيمة » وجودي ، كأن « الفكر » حكم التجيء اليه للفصل في معنى حياتي او لاصدار الحكم على وجودي بصفة عامة . بيد ان ثمة هاتفا باطنا سرعان ما يهمس في أذني ان هذا الحكم نفسه ليس اهلا للفصل في هذه القضية الخطيرة التي قد تخرج عن دائرة اختصاصه ! وكأني لا أكاد أرتاح لحكم يصدره العقل على وجودي ، وهو ذلك الوجود الذي لولاه لما وجد العقل نفسه ...

فعلى اي نحو اذن يمكنني ان أضع مشكلة « معنى » الحياة ؟ او بعبارة اخرى : الى اية قوة ينبغي ان التجيء للفصل في هذه المشكلة ؟ .. ولكن من يدريني ان هناك حقا مشكلة ، فقد يكون عقلي هو الذي يبتدع المشكلة ، حيث ليس ثمة اشكال ؟ ان الكثيرين من حولي ليعيشون دون ان يؤرق أذهانهم مثل هذا الاشكال ، أفلا يكون التساؤل عن معنى الحياة عرضا مرضيا من أعراض ذلك الداء العقلي الذي ينتاب بعض الفلاسفة فيصرفهم عن التمتع بوجودهم والاستغراق في حياتهم ؟ ولكنني لا أفهم كيف يمكنني ان أحيا دون ان أفكر في هذه « الحياة »، فان فكري يلاحق كل شيء ، ولا يكاد ينفصل عن وجودي نفسه . فما السبيل اذن لتذوق وجودي دون الحكم عليه ، او للاستمتاع بحياتي دون التساؤل عن معناها ؟

الحق انه من العبث ان احاول الرجوع الى تلك الحالة البدائية التي فيها يحيا الانسان دون ان يسعى الى تعقل حياته او الحكم عليها ، فقد اصبح من المستحيل علي بعد ان تسلل فكري الى صميم حياتي ان أعود فأحاول ان اقذف به الى الخارج لكي انصرف الى ممارسة نشاطي التلقائي دون تأمل او تردد او ارتياب. ومع ذلك فانني أجد لذة قصوى في ان أؤلب فكري على وجودي ، لان فكري كثيرا ما يخلع على وجودي من « المعاني » المعقولة ما يفوق في قيمته كل ما يجيء مع الحياة البدائية من « معان » تلقائية ! ولكنني أعود فأتساءل : كيف يمكن للفكر ان يخلع اي معنى على الوجود ؟

القاهرة — زكريا ابراهيم

حول أدب القوميين السوريين :

البعث والرماد

بقلم رجاء النقاش

لست من المتحمسين لنقد الشعر على أساس سياسي، فهذا الاتجاه في الادب يؤثر كثيرا على القيمة الفنية للانتاج الادبي، ولكننا مع ذلك لايمكن ان نتجنب هذا الموقف في اللحظة التاريخية الراهنة التي يعيشها وطننا العربي، ففي هذا الوطن الجريح من كل جانب، تتصارع الافكار والتيارات، وكاتب هذه السطور مؤمن مع آلاف المواطنين العرب، بان طريق الخلاص لوطننا العربي هو طريق القومية العربية وطريق الاشتراكية في الوقت نفسه، والقومية العربية والاشتراكية هما الجناحان اللذان تطير بهما الثورة العربية وتنطلق لتحقيق اهدافها في تغيير الواقع الاجتماعي والفكري لقلب حضارتنا بوجهيها المادي والمعنوي.

وأي تأمل لواقعنا العربي الراهن يكشف ان الثورة العربية تواجه ثورة مضادة، ولهذه الثورة المضادة عدد من الكتائب المختلفة من الناحية الشكلية، والتي تتفق في النهاية اتفاقا كاملا من ناحية الغاية والهدف، والقوميون السوريون هم جزء من الثورة المضادة للثورة العربية، هم كتيبة من الكتائب الكبرى في جيش هذه الثورة المضادة.

وعندما كتبت سلسلة من المقالات في جريدة « اخبار اليوم » ثم كتبت مقالا في العدد السابق من «الاداب» اوضح فيه بعض مواقف القوميين السوريين في الميدان الادبي تلقيت عدة رسائل تهاجمني اشد الهجوم على هذا الموقف، وحسبي هنا ان اشير الى اعنف رسالة تلقيتها، وكانت بتوقيع « احمد مهدي الامام »، ويدعي الكاتب انه عراقي، رغم اعتقادي انه من جماعة مجلة « شعر » المعروفين في لبنان، وان الاسم « مخترع » لتغطية الاسم الحقيقي لصاحب الرسالة.

يقول صاحب الرسالة وانا انقل الرسالة هنا بالنص :

« صدفة وقعت بين يدي، وانا اقوم بزيارة لبيروت نسخة من جريدة اخبار اليوم وفيها مقال نقدي عن الشاعر ادونيس امير شعراء القوميين السوريين. مالي وللحزب، فأنا لست من مؤيديه، اما الشاعر ادونيس فقد استغربت ان يسوق قلمك اللامع عادة هذه التهم المجوفة بحقه، ويشهد الله انني كنت في المقهى حين قراءتي للمقال المذكور فما تمالكت نفسي من الضحك العلني والقهقهة حتى الامر « كذا في الرسالة» الذي جعل نادل المقهى يستوضحني عن سبب هذه الضحكة العالية التي اسقطت طقم اسناني من فمي وتحطم على الارض، بينما كان الاخرون يسقطون في ذهول تام. وقلت للنادل : ياللغباء، اتعرف ماهو الفينيق؟ فأجابني وهو على قسط من العلم : بانه طائر اسطوري يحترق عندما يهرم، لينجدد ويبعث حيا من رماده.

وازداد عجبي، نادل المقهى يعرف ماهو الفينيق والناقد رجاء النقاش لايعرفه ... يظنه فينيقيا. لله ما اوسع مجهولات السيد رجاء. وعندما علم النادل بالامر قال لي : لاتستغرب ياسيدي، فقد تساءل احد رجالات مصر الكبار ذات مرة، في اية معركة استشهد اللواء اسكندرون « واللواء اسكندرون يا سيدي لمعلوماتك، هو جزء سلخ من سوريه وضم الى تركيا » واضاف النادل : ومرة كتب كمال الملاخ عن القائد الاسباني العظيم هانيبال!

لقد تألمنا ياسيدي ان يقع المسؤولون عن رعاية الفكر والادب في عالم العروبة بمثل هذا الجهل الفاضح. وازدادت رغبتي بعد مقالك في التعرف الى هذا الشاعر ادونيس الذي نقيم له في العراق أهمية عالية جدا، وربما سندعوه لزيارتنا حيث نسمع بعض شعره.

وهو يا سيدي مع اعترافك بموهبته، يعتبر طليعة شعراء العالم العربي والشاعر الوحيد تقريبا الذي استطاع ان يجعل من الادب العربي على مستوى العالم. وهو ايضا في رأيي، اعظم ثلاثة شعراء انجبهم تاريخنا على مر العصور : احدهم مات طفلا، قبل أبي العلاء، والاخر لم يولد بعد ✶ ...

ويحلو لي ان أشبه خطيئتك المميتة هذه بذلك الخطأ الذي ارتكبه تلميذ ابتدائي عندما قال لاستاذه :

« الخسن والخسين بنات معاوية » فاستغرب الاستاذ وقد صحح له:

اولا ــ الحسن والحسين لا الخسن والخسين.

ثانيا ــ اولاد وليس بنات

ثالثا ــ علي وليس معاوية

ارجو ان تبقى سيدي ذخرا للادب العربي ... وارجو اخيرا ان يتروى اخواننا المصريون في المسائل الفكرية والادبية على الاقل بحيث لا يتعرضون لها وهم محششون او محششات ــ احمد مهدي الامام ».

هذا هو نص الرسالة التي وصلتني من صاحب التوقيع، والذي اعتقد كما قلت انه توقيع زائف لواحد من مجموعة مجلة شعر المعروفين. وقد حرصت ان انشر هذه الرسالة كاملة لكي يرى القراء العرب صورة اخرى من اخلاق هؤلاء القوميين السوريين، ونفسيتهم المليئة بالحقد والمرارة والضيق بكل من يحاولون فهمهم وكشفهم على حقيقتهم.

والرسالة لاتحمل أي وجهة نظر موضوعية، وانما تعتمد على تسقط بعض التهم الجزئية الهزيلة وترديدها ضد كاتب هذه السطور وضد المصريين على وجه العموم، لم يحاول صاحب الرسالة ان يناقش فكرة واحدة من الافكار التي عرضتها في « أخبار اليوم » او في «الاداب»، لانه هو وأمثاله لايطيقون المناقشة الموضوعية، ويهربون منها الى ترديد تفاهات .. لاتغني شيئا امام الحقائق التي تدمغهم وتدينهم. فلم يستطع صاحب الرسالة ان يقول شيئا حقيقيا يدافع به عن أدونيس.

واذا حاولت ان احدد لقطة موضوعية واحدة في هذه الرسالة فهذه النقطة الوحيدة هي الفرق بين فينيقيا والفينيق في قصيدة البعث والرماد لادونيس.

والواقع انني قرأت القصيدة جيدا، وقرأت التفسير النقدي الذي قدمته خالدة سعيد زوجة ادونيس«للفينيق» ذلك الطائر الاسطوري، وقد اشرت الى هذه الاسطورة في جريدة « اخبار اليوم » في القسم الثالث من دراستي لادب القوميين السوريين « عدد ١٠ مارس سنة ١٩٦٢ من جريدة اخبار اليوم » ، وذلك قبل ان تصلني هذه الرسالة بفترة طويلة.

✶ الكاتب يقصد هنا ان ادونيس هو أعظم شعراء العربية على الاطلاق.

ولكنني مع ذلك اعتقد ان المعنى الاساسي في قصيدة ادونيس هو المعنى السياسي ، معنى الحنين الى فينيقيا ، والدعوه الى بعثها وتجديدها ، ولو حلف لي ادونيس واصحابه على القرآن والانجيل والتوراة ، انهم يقصدون مجرد معالجة فنية للاسطورة لقلت لهم انتم كاذبون كعهدنا بكم دائما ، ولن أقول هذا عنادا مني واصرارا على راي لاتؤيده البراهين ، بل سأقوله استنادا الى شيئين :

اولا : النص الفني لقصيدة البعث والرماد .

ثانيا : وجهة النظر العامة التي يبثها ادونيس في شعره وفي كتابته النثرية ويرددها معه ادباء مجلة شعر .

فاذا عدنا الى قصيدة البعث والرماد وقفنا امام المقطع الاول لنجد ادونيس يقول :

أحلم ان في يدي جمرة
آتية على جناح طائر
من أفق مغامر
أشم فيها لهبا هياكليا
ربما لصور فيها سمة امرأة
يقال صار شعرها سفينة
أحلم ان شفتي جمرة
اخالها قرطاجة العصور
كل جمر شرارة
والطفل فيها حطب – ذبيحة المصير
مثل قبس ان لم يضيء يموت
آه ، آه ، رئتاي جمرة
يخطفني بخورها ، يطير بي لموطن
اعرفه أجهله
....

يشير الشاعر في هذا المقطع الى ثلاثة اشياء :

اولا : مدينة صور

ثانيا : مدينة قرطاجنة وحريقها المشهور الذي اشعله الرومان في تلك المدينة بهدف القضاء عليها وتحطيمها .

ثالثا : شخصية امرأة معينة ، ولن تكون هذه المرأة بحكم السياق الفني للقصيدة سوى اميرة « صور » ابنة ملك « صور » التي هربت من مدينتها الاولى لتقيم مدينة قرطاجنة التي اصبحت مركزا ضخما لحضارة الفينيقيين وتجارتهم .

وهذه الاشياء الثلاثة التي يشير اليها الشاعر في الجزء الاول من قصيدته هي اجزاء هامة من تاريخ فينيقيا والفينيقيين .

يقول ويل ديورانت في كتابه قصة الحضارة « الجزء الاول من المجلد الثالث » :

« تعزو الروايات القديمة انشاء هذه المدينة – أي قرطاجنة – الى اليسا Elissa ابنة ملك صور ، فتقول ان اخاها قتل زوجها فأبحرت مع طائفة اخرى من المغامرين الى افريقيا وسمى المكان الذي استقرت فيه باسم كارت هدشت أي المدينة الجديدة والذي تحول بعد ذلك الى اسم « قرطاجنة » ، وهاجر كثيرون من سراة اهل صور الى افريقية ، واستقر معظمهم في قرطاجنة فاصبحت بسبب هذه الهجرة مركزا جديدا للتجارة الفينيقية ،واخذت قوة قرطاجنة وعظمتها في الازدياد كلما اخذت صور وصيدا في الاضمحلال » .

الا يعطينا هذا دلالة أكيدة على ان الشاعر قد ربط بين أسطورة « الفينيق » وبين فينيقيا ربطا واضحا ، وانه في الحقيقة انما يهدف الى تأكيد المعنى التاريخي السياسي، وان اسطورة طائر الفينيق ليست الا ستارا خارجيا شفافا يخفي تحته المعنى السياسي الذي يريد ان يقوله ؟ ماعلاقة طائر الفينيق بمدينة صور القديمة .. مركز الفينيقيين القدماء ؟

ماعلاقة طائر الفينيق بمدينة قرطاجنة مركز الحضارة الفينيقية المزدهرة ، والمدينة التي جعلت من الفينيقيين « انجليز العالم القديم » كما يسميهم المؤرخون المعاصرون ؟

ما هي علاقة طائر الفينيق بحريق قرطاجنة الذي دمرها وقضى عليها ؟.. صحيح ان طائر الفينيق كما تقول الأسطورة يحترق ليبعث من جديد .. ولكن ألا يدل هذا على ان الشاعر قد قصد الى التطابق المباشر بين الواقع التاريخي لمدينة قرطاجنة والواقع الاسطوري لطائر الفينيق ، فقرطاجنة قد احترقت لتعود من جديد ، كما يحترق الطائر ليعود من جديد ؟

أليست هذه كلها دلائل مستمدة من قلب القصيدة تؤكد أن المعنى الاساسي هو المعنى الحضاري والسياسي .. وليس هو المعنى الاسطوري فقط كما يقول صاحب الرسالة الصغير ؟

وعندما يقول ادونيس في هذا الجزء من القصيدة ايضا :

آه ، آه ، رئتاي جمرة
يخطفني بخورها ، يطير بي لموطن
أعرفه أجهله .

عندما يقول ذلك ، فهل يسمح صاحب الرسالة الصغير بأن يقول لنا الى أي وطن يحن شاعره ادونيس ؟ هل يحن الى سوريا التي طرد منها لانه قومي سوري صريح ؟ هل يحن الى الوطن العربي المجزأ المنقسم المجروح الذي لم يقل فيه كلمة حب واحدة وهو الذي يقول الشعر منذ مايقرب من خمس عشرة سنة ؟ بل وهو الذي ملأ شعره تنصلا من العروبة وحقدا عليها ؟

الى أي وطن يحن هذا الشاعر ان لم يكن الى فينيقيا وسوريا الكبرى وغير ذلك من المشاريع التي يحلم بها ويتبناها القوميون السوريون؟! اني اتمنى ان يكشف صاحب الرسالة عن وجهه ويجيب بعلمه الغزير على كل هذه الاسئلة ؟

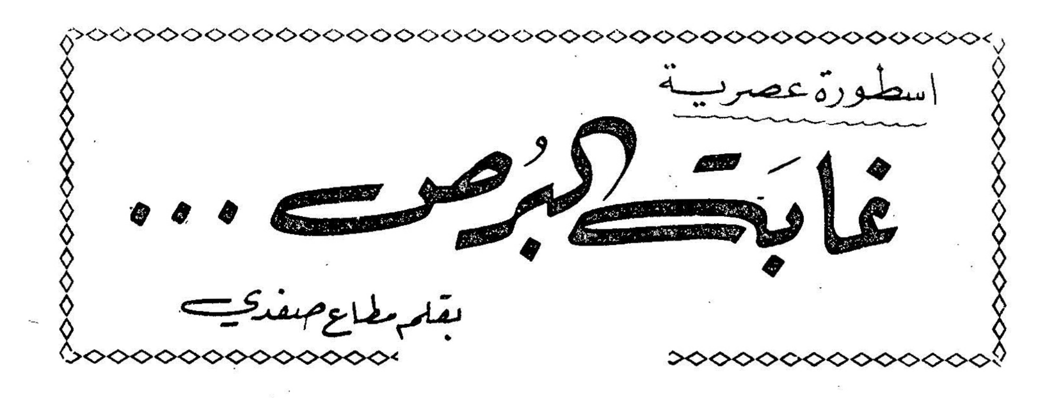
في الجزء الرابع من القصيدة يقول الشاعر :

نيراننا جامحة الاوار كي يولد فينا بطل

– التتمة على الصفحة ٧٢ –

مدينة جديدة





كان له وجه مثلثي ، قاعدته عند خط احمر يفصل بين تربة الشعر الزيتي القذر ، وبين صفحة الجبين المسطح الضيق . والجبين صفحة من العظم الابله . والعينان تحت قوسي الحاجبين ، دائرتان كثيفتان من النظر المضطرب ، يلتمع بالماس مصطنع ، تحت بصيص من مصابيح الزوايا في المواخير ، واما انفه – ويحلو لي ان اتابع تفاصيل ذاك الوجه المثلثي – فقد كان له نصل قائم كسكين احد الشطار الخرافيين . ولكن المثلث كان ينتهي كله بحركة ساحلة من الانف الى الفم المزرق ، الى نقطة اخيرة في الذقن ، كمزراب يسيل من خلالها كل هذا الوهم الاحمر المشدود على صفحة الوجه ، على عظم ناتيء في الوجنتين ، يكاد يتخلع عن مفاصله .

والوجه المثلثي يقوم بعدئذ على قاعدة من جسد نحيل قميء ، يشتد توترا عظميا بين الجبين المسطح ، والعيون المضطربة ، والجذع الضامر ، والساقين ، العصويين . والانسان ذاك اخيرا يحس بابتلال وألم ، في مواضع كثيرة من جسده، فهو لذلك كمن يسمى الىان يغب البلل بحركات لولبيه حول قاعدته .. كان ذو الوجه المثلثي ، يفخر انه هو هكذا دائما ، يفخر بانه مضطرب ، وانه عصبي ، وان الهواء حوله في ارتجاج مستمر .. انه حي ، ويحيى بعنف !

ولكن بقعة صفراء ما ، كانت تنتقل خلسة فوق جلده الاحمر ، من جزء الى اخر ، وكان يضطر الى مد اصابعه ليتابعها ، ويحك ، ويحك . وتبدأ الحركة ، ولا بد له ان يستمر . ان المسألة تتوقف على الاخرين . فهو مضطرب ، وهو عصبي ، ولكنه لايود ان يدع الاخرين يلتهمون حكاكه.

وعندما عرفته ، كان يقف في مركز الدائرة . والاضواء تحاصره من كل جانب . وعيناه تلتمعان اشد لمعان بالماسهما المزيف . وكان ذو الوجه المثلثي يحرص على ان يبقي بعض اناس اخرين على مسافات متفاوتة منه . كان يتنفس بخلسة . ويخش ان تصطدم انفاسه بلهاث الاخرين .

وعلى اقرب مسافة منه ، قامت جثة خبيثة . كانت منتفخة بشكل جيوب من القيح المغلف بالجلد الابيض . وكانت هذه الجيوب عبارة عن كرات متوازنة تماما ، بين كرة الرأس ، والانف ، والكرش . والجثة تلك ، كيس مُفلطح من القيح ، مكوم بطريقة معكوسة .

ولا شك ان لهذه الجثة بقعة اخرى صفراء ، تتسلل عبر تضاريس جلدها الرخو . وكانت تبعث على الحكاك كذلك . ومن هنا لجأت يد هذا القزم المنتفخ الى ستر البقعة ، كلما برزت تحت صرخة من وخز الابر . فتلاحقها اليد . ولكن اليد كانت بارعة ، اذ لم تتوجه مباشرة الى اصطياد بركة القيح في الجلد . بل راحت تقوم بحركات عديدة . منها مثلا انها تتوجه الى ربطة العنق ، لتحل فيها انسجاما او اضطرابا، ومنها انها كانت تعلو لتلقي سلاما ، تحية لرجل اخر مصاب بمرض سري على مسافة اخرى . ومنها انها كانت تمسك بالقلم لتكتب على الورق . وتجيء مجموعة هذه الحركات جميعها ، لتخفي لحظة تختلس اليد فيها بعض شبق مؤلم ، تقبض من خلاله على بركة القيح ، لتلدعها ، لتنفرك اديمها الخبيث ، لتضغط جيب القيح ، ويسيح منه بعض رائحة وبعض جرثومة .

وفي نقطة اخرى ، تقع مقابلة لخط وهمي يقوم بين الوجه المثلثي وبين الجثة الكروية ، تنتصب عودة اخرى ، تهتز من شفتيها ، فتتآكل الشفة السفلى المتدلية تحت الفم ، كهلال رخو ، تأكل من الشفة العليا ، وهي قنطرة شفافة لزجة فوق اخدود الفم ، مستنقع نحيل مظلل بهوام غير مرئية .

كان على الارض ذات الاضواء ينعكس اذن مثلث اخر من ثلاثة رجال، يقابلون صاحب الوجه المثلثي . وكان رأس المثلث ، تلك العودة المهدلة الشفاه ، لاتحك مباشرة مكامن الوباء السري في جسدها . كانت تهتز بثعلبة عجيبة ، تنهل من عين ضيقة كفتحةقبر مهجور ، يسكنه دود مذعور.

ويظل يهتز هذا الرجل اعلى اسفل ، وكأن بقعة القح كانت تقع بين اليتيه ، فتحك الواحدة الاخرى ، كما تحك الشفة السفلى الرخوة الشفة العليا ، المتقوسة فوقها ، كقنطرة فوق مستنقع نحيل .

ولا شك ان الارض التي كان يقف عليها هؤلاء الثلاثة ، كانت واطئة جدا . كانت تقع على مسافة عشرات من الدرجات ، في كهف .

المنظر لم يتم بعد . فالمسألة دائما لا تل بوجود ثلاثة من الرجال مصابين بمرض سري في مكمن ما من جلدهم المستور جيدا . ويقع هؤلاء الثلاثة في قعر كهف من كهوف الليل .

لقد قالوا لي عندما هبطت اول درجة نحو القصر : انك الليلة سوف تمرح كثيرا ، وان العالم مستشفى بدون نظام . وان الادوية مفقودة ، بينما تباع الامراض بأثمان بخسة ، لاتلقاها الا في الاسواق السوداء . ولقد كنت ابحث عن امراض . ولم يكن ثمة لي الا هذا الدرب نحو القصر السري .

وكان لي مرة صديق مرهف ، قذف به ابوه الى دراسة الطب . وكان يغمى عليه ، كلما دخل قاعة التشريح ، ولكنه بعد ثلاثة اشهر اصبح زبونا مداوما على حفار القبور ، وراح يحمل على كتفه من حين الى اخر اشياء مبعثرة ، جماجم كانت علبا لادمغة ، واذرعة ، كانت مرة تنشل الفداء من ارض الجدب ، وسيقانا ، ضمت بينها ادوات الالهة للبقاء في عالم الخطيئة . واصبح صديقي ذاك مغرما بالاحاديث الفنية عن الامراض . ثم بعد ان مضى على تخرجه بضع سنوات ، اخذ يشكو من انعدام مرض حقيقي ، مرض اصيل .

وعندما كنت اهبط الدرجات ، الى القصر ، كان ينتابني شعور المدفون . ولكنني تماسكت اذ ادركت اننا في عصر لم نعد نجد فيهالحياة الا في الجهة العكسية المقابلة للهواء والضياء والانفتاح .

كان ذو الوجه المثلثي يحدد الفضاء الدخاني امامي بشكل وجهه الهندسي ذاك . وأحسست الخطوط المستقيمة المتقاطعة تمزق الفضاء كسكين مثلثة الانصال .

ولم اكن انهيت الدرجات كلها بعد . فدفعني ذلك الشخص الذي سوف يصبح صديقي عما قليل . انني لا التفت اليه . ولكنه يظل ، هو كله ، ورائي . واحيانا كانت تتحد اصوات خطواتنا ، فأفقد الاحساس بوجود اثنين ، نصبح واحدا . تلك كلمة لايقولها الا العشاق ، ولكن مادام ذلك الشيء يدب ورائي ، وكلما تأنيت او توقفت دفعني ، فان الامور لن تكون من العشق في شيء . انه يسير ورائي ، وينزل الدرجات الى القصر ، وهو يحافظ على تلك المسافة اللعينة بيننا . مسافة مقاسةبالانمل،

انها ايضا شيء هندسي . وصاحب الوجه المثلثي يقع في نصف الدائرة. والدودة ذات الشفة العليا المتراقصة على قوس من القيح الاحمر ، يقف كذلك على خط مستقيم مقاس تماما بالنسبة لصاحب الوجه المثلثي . واما تلك الجثة القزمة المحشوة في كرة هي كرش ، وكرة اخرى هي راس ، وكرتين اخريين ، هما اليتان ، فانه يقع كذلك على بعد منتظم من صاحب الوجه المثلثي في الجهة المقابلة لذي الشفة العليا الرخوة كقطعة من لحم زائدة .

لست اخاف هذه الجثث الثلاث المنتصبة امامي بنوع من التحنيط الالي الحديث .

ولعل ذلك الذي يكاد يصبح نسخة اخرى عني ، ذلك الذي يقف ورائي على مسافة مقاسة جيدا ، لعله استمع الي وانا افكر بطريقة كلامية فقال من الخلف :

— وما هو هذا التحنيط الالي الحديث ؟

ان الاحمق يتساءل . وهو يود ان يعرف هذه المعاني الغامضة وراء كلمات تلقى على مسمعيه دون ان يتقصدها . وهل كنت استطيع الاجابة ، انني مندهش حقا ، كيف يمكنني ان ابقى واقفا عند عتبة هذا القصر دون ان الجه مباشرة . لسوف اصبح من سكانه بعد لحظات . ولسوف يأتي شخص اخر . ولانه لا يعرفني ، فسيحاول ان يرسمني من كتلتي الخارجية . ولربما حدس انني رجل ، ليس من هذا الطراز . وعندئذ سوف يأخذ حذره مني . وقد يجد بعض الامان في الاخرين .ربما كانوا من الطراز الذي ينتمي هو اليه .

ولكن ما ان اعتادت عيناي على القصر حتى اكتشفت بشرا اخرين، بعضهم ملتصق بالجدران . وبعضهم مستلق دونما نظام على الارض السوداء . وبعضهم مجتمعون ، متقاربو الرؤوس ، لايتحدثون ، او لايمكنني سماعهم .

ولا بد انني سأكتشف رؤوسا وجثثا كثيرة اخرى تعلق انواعا من الرؤوس على اكتافها . المسألة هنا ، هي ان يبقى ثمة تجويف لجثة اخرى هي جثتي .

وقد سمع شبحي هذه العبارة ايضا ، فلكزني قائلا :

— لدينا امكنة كثيرة هنا لامثالك ، فلا تخش شيئا !

نعم يا صديقي ، وانت تدري ان القضية كلها هي ان نجد مرضا اصيلا . وقد ارهقتك مهنتك فجأة ، ولكنك انت تصاب بمثل هذه النوبات دوريا ، فتحس انك مرهق ، وانك يجب ان تكف عن شفاء امراض الرشح والحار والدوزنتريا . وانه عليك ان تبحث عن مرض حقيقي . وعندما قلت لك : ياصديقي ليس من السهل في هذه الايام الحصول على امراض حقيقية ، واذا كنت مصرا فلا بد ان تبحث عنها في السوق السوداء .

ان هذا يبدو هراء . فهل يعقل ان تشرى الامراض ؟ ولكنك يا صديقي تعلم ان كل شيء نادر يصبح له ثمن . أفما تتنافس متاحف العالم مثلا على شراء مومياء فرعونية ؟ هذا حسن . انك تغضب ، وترفض ان تعتبر ان المرض الحقيقي سلعة نادرة ، فلنقل اذن انه هبة كالعبقرية، وانه لذلك فهو نادر .

وأقول للشبح ، بديلي ، ورائي ، دون أن أستطيع الالتفات اليه :

— معذرة ، لا يمكنني ان اكف عن الثرثرة .

— ستصمت بعد قليل مثل هؤلاء جميعا . والآن سر امامي .

— ألا تلقي بي بين هؤلاء ؟

— كلا فان لك غرفة خاصة ، وسوف أمضي معك هذه الليلة . تلك هي الاصول عندنا .

وعندما مررت مخترقا الخطوط الوهمية لذلك المثلث الانساني القائم في رؤوسه الثلاثة ، تحرك ذو الشفة الرخوة قليلا . ناس بقامة الدودة .

ووقعت بعض كلمات من مستنقعه المشقوق ، ذلك الفم العفن :

— غير معقول . انه ليس محجورا عليه مثلنا .

ولم أستطع ان التفت ، فقد لكزني صاحبي . وتابعنا حتى مدخل ضيق مظلم . ودفعني . كان علي أن أهبط درجات أخرى أيضا ، نحو قصر آخر تحت القصر الاول .

وقلت له بعد أن ولجنا بابا قصيرا ، وقبعنا في تجويف آخر محفور في الصخر ، وغبتنا رطوبة أزلية ، ظلمة أزلية ، صمت لا بدء له ولا نهاية :

— هل هؤلاء درسوا الهندسة هنا ؟ انهم يقفون على مسافات محدودة جيدا من بعضهم بعضا . انهم يحافظون على هذه الابعاد ، حتى ليبدو أنهم يؤلفون اشكالا هندسية ، متداخلة خطوطها في عقدة كبيرة ، دون ان تتلاقى رؤوس الاشكال ، او كما يسمونها في الهندسة زوايا الاشكال ، حيث استقر على كل زاوية انسان ما .

يا أيها الشبح ، يا بديلي ، انك تجلس الآن امامي . ولكن للاسف لا استطيع ان أميز وجهك . انك لا تستطيع ان تميز وجهي ، انت ايضا ، أليس كذلك ؟ هذا حق . ولكنك لم تقل لي بعد لماذا يفصلونني عن الآخرين ، انك ستقول حتما : انت الذي فصلت نفسك . لعلي اذن قد اصابني ذلك المرض الحقيقي ان صديقي الطبيب لو لم يتخل عني ، بسبب تلك القصة القذرة ، لكان وقع الآن على هدفه المنشود من حياته ومهنته كلها : مريض حقيقي . مريض يأنف من أي دواء . ولذلك لا ترى السلطات الصحية بدا من الحجر عليه ، خوف انتقال العدوى الى آخرين .

ولو أتيح لك يا صديقي الطبيب ، ولادعك باسمك دون القاب ، ولا محل لاية قيمة هنا — لو أتيح لك ان تعرف مقري يوما ، وتزورني ، لكنت مستعجبا حقا ، كيف ان هؤلاء المرضى ، وهم قلة بدون ضوء ، وكثرة بذلك الضوء ، هؤلاء المرضى يصر المشرفون عليهم ان يقصوهم عن بعضهم بعضا بتلك المسافات الشاقة . انهم يخشون كذلك حتى من تبادل المرضى ، حتى من تداول العدوى بين أصحاب العدوى أنفسهم .

وأما لماذا يعزلونني انا من دون الآخرين ، فكما فهمت من شبحي هنا ، انهم لا يفعلون ذلك لانني اختلف عن الاخرين ، من حيث انني فرد من الطبقة العالية ، او واحد من عباد الله الذين لهم أهل واصدقاء ، لهم من يسأل عنهم ، ويتابع اخبار مصيرهم . كلا ، فلا مجال هنا ايضا ، كما يؤكد لي جاري ، للتمييز بين الطبقات والانواع والاصناف ، فلا درجات في القصر ، ما دام الجميع أسرى لهذا القصر . والتمييز الوحيد هنا يقوم بحسب فداحة المرض وشدته . وكلما زاد مرض احدنا ، لزم عزله اكثر . ولهذا لا يمكن ان ننام هنا . ان صاحبي هذا الذي قبع أمامي الآن يأبى ان تترك عيناه عيني . انه يصوب نظره كنسر محنط . وانه معلق فوقي . وكذلك فانه لن ينام هو الآخر . ان المسألة بعد الفة لزجة سوف تختلط اطرافها بكل صفاقة . لن نعرف بعد قليل من سوف يفرض أرق الآخر .

وصديقي ، هذا الشبح يشبهني ، والمكور امامي ، لا يعرف ابة لغة في العالم . انه بدون لسان . ولا يمكنه الا ان يردد اصداء من كلام الآخر ، مثلا :

— التتمة على الصفحة ٦٥ —



الخطيئة الثانية

ما زلت في متاهتي الصفراء
ألهو بعيد الزمن
عصر الجليد ، العفن
أهزه ، أعصره ، لعلني
أرى بقايا لذة
شلو خيال دهشة ،
لعلني ...

**

دم على فخذ امرأه
وشهوة ، مهترئه ..
ترمدت أصابعي في المنفضه
ترمدت عيوني
وصدأ النبيذ في فمي
لكن صوتا شاحبا ما زال في دمي
يصيح بي :
« رأسك من حجاره
من ورق الجرائد الثرثاره
كيف وطئت طفلك الصغير
وبيتك الغارق بالعبير
والشعر ، والزوجة ، والمشوار في ضوء القمر
وضجة المقهى ، واخوان السهر ؟ ! ..
طفلي ، رفاقي ، امرأتي ؟
أقرب من عيني الى عيني ،
ولكن هل تحس العين بالاخرى ،
تراها أيها القرب الذي يبقى محال ! !

الكتب الصفراء عبر جبهتي
كعلبة الثقاب في الجحيم
كقمر المدينة المضيئه
كوجه ابليس اذا ما أنكر الخطيئه ..
حتى ليالي غربتي
ليس لها وجه ، ولا لون ، ولا هموم
لست صديقا ، لست خصما ، ليس ما يشعرني
بأنني ،
أحبه ، أمقته ، أطليه بالغيوم
أفرش في طريقه النجوم !

**

كل صباح التقي بآدم
تصدمه المرآة بالذهول
يبحث عن حوائه الملول
ويده تكفر بالقنديل !

**

حواء باعت شجرة التفاح
مزقت الافعى ، وباعت لحمها ،
وحبلت بالويسكي ، والنقود
لم تبق عبر بيتها السعيد
الا بقايا الرمل ، والرياح

**

هل يبست شجرة التفاح ؟
ـ أواه لو قطفت اثنتين !
سيدتي الافعى ، اظهري
كم مر يوم ثالث وانت في الضريح
الم تملي ، تضجري ؟ !
أم عفت مرأى ، وفداء البشر
صليبك الآثم قد خلصني
من جنة الوهم فهل يتركني
في الوهم من جديد ؟
ما زلت في الفراغ
أغرز كفي ، شفتي ،
أمد عيني ، أمد رئتي
انشرها عبر المدى شراع ..
لا طير في البحر ، ولا رائحة لبشر
الريح شاخت ، خرفت
الريح لا تهب للشمال ، للجنوب
لكنها تنزل من أعلى الى اسفل ،
تعميني بثلج ، أسود ، غريب
أواه لو تستطيع أن تغرقني !

**

سيدتي ..
ما زلت في متاهتي الصفراء
أبحث عن تفاحة ثانية أقضمها ،
أعرف سرا بعدها ..
أطرد من جنتي الوهمية
لعالم آخر .. للحرية

بيروت ـ رفيق خوري

مقابلة أدبية مع : الدكتور حسين فوزي

تقديم : فاروق شوشة

السؤال الاول :

في واجهة كتابكم « سندباد عصري » تطالعنا هذه الكلمات :

« درجت على حب الغرب والايمان بحضارة الغرب .. وقضيت أهم أدوار التكوين من عمري في أوربا .. فلما ذهبت الى الشرق .. عدت الى بلادي وقد استحال الحب والاعجاب ايمانا بكل ما هو غربي .. »

ونحن لا نجد داعية لحضارة الغرب في بلادنا كما نجدك في هذه الكلمات .. ما رأيكم ؟

الاجابة :

اعترف لك بانك لمست النقطة الحساسة والهامة في كتاب سندباد عصري .. غير أن كلمة « داعية » تصورني واقفا وسط الناس أدعو للحضارة الغربية . مع أن المسألة لا تعدو أن تكون اخلاص هذا الشاب (الذي تحدث عنه الكتاب) للمبادىء التي نشأت عليها ، أي التماس كل ما في الحضارة الغربية من خير لينتفع به الوطن المغلوب على أمره ، الوطن الذي ولدنا فيه .. فلقد ولدنا في عهد الاحتلال ..

ثم سافر ذلك الشاب — ضمن أسفاره — الى بلاد حول المحيط الهندي ، ترزح كلها تحت نير الاستعمار ، فوجدها لا تواجه الاستعمار بأسلحته الحضارية ، بل تهيم وتسدر في غيبياتها وغيبوبتها ، وتعيش في ماضيها عيشة الحالمين ، فزاد ذلك من ايمانه بضرورة الحضارة الغربية لكل تلك الشعوب ، ولم يعتور ايماني ضعف ، حتى وأنا أرى هذه الحضارة تهددها الفاشية والنازية وتكاد تتردى بها الى هاوية الفناء والعدم .

وأنا أسألك .. ما هذه الحضارة التي نريد أن نعتمد عليها اليوم لننهض ببلادنا وتتبوأ مكانها بين أمم العالم ..

هل نعود الى الوراء .. أم نعيش في زماننا ؟

وأنا أحب أن نتفق على « فهم » لهذه الحضارة الغربية ، أغلب الناس القانعين بالحياة الروحية في الشرق ، لا يرون في حضارة الغرب الا صورتها المادية ، لا يرون منها الا الاسمنت المسلح، الراديو، الثلاجات، التليفزيون ، مع ان الحضارة الغربية في أساسها فكر وفن وفلسفة وعلم ..

وهذا ما يعنيني من الحضارات .. ونتاج الحضارة يعتمد على كل ذلك .. فمن الخطأ ان نأخذ انتاج الحضارة دون أن نتشرب أساسها ، وسمة الحضارة الغربية ان العقل فيها مطلق .. هذه السمة أفضل تسميتها « بالتفكير الحر .. » وهو عندي شيء آخر أعظم وأعمق مما يسمى « حرية التفكير » .. لان حرية الفكر لها علاقة بالوضع السياسي والاجتماعي ، لها حدودها ، ولا يمكن اذن ان تكون مطلقة .. بل لا بد لها من حدود سياسية واجتماعية تقليدية .. لكن التفكير الحر صفة في الذهن .. لا تعوقه العوائق ، ويظل يناقش ويناقش ، وحين يبلغ ما يبلغه ، فنتيجة للحرية وليس للتقاليد .. ووجود هذا التفكير الحر في أي حضارة ، أداة غريبة ساحرة حقا .. أداة اصلاح ودعوة الى الطريق السوي ..

وأفضل أن أشير هنا — في مقام التوضيح — الى هذه الفقرة من كتاب « سندباد عصري » نفس الكتاب الذي اخترت أنت منه الفقرة السابقة .. تقول هذه السطور :

« ولست أزعم بأن الحضارة الاوروبية بلغت الغاية التي نادى بها الفلاسفة المصلحون . فليس لهؤلاء مع الاسف سلاح غير العقيدة الرأي الحر ، بينما يسطو الرجال العمليون على نتاج قرائحهم فيسخرونه لاغراضهم . خذ فكرة الاستعمار من ناحية التفكير المطلق (كلمة عمار) : النهوض بالشعوب الفطرية الى مستوى الانسانية المتحضرة ، واشراك هذه الشعوب في موكب البشرية الرائع ، يتجه الى الخير العام في ظل السلام الدائم ، ثم تأمل عمل الشطار الذين تقنعوا بقناعها ، واستظلوا براياتها ، ثم راحوا يقتلون وينهبون باسم الحضارة. كلا ، لست أقول بأن الحضارة الاوروبية بلغت المثل العليا التي نادى بها الفلاسفة والمصلحون. ولكني أعجب اعجابا بظاهرة واحدة في هذه الحضارة : التفكير الحر . فهو الصمام الدائم : تملك به الحضارة إصلاح ذاتها بذاتها . قارن بين أوروبا منذ صيحات « جان هوس » و « كلفن » و « لوثر » واكتشافات « جاليليو » و « كوبرنيكوس » وتفكير « ايراسم » و « بيكون » .. وبين الهند منذ فجر تاريخها الهندوسي وهو أقدم من حضارة اليونان . ففي أوروبا خرج الفرد يبحث عن الحقيقة والجمال حتى وجد شجرة المعرفة فأكل منها . وعرف الخير والشر فدونه في الانسيكلوبيديا . وتكشف لعينيه جور الحكام وبقية من الضغط الديني ، فناقش سياسة الحكم بلسان « مونتسكيو » و « روسو » و « فولتير » ، ثم قام يهدم الباستيل بيد الشعب ، وينادي بنهاية الملكية المطلقة بلسان «دانتون» واليعقوبيين. وكان يسعى طول هذه الاجيال بفكر علمائه نحو تسخير الطبيعة . فكانت قوى البخار والكهرباء والمغناطيسية والاشعاعات . وكان البترول في البر والبحر والهواء . واذ شعر بعدوان السلطة الجديدة استحوذت على كل هذه القوى برأس المال ، ثار عليها بلسان « كارل ماركس » .

ذلك هو مجمل تاريخ الحضارة الاوروبية منذ نهاية القرون الوسطى حتى آخر القرن التاسع عشر ..

ومهما كانت الاخطاء التي ارتكبت فان فضيلة هذه الحضارة في انها تملك اداة اصلاح ذاتية هي : « التفكير الحر .. »

فهو اذن ايمان حقيقي بمقومات هذه الحضارة ..

ونقطة أخرى خطيرة وهامة .. هي أن هذه الحضارة ملكنا كما هي ملك الاوروبيين او الغربيين بصفة عامة ... وهل ننسى نحن الدور الذي كان لنا في تكوين هذه الحضارة ؟

انني سأضع بين يديك — وفي الواجهة المقابلة — هذه الفقرة من كتابي « سندباد الى الغرب » :

« وأخيرا ، آمل أن نمحو من أذهان النشء هذه المقابلات المقيمة بين الشرق والغرب . وأرجو ألا يؤخذ بكلمة الاستعماري كبلنج ، في قصيدة « الشرق شرق .. » الى اخر هذا الهراء الشعري ..

فليس غير الانسانية ، وليس ثمة الا عالم واحد . والفكر الانساني يتنقل في الزمان والمكان تبعا لظروف عدة يعنى أساتذة التاريخ الحضارات بتقصي اصولها وفروعها . ولكل شعب ذي ماض في الحضارة أن يفخر بحضارته ويعتز بها . وأهم من الفخر والاعتزاز أن يدرسها ويفهمها ، لا كظاهرة منفصلة ، بل كوجه من وجوه ذلك الجوهر الفرد : الفكر والمشاعر الانسانية ..

فحياة الامم ليست رهينة بهذه المطارحات الجديرة بمناظرات الطلبة للتمرن على حسن المحاضرة والمناقشة ، وانما تحيا الامم بالعلم والمعرفة ، والفن والادب ، من أي ركن يأتينا الفن والعلم . كما جاء في كلمات الرسول الخالدة : اطلبوا العلم ولو في الصين ، اي على بعد الشقة ، واختلاف اللغة والعقائد وطرائق الحياة ..

ونحن المصريين أحق الناس بدراسة الحضارات ، لاننا أثيتهم حقا في تراث الانسانية العظيم الذي تواضع الناس على تسميته « الحضارة الغربية » ، لا لانها حضارة اختص بها الغرب ، بل لانها في التسلسل التاريخي للحضارات نمت وترعرعت أخيرا في غرب أوروبا ، بعـــد أن تشربت وتمثلت تيارات الحضارة من طيبة وممفيس وصور وصيــــدا واثينا والاسكندرية وروما وبيزنطة وبغداد ودمشق والقاهرة ..

فلست أفهم أننا نحن المصريين بالذات نطارح أوروبا فضل الشرق على الغرب — والغرب آخر من ينكر هذا الفضل — فنذهب في المناظرة الى الانتقاص من الحضارة الغربية بحجة ماديتها . ثم نسدل ستـارا أسود على تاريخنا المجيد كله ، ما عدا حقبة واحدة من هذا التاريخ ، كاننا في حاجة الى هذا الستار لنؤكد الجوانب الروحية ، وهي موجودة على مدى تاريخنا من مدرسة هليوبوليس الى مدرسة الاسكندرية الـى الازهر الشريف .

وحضارة اليوم هي حقي وملكي ، بقدر ما هي حــق لبعـــض الاوروبيين ، لانني أنا المصري من كبار بنائيها . فكيف أنكر نفســـي وتاريخي وجهاد فلاسفتي وعلمائي والمفكرين من أجدادهم وضيوفهم على مدى آلاف السنين ، لاقف من حضارة اليوم هذا الموقف السلبي ، وهي من غرس يدي وفكري ومشاعري ، بأكثر مما هي من غرس الصقلابي أو الاسكندنافي .. ؟

فكيف أجيء لاقف منها اليوم هذا الموقف ؟ ..

السؤال الثاني :

لقد آثرنا أن نبدأ الحديث مستعينين بكتابكم « سندباد عصري » ، على حين أن كتابكم « حديث السندباد القديم » تصوير لعهد من أجمل عهود الانسانية فيما حققته الحضارة ..

وهذه اللفتة العميقة الى حياتنا العربية — وسط ايمانك وتحمسك لكل ما هو غربي .. شيء يدعو الى التساؤل ...

الاجابـــة :

الواقع ان نظرتي للحياه والحضارات ، تقوم على انني اعتبر الحضارات كلها ملكا للانسانية ، فعندما الفت كتاب « حديث السندباد القديم » مصورا فيه الرحلات العربية وادب الرحلات وقصصها لم يكـن ذلك لمجرد الرد او لمجرد الدفاع ، ولكن في البحث الحضاري يوجـد دائما ما هو خليق بالبحث والدراسة ..

ولقد ربيت على الادب العربي ونشأت فيه ورضعته مع طفولتـي ، ولما كبرت وجدت ان هناك في تراثنا ما هو اكثـر اهمية وخطورة من ادبنا العربي وفنونه .. من الشعر والنثر .. وجدت لدى العرب الطب والملاحة والجغرافيا والتاريخ والكيمياء والرياضيات والفلك .. اشياء لم اقرأها في شبابي . ولكني التقيت بها في مرحلة النضج والبلوغ ..

واهتمامي بالبحر — وهو موضوع تخصصي — جعلني ابحث وانقب في كتب السندباد ، ثم اهتممت بقصص الرحلات العربية وادب الرحلات والقصة البحرية في الادب العربي .. فعندما انادي بحضارة الابن لا انكر اذن حضارة الاباء والاجداد ..

وكتابي الجديد « سندباد مصري » عبارة عن رحلة في الزمان وليست في المكان .. رحلة في تاريخ مصر .. يتناول الـ ٦٠٠٠ سنة من تاريخ مصر ولقد سميته جولات في رحاب التاريخ المصري... هـذا فضلا عن ان الانسان يجب ان يحس دائما ويعيش فيما عند غيره مـن الوان وصنوف مختلفة ..

السؤال الثالث :

— على ذكر كلمة « سندباد » التي تكررت كثيرا في حديثكم ، والتي التزمتوها في كل عناوين كتبكم : المتتبع للمعالم الرئيسية في حياتكم وانتاجكم يحس على الفور انك سندباد هذا العصر في بلادنا .. تحمل في اعماقك لوعة السندباد القديم ومأساته وتشوفه .. هو في رحلاته السبع وانت في رحلاتك العشر ..

الى اي مدى يصدق هذا الاحساس في ظنكم .. ؟

الاجابـــة :

الواقع ان احساسك وحدسك في هذا عميـق . فقد توصلت الى مفتاح الحياة التي تحاول دراستها الان .. والتي هي « أنا » .. وغيب مثل هذه الاحاديث انها تدور حول الانسان ، الانسان في تكوينه في نشأته ، في تربيته والعوامل التي تتحكم فيه وتوجهه .. وانا اعتقد ان الانسان مسير لا مخير ..

فهل كانت اذن صدفة من الصدف انه حين كنت طالبا فـي المدارس ، كنت اغرق نفسي فيما كان يسمى بالنشاط الحر ، وكــان وقتها حرا غير ملزم .. فانضممت لجمعية الرحلات ، وكانت الرحـلات والجغرافيا شيئا واحدا .. وفي الرابعة عشرة انضممت لجمعية الرسم (بالفحم والالوان المائية) والتصوير الفوتوغرافي ثم التمثيل — ولم تكن هناك للاسف جمعية للموسيقى ..

وكانت رحلاتنا تدور حول القاهرة ومعالمها .. جبل المقطم ، المساجد والكنائس الاثرية ، اهرام سقارة ، آثار الاقصر ، وكان اساتذتنــــا يصطحبوننا .. ويوصوننا بان نسجل هذه الرحلات كتابة ..

ونما حبي للرحلات ، وحرصي على تسجيل الرحلات ..

ولكن المسألة ليست فقط مسألة رحلات . انها اولا وقبل كـل شيء مسألة فكر .. وانا لم اقم برحلة من الرحلات الا مدفوعـا دفعا ، فلا تعتقد انني رحالة بالسليقة ، وانما كل رحلة قمت بها ، كنت فيـها مدفوعا بواجب معين ..

فالتوق الى المعرفة ، والرغبة في الاستزادة منها ، هو المسئـول عـن كل ذلك ... ذلك ان موضوع دراستي الوحيد والحقيقي هــو الانسان بكل مظاهره : في التاريخ ، في الفـن ، في الرحـلات .. الخ .. ورحلاتي هي رحلة واحدة حول الانسان من الطب ، للعـلوم ، للموسيقى ، للفنون . وانا في جميعها ادور حول نفسي ..

وهذا هو الذي جعلني التزم عنوان « السندباد » لكل كتبي . وربما لان الكتاب الاول كان خاصا برحلة للمحيط الهندي وبـعض المناطق المحيطة به .. اعطتني جو « السندباد ... » وكنت اعتقـد ان الامر مجرد قصة او خرافة .. ولكن لا .. لـن استطرد الان .. حسبي ان اشير — مرة اخرى — الى مقدمة « حديث السندباد القديم »:

« كنت واقفا بظهر تلك السفينة العلمية ذات يوم من ايام نوفمبر عام ١٩٣٣ .. اتطلع الى شاطيء صخري .. وجبال مقطبة الاسارير ... شبيهة بالكثير غيرها مما رأينا على هذا الشاطيء الجنوبي لشبه جزيرة العرب . وكانت السفينة تتجه الى جونة وسط تلك الجبال ، لتلقـي بمراسيها امام الجزيرة الوحيدة المسكونة من مجموعة جزائر « خوريا موريا » .. فرأيت خلال المنظار شيخا واقفا الى جوار راية حمراء ... ظهر فيما بعد انها شال عمامته ربطه الى عكازه . وكان الرجل شيخ جزيرة « الحلانية » . وتعداد سكانها اربعون نفسا .

لم اعرف لماذا هتف في نفسي هاتف تلك اللحظة بكلمـــة « السندباد » .

وهو اسم نشر بسحره موكبا من ذكريات الطفولة والمراهقة . وجعلت الكلمة والموكب يرتفعان من اطباق الشعور السفلىء الى نطاق اكثـر تنبها ، والسفينة تقترب من شاطيء جزيرة « الحلانية » حتى لبست كلمة « السندباد » صورة الشيخ الواقف الى شال عـمامته . كما تلتقي الصورة المزدوجة للمرئيات ، في اجهزة التصوير الدقيقة ، علامة على ان العدسات اتخذت موضعها الذي يسمح بتصوير واضح المعالم والحدود .

وتابعت تلك السفينة العلمية رحلتها في البحر العربي الى خليج عمان . ثم انحدرت الى كراتشي ميناء السند . وعادت تذرع المحيـط الهندي غربا وشرقا ، وجنوبا وشمالا . فلم يمكن لي عملي على ظهر

السفينة من ان افكر في امر العلاقة بين شيخ الحلانية والسندباد البحري باكثر من انني تصورت الرحالة العربي الخيالي واقفا بشاطيء جزيرة قفراء ، بعد حادث من حوادث اسفاره ، يلوح لمركب عابر بشمال عمامته . كما كان يلوح ذلك الشيخ لنا ...

ولكني بعد عودتي الى مصر في سنة ١٩٢٤ احسست باني سلكت البحار التي ركبها السندباد في سفراته المشهورة . وكان احساسا غريبا . لانني في ذلك الوقت ، وقبل ان اعرف من امر اسفار السندباد ما عرفت ، لم يكن في ذهني منه الا انه بطل قصة مغامرات بحرية ، تبدو فيها دواب البحر للسفار جزائر ، وتخرج عليهم من الاعماق خيول بحر اعرافها على الارض ، وحيات تبتلع الافيال ، ومن السماء طيور تحجب وجه الشمس ، وتحمل الناس في مخاليبها ..

ومع ذلك قدرت بعد ايابي من رحلتي الهندية ان احساسي فيما يتعلق بالسندباد جدير بالعناية والفحص . فاعدت مطالعة قصته بعيون تفتحت على ارجاء بحر الهند . ورأيت ان القصة لا بد تخفي في ثناياها معارف ايجابية تواردت على السنة الرحالين العرب . وكنت اعرف من تاريخ الاكتشافات البحرية ان لهؤلاء فضلا كبيرا على الملاحة في البحار الشرقية ابان القرون الوسطى .. كما خرجت من مطالعات عابرة في كتابي « عجائب المخلوقات » للقزويني ، و « مروج الذهب » للمسعودي بان ثمة معارف بحرية في كتب العرب جديرة بالمراجعة على اساس ما حققه علم البحار .. »

لقد خالجتني هذه الاحاسيس المفعمة كلها وانا في خليج عمان امام شاطيء حضرموت ، وفي خليج عدن ، خصوصا في مدخل البحر العربي ، وبدأت انقب وابحث ، حتى اكتشفت ان الامر ليس قصة ولا خرافة ، وانما هي كتابات كتبها رجل درس وتمرس وطالع كل كتب الجغرافية العربية ، ثم كتب كل هذه القصص والحكايات والاساطير ..

السؤال الرابع :

بمناسبة حديثنا عن القصص والحكايات .. لقد حاول الاستاذ يحيى حقي في كتابه « فجر القصة المصرية » ان يلقي كثيرا من الضوء على طبيعة هذه الفترة التي عايشتموها بوصفكم واحدا من رواد القصة في بلادنا الى جوار لا شين وتيمور وطليمات واخرين ..

وهذه فرصة طيبة نستمع فيها الى انطباعاتكم عن هذه المرحلة والى قصتكم مع القصة ..

الاجابة :

يحيى حقي صور هذه الفترة تصويرا طيبا جدا . بل ان كتابه « فجر القصة المصرية » واحد من الكتب الممتازة في ايامنا ..

كنا وقتها جميعا شبانا في المدارس العالية ، لم نتخرج بعد ... جمعتنا جامعة حب الاطلاع والقراءة والادب والمناقشات .. وبدأنا ندرس الادب العربي ... ونتفهمه .. ثم تعديناه الى الاداب الاجنبية ..

ولم نكن نقلد الاجانب .. ماذا كان يفعل الجيل الذي قبلنا؟.. كان اباؤنا يدرسون ويتفهمون .. فاذا شاءوا كتابة الشعر كانوا يقلدون البارودي وهكذا .. ونحن ايضا فعلنا ما فعله الاباء مع اختلاف كل جيل عن الاخر .. وانتم ايضا تقفون من الاجيال التي سبقتكم نفس الموقف .. لقد كانت مهمتنا توسيع ادابنا ومعارفنا .. ومن هنا بدأنا في وضع القصص ..

فهذه النشأة صحيحة ... واذكر انني التقيت بالاستاذ محمود تيمور منذ وقت قريب فقال لي : ٤٠ سنة .. قلت له : ١٤ سنة ... وحسبناها سويا . فاذا هي فعلا اربعون عاما .. وكان وقتها محمود تيمور واخوه محمد وطاهر لاشين وطليمات واخرون يعملون على خلق القصة المصرية ..

اما مجهودي فيها فضئيل ومبتسر ..

حتى قصتي « السبع الحلاوة » التي حدثك عنها الاستاذ يحيي حقي فعبارة عن انطباعات شخصية ، لم اخلق من رأسي ، ليس عندي قدرة الخيال المحلق ولا قدرة الحبكة والتفنن ..

سبع حلاوة .. اشتروه لي من المولد ، واحببته جدا .. واستبقيته حتى اكله النمل ، فقالوا لي في البيت : مستحيل بقاؤه ... والقصة تحكى مشاعري وعلاقتي بهذا السبع .. حتى قصة « العنبر رقم » .. كنت « نوبتجيا » وانا طالب في مدرسة الطب .. وبين المرضى شابة غريبة رقيقة الحال مريضة بالقلب .. ونعلم جميعا انها ستموت ... وكانت ليلة العيد وهي بعيدة عن اهلها .. وهي في انتظار الموت .. غريبة .. عليلة .. تاعسة ... فكتبت خواطري عن هذه الغريبة التي تنتظر الموت ليلة العيد !

لكن هذا لا يصنع قصاصا .. فالامر ليس مجرد انفعالات ، بل لا بد ان تتحول هذه الانفعالات والانطباعات والرؤى والتجارب الى فن حقيقي.

السؤال الخامس :

ــ بوصفكم احد المتابعين الواعين للحركة الادبية في بلادنا ، ما فكرتكم الان عن مستوى القصة المصرية بالنسبة لمحاولات الرواد الاول ؟..

الاجابة :

ــ ارجو الا تعتبر كلامي هذا كلام ناقد خبير مطلع .. فان وقتي في اغلبه ينقضي في كتب ابعد ما تكون عن القصص .. ولكني لا انكر اني اطلعت على اكثر من قصاص من الجيل الذي يلينا .. ولذا فاني احب الاشارة الى شيء يجب ان نهتم به جدا ... لا تعتقد ان جيلا يربي جيلا .. وعندما يحاول جيل ان ينتزع الطريق الى المستقبل .. يبدأ خطأ .. الادب ينمو نمو النبات.. وينمو في الفرد الواحد .. يبدأ بسيطا .. وينمي عمله ثم ينميه ويصل الى اكثر مقدراته ..

والجيل الذي يلينا من كتاب القصة نشأ نفس نشأتنا .. لم يعتمدوا

على الكتاب العربي فقط .. قرأوا موباسان ، وتشيكوف ، ودستويفسكي ، وترجنيف .. ولكتاب انجليز وفرنسيين .. وهكذا .. وكتاب الجيل المعاصر ، من الواضح ان فيهم تقليدا لجيلنا والجيل الذي يلينا ..

فهناك اذن ثلاثة اجيال .. جيلان منها بعد جيلي .. والجيل الذي يلينا مباشرة على رأسه نجيب محفوظ ..

نشأته : ادب عربي ، ثم قراءات اجنبية ، ثم انفعالات وخيال وتجارب ، وقدرة فنية متمكنة ..

وليس للجيل السابق اي فضل على هذا الجيل ...

ولو نشأ جيل الشباب اليوم وكل زاده من الثقافة ، قراءات للحكيم وطه حسين ويحيي حقي ونجيب محفوظ وطاهر لاشين — فلن يكتبوا اعمالا خالدة ..

لا بد لهم ان يردوا المنابع الرئيسية ... ان يقفوا على النماذج الكبرى ، والتي ينبغي ان يعود اليها الجميع باستمرار .. وهي موجودة — لحسن الحظ — في كافة اركان المعمورة .. في الشرق والغرب ... في جنوب اوروبا وشمالها ..

السؤال السادس :

— كتبكم الثلاثة : سندباد الى الغرب .. سندباد عصري .. وحديث السندباد القديم .. شيء نادر في ادبنا العربي كله .. فهي من ادب الرحلات .. او كما يجب البعض ان يسميها : ادب اليوميات ..

ما تفسيركم لخلو ادبنا كله من هذا اللون من الانتاج ؟

ثم ما تقويمكم انتم لهذه الكتب الثلاثة ..؟

الاجابة :

— كلمة «ادب اليوميات» في الواقع «لقية» موفقة . هو نوع من ادب المذكرات ، والفرق ان كاتب المذكرات يخلو الى نفسه ، ويضع تفكيره في مذكرات خاصة .. فما بالك اذا كان كاتب هذه المذكرات يخلو الى نفسه ويضع تفكيره في مذكرات خاصة .. فما بالك اذا كان كاتب هذه المذكرات لم يعزل نفسه في حجرة مغلقة .. وانما طاف بالدنيا ، شرقا وغربا ، ودرس تاريخ امته ، ثم استعد كأديب ليكتب كتابه كمتخصص في العلم ..

عندما سافر توفيق الحكيم الى الغرب وكتب « عصفور من الشرق » كان الشرق يستدير امام ذهنه — وهو في الغرب — وكانت النقطة الوضاءة .. هي « الست ام هاشم » ..

وهكذا كانت هذه اللوحات والصور الغربية (التي سبق ان تحدثت عنها) تستقر امام عيني وانا متجه الى الشرق .. فكلانا اذن كان يرى الصورة المقابلة في المكان الذي يقصده ويتوجه اليه ..

السؤال السابع :

— لا شك انه شيء يثير الغرابة والدهشة : هذه الشخصية الفريدة المركبة ، التي تجمع بين العالم والاديب والموسيقى .. فلكل من هذه الجوانب : اسلوب في التصور ، ونظرة الى الحياة ، وطريقة في الرؤيا ..

كيف تفسرون هذا الجمع بين موضوعية العالم وحرارة الاديب وارتعاشات الموسيقى ؟

الاجابة :

— المسألة كلها مسألة ظروف .. ولقد سبق ان قلت لك ان الانسان مسير لا مخير .. ولا تعتقد اني اتابع نشاط الثلاثة في وقت واحد .. شيء واحد صحبني منذ شبابي الباكر حتى الان هو الموسيقى .. والموسيقى عندي فضلا عن اهتمامي بها لذاتها فهي ايضا بمثابة النزهة بين عناء البحث والدرس العلمي ..

ولقد كتبت معظم كتبي في فترات كنت فيها مبعدا عن العمل بطريقة او باخرى .. اخرها الفترة التي كتبت فيها كتابي الاخير « سندباد مصري » والذي يضم جولات في رحاب التاريخ..

سؤال :

— الجمع المقصود هنا .. هو هذه النفس الواحدة التي تتفجر في لحظة عن احساس ادبي وفي اخرى عن احساس موسيقي ... وهكذا ...

اجابة :

كلها في الحقيقة شيء واحد .. لا تصدق ان العالم (هنا في مصر او في الخارج) مجرد عالم فقط .. فانا اعرف العديد من العلماء هم ادباء وفنانون من الطبقة الاولى ايضا .

والواقع ان الطريقة التي صورت بها رحلاتي في كل كتبي ليست فوتوغرافية ولكنها تحليلية ..

فكتاب « سندباد الى الغرب » يضم انفعالات وتجارب صاحبت رحلاتي الى اوروبا .. وهي رحلات واقعية ..

وكتاب « حديث السندباد القديم » لا يضم رحلات في المكان ولكنه رحلة خيالية في الزمان والمكان على السواء بحثا عن شخصية السندباد ... « فانا اعود بخيالي الى المحيط الهندي لا كما عرفته منذ سنوات عدة ،بل كما عرفه البحريون العرب فيما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر .. قبل عصر الاكتشافات البحرية الكبرى ، التي بدأت بوصول « بارتولوميوديياز » الى رأس الاعاصير في الطرف الجنوبي من القارة الافريقية ، ثم باقتحام فاسكو دي جاما بحر الهند ، وتباشره بدورانه حول ذلك الرأس المفزع حتى اطلق عليه اسم رأس الامنية الطيبة ، او « رأس الرجاء الصالح » ..

دليلي وقائدي في رحلتي الخيالية ، ذلك الرحالة العظيم الذي اخرجته للناس مخيلة كاتب عربي مجهول — ربما كان مصريا — يعزى اليه جزء او كل من كتاب « الف ليلة وليلة » اوسع مؤلفات الادب العربي صيتا في الخافقين ..

والسندباد هو معلمي البحري الاول .. فانا اذ ارجع برحلاتي الخيالية الى القرون الوسطى ، اعود بها ايضا الى طفولتي حينما عرفت البحر اول ما عرفت في قصة « السندباد البحري » وكتاب « عجائب الهند » المنسوب الى « بزرك بن شهريار الناخداه الرامهرمزي » .

وكتاب « سندباد عصري » صفحات ضمنتها صورا وخطرات اوحت الي بها جولاتي في انحاء المحيط الهندي وحياتي على ظهر تلك السفينة العلمية المجيدة التي قطعت ٢٢٠٠٠ ميل في طول المحيط الهندي وعرضه ..

وعدت من رحلتي الى الشرق وقد استحال الحب والاعجاب بحضارة الغرب ايمانا بكل ما هو غربي..

سؤال :

ان هذا يذكرنا بكتاب توفيق الحكيم « عصفور من الشرق » ؟..

اجابة :

بالفعل — هو الصورة العكسية .. ففي نفس الوقت الذي كنت انادي فيه بحضارة الغرب... (وصداقتي للحكيم ايضا تمتد الى ٤٠ سنة تقريبا ...) كان توفيق الحكيم يصدر كتابه : « الى حاميتي الطاهرة الست ام هاشم » ...

فتوفيق الحكيم يحكى حيرته في الغرب واتجاهه نحو الشرق ..

سؤال :

وهي الفترة التي كتب فيها يحيى حقى « قنديل ام هاشم » ..

اجابة :

فعلا .. نفس الفترة .. شيء غريب !

المهم .. انه لا خصومة بين العلم ، والفن او الادب .. فالدكتور

مشرفه اكبر عالم مصري في تاريخنا ـ بالاضافة الى انه عالم رياضي كبير ، كان موسيقيا متابعا . واديبا من الطبقة الاولى ..

وقد لاحظت نفس الظاهرة في اوروبا .. كل استاذ في العلوم له متابعات في الوان وقضايا اخرى ..

السؤال الثامن :

ـ من القضايا الخطيرة التي شغلت البال في مجتمعنا طويلا قضية الفن للفن .. والفن الملتزم ..

وقد تشعبت هذه القضية الى قضايا عدة ، تتناول موقف الفنان من الحياة عموما ، ومن مجتمعه بصفة خاصة ، كما تحاول ان تعطي للالتزام اكثر من معنى واكثر من تفسير ..

ما موقفكم انتم ؟؟

الاجابة :

ـ ان المناقشات بهذه الصورة ، وعلى هذا المستوى ، تخلق فوارق غير موجودة في الاصل ..

خذ مثلا .. ما يدور الان من صراع بين جمعيتي النقاد عندنا .. ان المجموعتين اعرفهما حق المعرفة ، وتحدثت معهما بالصدفة ، والواقع انه لا خلاف بينهما ... الفريقان نقاد من الطبقة الاولى ، والنقد عند كل منهما يستوي بالفعل على اصوله وقواعده .. لكن كلمة الالتزام هذه .. هي التي يمكن ان تثير حولها الجدل .

وانا اسالك : ما هو العمل الفني ؟..

انه تعبير عن الفنان يصاغ صياغة فنية معينة ..

فالشكل في الفن مهم .. كما ان الموضوع في الفن مهم ..

والقائلون بالالتزام يؤكدون ضرورة ان يكون لموضوع الفن علاقة بمجريات الحوادث .. فليكن .. ولكن اهم شيء ان يكون فنا .. وفرق كبير بين من يملأ اذاننا صراخا بالحديث عن بطولة بور سعيد وكفاحها المجيد مثلا .. هذا مهم جدا بالطبع ولكنه ليس فنا ـ فرق بينه وبين من يتناول نفس الحدث فيحوله الى قصة او مسرحية بالمعنى الفني الناضج .. وطبقا للمقاييس الفنية السليمة .. بحيث تتمثل في هذا العمل فنية الاسلوب والشكل وطريقة السرد القصصي ووضوح الشخصيات ..

وهل هناك ادب ليست له علاقة بالحياة ؟..

انه ان لم تكن له علاقة بمجريات الحوادث فله علاقة بالانسان ، والانسان اخلد من الحوادث .. فالاديب الذي يتحدث عن الانسان اديب ملتزم ..

والمهم ان يكتب الاديب منفعلا بما حوله ، ولكن شرط الا يصبح داعية او خطيبا ..

خذ مثلا شكسبير .. انه في « رواياته » المعروفة : تراجيدياته وكوميدياته وتاريخياته يجمع بين النوعين ..

وقد كنا في القديم لا نحتفي بتاريخيات شكسبير ونعتقد انها مجرد دعاية لتاريخ البريطاني .. ولكن قيمتها ترتفع تماما الى مستوى اعظم اعماله واخلدها .. فاعماله التاريخية ملتزمة ... باعتبار ان له رايا في كتابة تاريخ انجلترا قبل اليزابيث ..

ولا بد لنا من الاعتراف بعظمة انتاج شكسبير في نوعيه ..

السؤال التاسع

اتيح لكم بفضل قراءاتكم واسفاركم الواسعة ان تتعرفوا على عديد من الاداب العالمية .

ما رأيكم في وضعية ادبنا العربي المعاصر بين هذه الاداب ؟

وهل تحسون ان فيه من النماذج ما قد يكون عالميا بالفعل ؟

الاجابة :

نعم .. بلا تردد ..

اعتقد ان ادبنا الراهن ادب متقدم .. وهذا الاستعمار الذي يتمثل في ثورته وانفعالاته وثوراته وعنفه وهجوم الادباء احيانا على الاسلوب ، وحينا على اللغة .. كل ذلك يدل على ان ادبنا بدأ يتحرك الى العالمية ..

والذي يعطل ادبنا عن قراءته في الغرب ، هو اهمالنا لترجمته ، وتركها للصدفة ومهارة المؤلف وصلاته الخاصة في الحصول على مترجمين لانتاجه ..

والمشكلة اساسا تتمثل في العثور على مترجمين يجيدون العربية واللغات الاجنبية ، فاهتماماتنا تقف دائما عند حدود المترجم الذي يعرف لغتين .. بينما قد لا يكون له اسلوب في لغته الاصلية او في اللغة التي يترجم عنها ..

فالمهم هو نقل روح لا حرفيته ومفرداته ..

سؤال :

عندما نتحدث عن العالمية فانما نقصد مجموعة من الخصائص والسمات اذا ما توافرت في ادب ما حكمنا بانه عالمي ..

اجابة :

من سمات العالمية ان يكون الادب متجردا من الخصائص « الالتزامية » اولا .. الا يكون ملتزما .. فاذا قصد مجرد الالتزام لا يكون فنا ..

سؤال :

ان كثيرا من الباحثين المعاصرين يعارضون هذا الرأي .. بل ويذهبون الى ابعد من ذلك .. وشرط الادب العالمي عندهم ان يكون اولا قوميا ناضجا .. فلا مفر في رأيهم من الالتزام ..

اجابة :

المهم ان يكون الفن صادقا .. وان يكون تصويره للحياة تصويرا صادقا واصيلا .. مثلا : « نائب في الارياف » انه في رايي اعظم كتب الحكيم واكثرها قربا من المستوى العالمي .. بل انه ـ بعد ترجمته ـ يقف الى جانب اعمال العمالقة من امثال تورجنيف وجوجول ودستويفسكي .. وغيرهم .. وقد لمست بنفسي الى اي مدى يقدرون هذا الكتاب في الغرب . ويعتبرونه نموذجا رفيعا للادب المصري المعاصر ..

وليس هذا هو المثل الوحيد .. فانتاج نجيب محفوظ ايضا يرتفع الى هذا المستوى لولا شيء من التطويل الذي لا بد ان يتحمله القارىء كما يتحمل « بروست » .. ولو لا التفاصيل العديدة التي تزخر بها كتابته والتي تفقد القارىء احيانا حماس المتابعة ..

وانا لا احب للاجيال انتعترف لبعضها البعض .. فانا عصامي ، واحب للاجيال ايضا ان يكون كل منها عصاميا .. يبني نفسه بنفسه ، ويتخذ طريقه دون انتظار للنصيحة او حتى للتقدير .. ولست احب للاباء ان يتفضلوا على الابناء .. ولا للابناء ان ينكروا او يتنكروا للفضل ..

السؤال العاشر :

اسمح لنا بالانتقال الى السندباد الموسيقى ..

من الواضح انكم من اعمق دارسينا فهما للموسيقى الغربية بالوانها .. وكتابكم « الموسيقى السيمفونية » خير دليل الى معايشة هذا الموسيقى ، والولوج اليها .. على ضوء هذه الحقيقة .. ما تقويمكم لموسيقانا الراهنة ؟

وما حكمكم على مستقبلها ؟

الاجابة :

لي امل واحد في موسيقانا الراهنة .. هو ان هناك معهداً يتعلم فيه الناس الموسيقى ـ كنت من اشد الداعين اليه والحريصين على تشييده ـ تماما كما يتعلمون فنون الحرب والبحرية والهندسة وغيرها ..

فارجو انيكون المعهد جديا ، ودراسته جدية .. ولحسن الحظ ان المصري ـ بطبعه ـ من اقدر الناس على الاحساس والتذوق الموسيقى .. وقد تاكدت من هذه الملحوظة باتصالي بالاجانب ، فقد كان يلاحظون باستمرار ـ في افراد الشعب ـ قدرة على متابعة الايقاع ..

فالقدرة الطبيعية متوفرة ، وانما كان ينقصنا التعليم . ولا يضايقني شيء حتى اليوم قدر ما يسمى بالهواية ..

ان موسيقيينا لا يعطوني ابدا فكرة الرجل المتمكن في فنه ، الدارس له ، ولكن كلهم ارتجال ، صاروا هكذا بالحظ ، او بالصدفة . ولكني ارى قدرات تعبيرية على اساس تعليمي ، والفنون لا تتحمل هذا الارتجال ـ الذي قد تتحمله جوانب اخرى من الحياة ـ لمدة طويلة .

وحتى تكون موسيقيا .. حتى تبدأ فقط مجرد بداية .. لن تكفيك ثمانية اعوام ولا تسعة .. اما الذين ياخذونها هكذا « بالعافية» ..فليسوا موسيقيين ولكنهم « مساقرة » كما سماهم احد الصحفيين يوما ما ..

السؤال الحادي عشر :

بمناسبة حديثنا عن الموسيقى .. يقول البعض ان وراء كثير من الاعمال الادبية او الفكرية بصفة عامة موسيقى عظيمة ..

الى اي حد تأثرت كاديب من دراستك للموسيقى ؟

الاجابة :

الموسيقى ايقاع ولحن .. فاذا انتقلنا الى الادب وجدنا ان ما يمكن اخذه عن الموسيقى هو الايقاع .. ايقاع الجملة ...

وقد تصادف انه بعد ظهور كتابي الاول ، قال عنه احد النقاد : ان جملته لها موسيقى خاصة ..

وانا لا ادعى انني كاتب شعر .. (لقد كتبت بالفعل شعرا في مستهل حياتي .. وشعرا منثورا) ..

الشيء الثاني الذي ياخذه الادب عن الموسيقى هو الشكل ... فالموسيقى بناء ، مثل العمارة ، تنتظمها وحدة هي ما يعرف بال theme .. وفي الموسيقى المتطورة والناضجة لا ضرورة لوجود « سيمترية » .

ولقد تمرست طويلا بفن الشكل نتيجة لدراستي الموسيقية ، ولو ان كتبي مثلا يبدو عليها انها يمكن ان تقرأ من اولها او من اخرها .. لكنها في الواقع كالشجرة .. فكرة رئيسية وفروع .. وهناك وحدة رئيسية وجوهرية تدور عليها الفصول والابواب ..

وحياتي في الموسيقى يمكن ان تعود الى اربعين عاما مضت او تزيد ..

ولهذا فمن المؤكد ان للموسيقى اثرا في تكويني الفني والادبي ..

القاهرة فاروق شوشة

انتظار ...

متى تجيء ايها الصديق
في غيمة خضراء تفرش الطريق بالربيع
بنظرة اليفة تذوب الصقيع
تجيء تشعل النجوم في مسائنا الكئيب
وتمسح الغبار عن رفوفنا وتسكب الحياة في الشتاء

***

متى تفك ايها الصديق قيدك العتيق
فنحن ها هنا مجامر انتظار ترقب الطريق
وتسأل الطيور عنك والمسافرين
لعل خطوك اقترب
فنحن ها هنا طيوف في مسابح الحنين

***

متى تجيء ايها الصديق
يا من تطوف في خواطر الجميع
ويرقب الصغار والكبار وجهك الوديع
وكفك التي تفيض بالحياة في مغاور الملل

***

العمر كاد ان يودع الدروب
وانت لم تزل تجول في مخابيء الغيوب
الست تعرف الطريق للبشر
الم تعان وحشة الضياع في غياهب الغروب

***

متى تجيء ايها الصديق
وما عرفت اسمك الحبيب لم أرك
وما عرفت اين ظلك الطري يستريح
من اي درب سوف تاتي مقلتاك
ولم ازل الوك عمري اطعم الجراح لحظة انتظار
لعل في نهاية النمفوح بيرق الغبار
لعل وجهك الوضيء خلف حائط النهار
متى تجيء ايها الصديق
متى تجيء

حماه ماجد حكواني

يدين عملاقة

قصة بقلم عبد الفتاح حسن

كانت يدي تقودني .. تجرني ، أتعلق بها واختفي وراءها وانا اتقدم منه . كنت اشعر اني انسان اخر .. بيني وبين حقيقتي جدار عال. الشر هو الذي ينتصر .. القوة هي التي تأخذ ... الحق ، الانسانية ، المواساة .. مورفين ، مخدر ، ايمان ضعيف .. بيدي هذه سأخذ الدواء او روح هذا الذي ينتمي الى فصيلة الانسان . ان جسمه الضخم لن يخيفني ! بيدي هذه التي اتعلق بها وارتجف ، كوريقة في غصن دلب صلب .. بيدي هذه ، بقوة خارقة ، سأقبض على الدواء ثم اعطيه لرضوى – زوجتي – لتغادر به الصيدلية كما اعلنتها ثم اتدبر امري ..

رفع الرجل نحوي عينين لا مباليتين . اخذ الوصفة من يدي ، وهو يضع على انفه نظارتيه ، عقد فوقها حاجبيه . رفع رأسه وصاح :«باعبود» .. ظهر على باب المختبر شاب هزيل الجسم والوجه ، بلبس مريــولا ابيض . مد له الرجل الورقة : « ايت بهذا الدواء من المستودع للاخ .»

للاخ ! انا اخوه الان لانه يتصور انه سيقبض مني مالا . انا اخــوه حتى يحضر الدواء .. ويختفي ، ثم اصبح لصا .. مجرما .. استحــق الرمي في السجن ، والضرب .. والموت ، انا اخوه اذا سرقت لاعطيه ثمن الدواء .. او عدوه .. عدو الناس .. عدو المجتمع .. عدوه الفاسد الذي يحل بتره ، او ادفع الحق ... ثمن الدواء .

واشار الي « ان اجلس »وقال : « عشر دقائق على الاكثــر اذا سمحت » .

وتراجعت الى جانب رضوى .. والقيت بنفسي على كرسي .

كانت تجلس على طرف الكرسي محنية الرأس والكتفين فــوق الطفل . رأسه الصغير ، مرمي على ذراعها ، وجهه مرتع صفرة وشحوب عجيبين . جفناه ازرقان ، يضطربان فوق حدقتيه الغائرتين . وتمــد رضوى الى جبينه وفمه منديلا صغيرا تلملم به حبات العرق عنهما .. ثم يهتز كتفاها .. ويهتز رأسها .

لماذا تبكي ؟ لو خيرت بين موت فؤاد او سجني .. الا تختار حياة ابننا ؟ انا اشتريه بحياتي .. فكيف بسجن ايام او اشهر ؟ لقد قررت .. أفهمتها اني لن اعود الى البيت بدون الدواء . الدواء سأحصل عليــه ، من هنا .. من « صيدلية الامانة » .. بالقوة .. بالخديعة .. احطــم رأسي لاجله .. فلماذا تبكي ؟ ومددت يدي اربتها مطمئنا ، مشجعا ..

ولست ادري كيف اعترتني موجة ارتياح بالغ . موجة خير كــادت تقيمني وتقعدني . وبلا ارادة التفت الى الرجل صاحب الصيدلية . على وجهه الممتلىء سيماء وسماح .. في عينيه وداعة وسلام ، على جبينــه المتغضن معالم انسانية واضحة .. وعلى شفتيه وحول انفه كوم حنــان ومحبة .. « يا الهي .. ان قلبي يحدثني بان هذا الانسان سيسهم فــي اعادة ايماني بالناس الى ضميري .. سأحصل على الدواء باذن الله .. سيعطينيه الرجل .. »

ورأيته يشير الى الطفل ويقول :

– مسكين .. يظهر ان حاله خطرة ..

– جدا! ياسيدي .. جدا .

عجبت لردي السريع له .. وللطريقة المسترحمة التي عبــرت بهــا عن قلقي . ولمحت على صفحة وجهه اطياف تجاوب عاطفي نحوي ،فاطمأننت اليه وكدت اكشف له عن جرحي العميق فاشكو له الطبيب الذي عايــن ولدنا فعجب لبقائه على قيد الحياة الى الان .. ثم لما توسلت اليه ان يبقي لنا على خشبة النجاة الوحيدة معي .. على الليرات الخمس اليتيمة تمنع عن وصف الدواء ، وتعرف بلؤم فاس مزق قلبي ، وحول ضميري الى مرتع شياطين شريرة . كنت أتصورني أخنقه ، اقتله ، امزقه ، بيدي ، بأظافري ، بأسناني .. أنثره اشلاء وأذروه رمادا في عاصفة . فلقد كــان الكفر بالحياة يطل من عينيه الخائنتين .. ولقد كان السم الزعاف يقطـر من شفتيه المطوطتين بابتسامة حقود الى جانب واحد من وجهه ، وهو يدفع رأسه الى الوراء دفعات صغيرة ويمزق بهدوء الوصفة التي كتب ، ويحولها الى نتف صغيرة كأنها اشلاء امل ضعيف ، او روح المريضة تعبث بها اصابع عملاقة وتذيقني الموت في كل لحظة الف مرة .

ولكني مددت يدي الى جيبي واخذت قطعة النقد الوحيدة التــي أملك .. وتخليت عن اخر مايربطني بدنيا الناس ، بالناس ، من صلــة جنس ، وروابط اجتماعية ، وتعاطف ، ومحبة ، وانا اضعها باستسلام وخضوع امامه .. على مكتبه . وتحول كله امامي الى نقطة بيضاء كندفة قطن كبيرة متحركة تضمحل في لجة ضباب كثيف ، غلف كل ماحولي ، احاط بي ، اغرقني .. امسك بخناقي .. وشددت اصابعي علـــى الوصفة .. وعصرت عيني لاتبين طريقي . وخرجت .

للمرة الاولى في حياتي ، أبكي .. أنا الرجل !

لقد مررت بمصائب كثيرة دون ان استشعر ضعفا فأبكي . ما مــن شك لو ان القضية تتعلق بموتي او حياتي لفضلت الموت ورحبت به .. ولكن المصيبة الان اكبر .. والحياة ، حياة ولدي ، اغلى من حياتي .. والبكاء ، أغلى ماعندي ، يرخص في سبيلها .

ولكن .. هل بكيت حقا من اجل ولدي ؟ كان ولدي لايزال يحيا !! لم اتصور اني فقدته ، فبكيت لفقده ، لم يخطر ببالي اني سأفقده فتصير المرئيات دخانا في نظري ... ولكني لاجله شعرت اني فقدت شيئا كحبي له ، هو حبي للانسان . لم اعد اشعر بذلك الوثاق الذي يشدني الــى بني جلدتي . اصبح بيني وبينهم سد منيع . لقد مات الحب في قلبي وليت المصيبة وقفت عند هذا الحد . فلقد تملكني شيطان كبير عندمــا سألتني رضوى :

– ما العمل الان يا صلاح ..؟

– سأحصل على الدواء الان .. ولو كلفني ذلك حياتي . سأسرق، سأقتل لاحصل على الدواء ..

وانطلقت في الشارع كموتور يعربد في صدره مخلوق عجيب يأكــل الحياة .. يدفعني الى القتل ، الى الانتقام من .. من .. لم اكن ادري ممن على وجه التحديد ..ولكني كنت اتصورني اقتل كل من يقع عليــه نظري .. الرجال .. النساء .. الاطفال .. ابني . واصرخ في وجــه الطبيب : « اضحك اضحك .. لقد مات ابني .. » وكان نحيب رضوى ورائي : « صلاح .. صلا ح .. » كرصاص يخترق رأسي فيؤلمنــي ويضيعني ..

واعادني الى وضع واقعي صوت الرجل هادئا يوسد رأســي الثقيل :

– هون عليك ياأخ .. بسيطة باذن الله ..

وتنبهت الى اني كنت ابكي مرة اخرى . ومسحت دمعي بيدي .. وتأملت المكــان .

لست ادري كيف دخلت هذا المكان .. حاولت ان استرجع ذلك في خاطري فلم اصل الى نتيجة ..

ـ المهم تأمين العناية التامة للمريض .. الدواء والدفء والنوم كلها دواء ..

« لماذا اينها الاقدار تضعين هذا الرجل في طريقي .. انه ليس سيئا .. »

ـ ابعده عن الرطوبة ما استطعت ..

« كيف ؟.. هل يمكن ان اخدعه ، او اقتله لاجل الدواء ..؟ وابني .. أين الهواء .. أختنق . »

ـ ان الحقنة في الشريان عمل دقيق .. عمل طيب .. فهل عندك من يتقنه ؟..

« لن آخذ الدواء.. لن استطيع الحصول عليه .. انا اضعف !.»

ـ لاتخرج الطفل من البيت ..

الجريمة .. أبعد مايمكن ان اعمل .. انا لم اخلق لها .. أبي رجل طيب .. مؤمن .. امي ..« وحضر الدواء » امي يرحمها الله .. ضربتني مرة .. عضتني في خدي ، وبكت ، لاني سرقت بيضة من معشة جيراننا ، كان بكاؤها حارا قاهرا ...

ـ ذوب ملعقة صغيرة في فنجان قهوة واعطه ذلك كل اربع ساعات ..

« لم اذكر ان احدا من عائلتي كان سارقا .. او قاتلا ...

ـ تفضل ..

امي تبكي ..

ـ خمس عشرة ليرة ..

« لا تبكي يا امي .. (واخذت رضوى الدواء .. وخرجت) .. كيف خرجت ؟.. قالت انها لن توافقني على عملي .. كانت تبكي .. لا تبكي يا أمي .. سأدفع ثمن الدواء .. ولدي يموت .. ساعدني يا فؤاد .. ان امك وامي تعذبانني .. ابق معي.. لا تتركني انت ايضا..»

واحاول ان اقول شيئا فلا يسعفني لساني .. احاول جاهدا ان املك اعصابي ان اسيطر عليها دون جدوى .. وانحني على المكتب امام الرجل .. على رؤوس اصابع يدي .. اكاد اسقط .. انا كورقة صفراء في مهب الريح العاصفة .. اسعل ..

ـ سيدي قيد سعر الدواء في دفتر عندك .. اذا اردت ..

ويسند الرجل ظهره « يا اخي .. » وانطلق الشاب الى الخارج ليلحق بزوجتي فصرخ فيه :

« عبود ... دعها ! » قلت بصوت متهدج :

ـ كان معي خمس ليرات اخذها الطبيب .. سأدفع لك ..

ـ ليس عندي شك .. ولكنك لم تعطني الفرصة لاظهر لك رغبتي بمساعدتك .. ان اخذك الدواء بهذه الطريقة خدعة .. سرقة .. وغير ناجحة ايضا .. كان باستطاعة الولد ان يلحق بالمرأة .. وباستطاعتنا الان ان نزج بك في السجن ..

ـ اقسم لك باني سأدفع الثمن ..

ولم اعد استطيع الكلام .. لقد اضمحل العملاق الذي حملني الى هذا المكان .. اختفى . واكمل الرجل ..

ـ ومع ذلك .. ولكي أبرهن لك عن صدقي في مساعدتك .. سأقيد المبلغ . وارجو لابنك الشفاء .. واكثر من ذلك .. الصيدلية مفتوحة امامك مادمت محتاجا ..

يدي تحملني .. أتعلق بها ، واهتز كوريقة في غصن دلب صلب .. يدي العملاقة ، مرة اخرى ، تشد قلبي الى يد الرجل .. تعصر قلبي.. ارتجف وانا اقول :

ـ اشكرك ، اشكرك ... يا أخي ...

عبد الفتاح الحسن

مزامير جزائرية (1)

— ١ —

احسست ان ساعدي معول
غاص وراء الارض للجذور
يأكل من لحومها ما يأكل
أحسست اني أحمل
الفا من السنين فوق كاهلي
وان لعنة الزمان
تستحيل شجرا يظلل القبور
الحب في عيني جدول
والكون جنح طائر وسنبل
أحسست أن في دمي
آلهة لا تقتل
وان لي كل الرياح السافيات هيكل
احسست اني بذرة النشور
والغار حولي يجدل
أميل
أسأل الجذور الحمر
ما لا يسأل

— ٢ —

الدم
يتسلسل في الوادي الابيض
كقطار الاحزان
شفتاه برعم زنبقة
آه من موعد نيسان
الدم
يتسلسل في الوادي الابيض
بيديه طفل
تفتح اعينه الشهل وتغمض
فوق سرير عان
ويكاد يلم الاحلام وينهض
الدم

— ٣ —

صديقي من بلاد المجد والاحزان
يخوض الموج بحارا ولا مركب
صديقي اليوم في غربه
حزين كالنجوم البكم في وهران
صديقي ليس قديسا
يرود النبع ظمآن ولا يشرب
صديقي امه القصبه
رويدا يا بلاد المجد والاحزان
صديقي سوف يسرج للاغاني
مهره الاشهب

— ٤ —

من هنا مرت الحلوة الحائره
من هنا عطرها لألأ
في يديها نبيذ وملح ونار
يا فتاة الربى الحلوة الحائره
لا تخـافي
فتاك الذي سار لن يظمأ
لن يفل المدى خطوه المستثار
انه صار في حقلنا
وردة من دم
غضة ساحره

— ٥ —

في باله الزنزانه الاسنه
عابسة في سكوت
في باله ان رؤاه تموت
يدفنها الليل بانيابه
والشمس برتقالة فاتنه
تلمع نشوى خلف ابوابه

— ٦ —

قلتم لي
ان الوردة لا تقترب من الصخره
والشمس لعوب قد لا تنتظر العاشق
قلتم ان الغربان تعض الخبز
وتغتصب القمحا
لكني عبر عذاب الحب
رأيت دروبا مخضره
ودما يفغر فمه جرحا
ولمحت طيورا
تولد في جزر حرة
وترف على حور باسق

— ٧ —

يتلوى الافق هنا
ويفكر
مجروح الخدين
حزين
الله يعانق مئذنة
فتريح فما
ويريح جبين
أم حبلى
من سبع سنين

— ٨ —

رجل يشد جدائل الريح العتيقة
وتمزق يهتز في بطن المقابر
— عن أي سر يا الها متعبا
عن أي سر
تنبش التراب المسافر
— لا شيء يا بنت الصدى
لا شيء
اني اليوم في ارض الحقيقه

— ٩ —

صدئت في يدي كل الدموع
وبعيني تستفيق الكآبه
شاعر اعطته السماء
وشاحا من شموع
ولم يبدد عذابه
فتعالي يا ربة الفرح العذب
وضوعي
النخل في الدرب
والرمل بليل
وفي البعيد سحابه

جامعة دمشق فاروق مردم

(1) قصائد كتبت في اوقات متباعدة ، لكني رأيت نشرها مجتمعة

نحو أخلاق عربية جديدة

الأخلاق في المجتمعات القديمة والمجتمع الصناعي الحديث

بقلم علي بدور

يجيء بحث الاخلاق والمجتمع ليضع امامنا كثيرا من الاسئلة حول مادة هذه النهضة الجديدة التي يشعر بها مجتمعنا العربي ، وحول مبرراتها الاخلاقية وما هي قيمها الاجتماعية ؟ وكيف يمكن لنا ان نصوغ اسس تطورنا الاجتماعي على اساس اخلاقي يتعدى نطاق الآداب الاجتماعية ليقترن بروح الثورة على الواقع ويطوره على قواعد علمية صرفة تغذي وجداننا القومي وضميرنا الاجتماعي بزاد حي ويدفعهما في طريق التفاعل النامي لبناء الامة العربية بناء جديدا يأخذ من الماضي اصفى ما فيه ، ويضيف اليه انقى تجارب العصر ، ويمزج روحها العربية بجلال الماضي وروعة الحاضر ، ويقيم الانسان العربي على قاعدة من الاخلاق الاجتماعية ليغدو مواطنا تلتقي فيه روعة الانسان وبطولة المواطن الذي يفتح قلبه وعقله لامته وللانسانية ، ويعمل على نشر رسالة المحبة والسلام بين ربوع البشر بما يقدر ويطيق .

نظرة عامة في الاخلاق والمجتمع

ان النظرة العامة في الاخلاق والمجتمع ينبغي لها ان تتجاوز نطاق التسلسل التاريخي لمفهوم الاخلاق ومقومات المجتمع، لاعتقادنا ان المنهجية العلمية في الدراسات الاجتماعية تفيد طالب الدراسة والعالم اكثر مما تفيد القارىء والمستمع ، ولاعتقادنا ايضا ان الوقوف على ما انتهى اليه المفهوم الاخلاقي في العصر الحديث والتجاوز عنه بالتغلغل في صميم المجتمع، لهو اكثر فائدة للراغبين من الذين يودون ان تنبع معانيهم الاخلاقية من ضميرهم الاجتماعي لتصب في وجدانهم الاخلاقي ، ما داموا قد عرفوا على وجه الدقة ان الاخلاق في اساسها هي سلوك الانسان في حياته الاجتماعية ، وهي جملة الضوابط النفسية التي تسير الناس في المجتمع على قواعد واضحة من الممنوعات والمحذورات التي لا ينبغي للانسان ان يأتيها اذا اريد له ان يكون انسانا يسعى لمجتمعه بقدر ما يسعى لنفسه ، وهي بالتالي ليست محددة بعصر معين ولا مجتمع معين ، لانها متغيرة متطورة من زمن الى زمن ، ومن مجتمع الى مجتمع ، تبعا لتأثيرها في الحياة الاجتماعية ، وتأثير الحياة الاجتماعية فيها ، بداعي الخضوع لمنطق العصر وداعي التطور الحتمي .

فاذا اردنا النفاذ الى كنه المفهوم الاخلاقي في العصر الحديث وجدنا البون شاسعا بين ما كان عليه في الزمن القديم وبين ما اضحى عليه في هذا العصر الحديث بالذات . فالفلاسفة اليونان كارسطو وسقراط وافلاطون وهم اول من تحدثوا في الاخلاق وفسروا مفهوم هذا العلم الاجتماعي وعللوه ، لم يكن مدار بحثهم سوى ذلك الانسان الذي ولد في الفكر وعاش فيه . ولقد ظلت المحاولات العديدة التي بذلت لصبغ مفهوم التربية بصبغة اخلاقية ، بعيدة عن مجال التطبيق العملي لان طابع التربية والعلوم في العصور القديمة وحتى بداية هذا العصر الحديث كانت تبذل من أجل تقويم الانسان ككائن حي مستقل بذاته وليست من أجل تقويم فرد في مجتمع او مواطن في دولة . ويظهر لنا سبب ذلك في التاريخ السياسي لنشوء الدول . ففي أيام الفلاسفة اليونان لم تكن الدولة قائمة وفق المعنى الذي وصلت اليه في ايامنا هذه ، حتى أن جمهورية افلاطون وهي بحث اخلاقي محض ، لم تكن تفهم الدولة بالمعنى العلمي للدولة بقدر ما كانت تفهمها نظاما اجتماعيا يقوم على طبقات السادة والعبيد ، رغم انها لم تخل بالمرة من نظرات وآراء كانت تعتبر دفقا ثوريا بالمقياس لما كان يسود الشعب آنذاك من قيم ومفاهيم اجتماعية او معان اخلاقية .

وكانت الاخلاق تدور في فلك التربية المنزلية اي ضمن حدود الفرد ذاته فاذا تعدتها فالى نطاق العائلة وقلما كانت تصل الى المجتمع ، لان الدولة الحديثة التي نعرفها اليوم لم تكن قد ولدت . وتبعاً لذلك غمر الفلاسفة في العصور الاولى وحتى العصور المتوسطة طوفان الفلسفة الاخلاقية وتفسير السلوك الاخلاقي على اساس اللذة او الالم ، الخير او الشر ، المنفعة او الضرر ، السعادة او المتعة او الضرر ، السعادة او المتعة ، الغريزة او العادة ، وردوا كل سلوك اخلاقي اما للغريزة التي ندرك بها الخير من الشر او للعادة على اعتبار ان الانسان ينشأ في وسط اجتماعي تقوم فيه الحياة على العادات والتقاليد والاداب الاجتماعية .

وكان ان تأرجحت الاخلاق كعلم اجتماعي طوال قرون عديدة بين حلم الفيلسوف ومخبر العالم وسلوك المؤدب ، وعاصرت تطور التربية الاخلاقية من نطاق الانسان الى نطاق العائلة .. ولكنها لم تستطع ان تدخل غمار المجتمع الا بولادة الدولة الحديثةالتي أخذت على عاتقها ادارة شؤون الانسان من معاش ومأكل وعلم وتربية ، وصارت الاخلاق بمفهومها العصري الحديث سلوكا اجتماعيا يتعدى الفرد كانسان ويمس منه الصميم كمواطن قد انطوى تحت لواء دولة عصرية تسعى لتطوير نفسها بتطوير مواطنيها معها في الوقت نفسه . ولكن كيف حصل هذا التطور كله ؟ وما هي الوسائل التي استعملتها الشعوب للانتقال من مفهوم اخلاقي معين الى مفهوم اخلاقي آخر ؟ وكيف يتأثر المجتمع بالمفاهيم الاخلاقية ؟ وكيف تؤثر المجتمعات في المفاهيم الاخلاقية فتطورها او تغيرها ؟ وما هو سر النظرة الى الاخلاق في مكان وزمان معينين بغير النظرة اليها في مكان آخر او زمان ومكان اخرين؟ وكيف نستطيع ان نعلل تطور المفهوم الاخلاقي من التزام حدود الاداب والسلوك الحسن بين الناس الى التزام موقف من العصر ومن حضاراته ومن التيارات السياسية والاقتصادية التي تتقاذف الامم والشعوب ؟ وكيف لنا ان نعلل مفهومنا نحن العرب الى الاخلاق ونوفق بين حفاظنا على تراثنا الاخلاقي وبين حاجتنا للتطور الذي تفرضه طبيعة العصر وارادة التاريخ .. الى ما هنالك من اسئلة عديدة سوف تجيب عليها دراسة الاخلاق في المجتمع على ممر التاريخ لنقف عند مجتمعنا العربي الحديث .

مقاييس الاخلاق الثلاثة

اذا اردنا ان نبحث ماهية الاخلاق في عصرنا او عصور تلت ، وجب علينا ان نقف قليلا عند مدلولها الاجتماعي وماهية هذا المدلول . لان الاخلاق وهي سلوك الانسان في الحياة لا يمكن ان تبقى كما هي منذ مئات السنين ، فما كان اخلاقيا في عصور مضت قد يغدو عملا غير اخلاقي في عصرنا هذا .. والمجتمع بتطوره وتداخل المجتمعات بعضها في بعض وتشابك عناصر الحضارة واختلاط الشعوب ، قد جعل للاخلاق ميزة المرونة التي تنتقل من واقع الغريزة المتأصلة والعادة الدارجة الى سلوك يكتسب بالتعلم وتصقله التجربة ، فيتجاوب الحكم الاخلاقي على الشيء من نطاق الفرد الى نطاق المجتمع ، وينتقل من حدود العرض الى حدود القانون كما ينتقل من ذات الانسان الى فكره الاجتماعي وتصير له قوة النفاذ في حياة الناس والمجتمع ، فاذا ما زادت فرص التعارف بين

الشعوب وتداخلت مصالحها وتمتنت صلات الود فيما بينهــا وقامت الاخلاق الدولية مقام المحكمة العليا وقوانينها وقراراتها ، اضحى ضمير الفرد يحكم على التصرف والسلوك وكأنه ضمير انسان عالمي يعيش في دار واحدة هي الكرة الارضية رغم ما فيها من شعوب وأمم واجناس وانماط للحياة البشرية ولكنها كلها تتفق في ان الانسان يسعى لان يوحد جهوده المشتركة من اجل قضية الانسان وحريته وكرامته وتعاونه مع اخيـه الانسان على اساس من الاحترام المتبادل والثقة والتطلع بأمل الى عالم الغد ، عالم العدالة والمساواة والحرية للشعوب كافة .

ولعل المدقق في سر تحول الاخلاق من تقاليد خاصة بشعب ما في زمان ما ، الى اخلاق عالمية لكل الشعوب لا بد من ان يجد السر في هذا الترابط الذي تزداد اواصره يوما بعد يوم بين البشر حتى ليوشـك الانسان شيئا فشيئا ان يغدو مواطنا عالميا بمشاعره وافكاره ولـو كان محافظا في نفس الوقت على خصائصه الاقليمية وصفاته وعاداته وقيمه ، ومعانيه الاخلاقية الموضوعية التي قد يلتزم بها في مجتمعه هنا ، ولا يلتزم بها في مجتمع آخر هناك .

ونستطيع ان نفسر سبب ذلك التطور في المفاهيم الاخلاقية الى مقاييس ثلاثة . الاول منها هو وحدة المعرفة الانسانية ونعني بها وحدة الفكر البشري والمعارف المكتسبة وتمتع سائر شعوب العـالم بهـا . فالفلسفة اليونانية مثلا لم تقتصر على الشعب اليوناني وحـده بـل حاولت شعوب اخرى ان تنقلها الى لغاتها وتدرسها وتضيف اليهـا ، واول هذه الشعوب الشعب العربي الذي حضن الفلسفة اليونانيـة وحفظها من ضياع ، ودرسها وناقشها ومن ثم صار نقلها الى الغرب عن طريقه .. والى جانب الفلسفة كانت العلوم والاداب والمعارف الاخرى تحظى بمثل هذا الحرص وتلك الرعاية ، مدللة على وحدة الفكر البشري ووحدة اتجاهاته لخلق الاساس المتين لحضارة الامس وحضارة اليوم .

وهذه في الوقت نفسه الحضارة الغربية مهمـا كانت صفاتهـا ومقوماتها ، فوائدها او مضارها ، فانها لم تبق محصورة في اوروبـا . فالقطار ينشر دخانه في القارات كلها ، والكهرباء تنير ملايين البيـوت ، والذرة تحطم الجبال وتشق العوائق وتسير السفـن وتعد الصـواريـخ للكشف العلمي ، هذه الحضارة الغربية هي ايضا قد توزعت العالم كله بما رافقها من تطور صناعي قلب صورة المجتمع القديم من مجتمع زراعي الى مجتمع صناعي ، حيث الكتل الكثيفة من الناس ، والمدن الكبـرى والمداخن العالية ، الى درجة نستطيع ان نقول فيها ان انسانا جديدا قد ولد متسلحا بمعارف الاقدمين وخبرة المعاصرين يوشك ان يغدو نمطا واحدا لكل انسان في القارات الخمس .

فاذا تخطينا وحدة الفكر البشري الى المقياس الثاني وهو وحدة الشعور الانساني الذي يتلاءم مع الفكر ليدلل على وحدة الحياة الانسانية، كان لنا ان نفسر هذا الشعور الانساني بجملة الحوافز النفسية والطباع ورد الفعل الذي تحدثه حادثة واحدة في الوجدان والضمير ، وما نعطيه من معادلات للقيم والحوافز النفسية عندما نريد ان نجسدها في حكـم اخلاقي يستند على بداهة الشعور الطبيعي الذي يختزنه كـل انسـان ليطلقه في كل مرة تدق يد الحادثة الخارجية فيها صدره لتستخـرج حوافزه النفسية هذه وردود فعله المخبأة .

والانسان في كل مكان وزمان ينطلق من حدود معينة الى حدود أبعد منها في التعبير عن رقي فكره ورقي شعوره الانساني ، وهناك حد ادنى لا يمكن للانسان ان يصل اليه مهما تدنت مكانته في سلم الحضارة وكذلك افكاره ومشاعره لانه يظل انسانا يمكن له اذا مدت له اليد الرحيمة ان يتطور وينهض بالقدر الذي تسمح به ملكاته ومواهبه الفطرية ، وحسب الكيفية التي تقدم له فيها تلك المعارف والعلوم لتجعل منه انسانا علـى صورة العصر الذي يعيش فيه ووفق طرازه .

ويبقى المقياس الثالث وهو وحدة الوسائل والغايات ، ويمكن لنا ان نفهم هذا المقياس الثالث اذا وقفنا على الغاية من الحياة . ولا بأس من استعراض بعض النظريات التي نادى بها العلماء حول هذه النقطـة بالذات . فبعضهم قال ان الغاية من الحياة هي السعادة او اللذة واجتناب الآلام .. وهذه مطامع الانسان في كل عصر وفي كل مجتمع ، وتتجمـع غايات الافراد لتغدو غاية المجتمع او غاية الدولة ، ويدب الصراع بـين المجتمعات وما في المجتمعات من فئات ، وبين الدول لحماية السعـادة لشعوبها او للاستزادة منها . وقد رفض بعض العلماء قبول هذه النظرية القائلة بأن غاية الحياة هي السعادة لانهم لم يقبلوا تحصيل هذه السعادة بوسائل غير اخلاقية . فالسارق مثلا يستطيع ان يعيش سعيدا بعـض الوقت بما سرقه اذا غفل عنه القانون الوضعي ، ولكن القانون الاخلاقي يلجأ الى محكمة الضمير التي لا تقبل بسعادة تأتي عن سرقة الغير وتسبب الضرر والاذى له ؟

وقالت فئة ثالثة من العلماء بأن غاية الحياة هي اجتناب الآلام لان اجتناب الآلام هو السعادة الحقة ، لكون الحياة تعبا متصلا ، وقد اتهم هؤلاء العلماء بالتشاؤم لانهم لم يروا في الحياة الا ليلا متصلا ، وغفلت اعينهم وقلوبهم عن النهار المنير . ولا بد في مثل هذه الحال من ان يكون هناك ضابط لوحدة الوسائل والغايات وان يكون هذا الضابط اخلاقيا ، وهو ما نطلق عليه اسم الضمير، سواء أكان ضمير الفرد أم ضمير المجتمع. ودراسة وسائل الانسان وغاياته تفسر لنا معنى النضال من أجل كسب لقمة العيش والعيش بأمن وطمأنينة ، وتكوين العائلة ، والتآلف بين الناس يتكلمون لغة واحدة توحدهم عواطف متقاربة ومشاعر غـير متباينـة ، وافكار بناءة ، وتقف هذه الوسائل والغايات عند نزوع الانسان بما يملك من وسائل لجعل الحياة اكثر سعادة وأقل الما ، طامحا الى استمرار هذه السعادة التي حصل عليها وعدم تبديدها او استبدالها بالالام والاشجان.

فلو اردنا الان ان نرتب هذه المقاييس الثلاثة التي ارجعنا اليهـا سبب التطور في المفاهيم الاخلاقية من نطاق الفرد الى نطاق المجتمـع الواحد ، ومن نطاق المجتمع الى نطاق العالم البشري لوجدنا ان عامـل الوسائل والغايات وان كان اقدمها في الظهور ، الا انه اقلها تأثيرا .. بينا وحدة الفكر البشري وتطورها وتأثيرها في الحياة والناس والمجتمع قد تكون متأخرة في الظهور الا انها اكثر تأثيرا في الانسان وفي حضارته من جملة الوسائل والغايات التي تحدد سلوكه وتضبط نشاطه .. امـا وحدة الشعور الانساني فهي القاسم المشترك بين وحدة الفكر وبين وحدة الوسائل والغايات ، لان الانسان بلا شعور ولا عاطفة ، يظل فكره جامدا وتظل وسائله وغاياته عارية مما يكسبها نضارة المعرفة وخضرة المشاعـر وحماسة الامل .

ان الانسان امضى الكثير من القرون الى ان بدأ يفكر تفكيرا علميا.. وعمر حضارتنا الحديثة لا يتجاوز خمسة قرون .. ولقد قطع الانسـان اميالا كثيرا الى ان قفز جواد الحضارة قفزته الاخيرة في هذه القـرون الخمسة .. واذا كان تطور الانسان فيما مضى قد كان على اساس عددي فان تطوره الحضاري اليوم على اساس هندسي .. واننا اذ نعـرض لتطور المفاهيم الاخلاقية في المجتمعات القديمة لا بد من ان نلمس الفرق بين تطور العالم القديم وتطور العالم الحديث لنجد ما حل بالمفاهيـم الاخلاقية وبالاخلاق كعلم على ضوء الحضارة الحديثة التي ولدت قيمـا جديدة تتلاءم مع طبيعتها وخصائصها ولنجد اخيرا ما حل بالمجتمعـات القديمة وكيف تولت عنها اردية الحضارة القديمة لترتدي اردية جديدة من صنع حضارة هذا العصر الذي نعيش فيه .

الاخلاق في المجتمع الرعوي

نستطيع ان نقسم تطور المعاني الاخلاقية الى ثلاث مراحل . مرحلة المعاني الاخلاقية في المجتمع الرعوي ، ومرحلة المعـاني الاخلاقية فـي المجتمع الزراعي ، ومرحلة المعاني الاخلاقية في المجتمع الصناعي .

ان للمجتمع الرعوي اخلاقه التي تصوغها طبيعـة المجتمع ونزوعه. ولا نستطيع ان نعلل الاسباب كلها على اساس الفعاليات الاقتصاديـة وحدها . لان الرباط الاجتماعي في المجتمع الرعوي يقوم عـلى رباط الدم .. وانصر اخاك ظالما او مظلوما هو شعار التعـاون من اجـل الحياة .. والغزو مباح بين الجوار قربوا او بعدوا وهو في الوقت نفسه محرم بين ابناء المجتمع ذاته . والسرقة .. ونطلق عليها اسم السرقـة

تجوزا – فعل يدل على البطولة شريطة ان لا تقوم على سرقة الاقرباء .. وقد تتمايز المجتمعات الرعوية بعضها عن بعض ، ولكنها كلها تتفق في انها تتطور تطورا بطيئا لا يتعدى حدود الفطرة ، قد خلت من المعارف والعلوم والاداب الا ما كان فيها من شعراء وحكماء انضجتهم السنون . ولعلها ظاهرة جديدة بالتسجيل وهي خلو المجتمع الرعوي من الطبقات الا طبقة الاسرة الحاكمة .. اما عدا ذلك فرأس المال ظاهر جلي فيما يملكه مواطن للمجتمع الرعوي من ماشية ودواب وخيل للركوب . فاذا عرفنا ان الرأسمال النقدي واستثماره هو الذي يفتح باب التطور الاجتماعي على مصراعيه لقيام الافراد بنشاط اقتصادي مما يؤدي الى تمايز المجتمعات في تعدد الطبقات الاجتماعية وتعاملها بعضها مع بعض ، ادركنا لماذا لم تتطور المجتمعات الرعوية تطورا ايجابيا يبقي على خصائصها ويضيف اليها خصائص جديدة .. ولم يكن التطور المرتقب الا باستقرار المجتمع الوعوي في أرض معينة وزراعتها وتحول الرعاة الى مزارعين.. او فنائها بالغزوات والحروب المحلية الصغيرة .

فاذا اردنا ان نطبق المقاييس الاخلاقية الثلاثة على المجتمع الرعوي ، وجدنا ان وحدة الفكر البشري تكاد تكون شبه معدومة لان نشاط الانسان منصب كله على تامين اسباب الحياة وجعل الوسائل والغايات في متناول الايدي من اجل العيش والحماية والامن . اما وحدة الشعور الانساني فان العاطفة وحدها بلا علم ولا ثقافة تجعل حماسة الانسان من اجل العيش حماسة مادية بحتة لا تتعدى الطعام والشراب والزواج . دون مزج الفكر بالشعور لتولد الوسيلة وكذلك الغاية وهما اللتان تؤلفان قاعدة المثل الاعلى للانسان في الحياة .

ويأتي الحديث عن المرتكز الاخلاقي في المجتمع الرعوي او منبع المعاني الاخلاقية فلا نجده يتعدى حدود الغريزة والعادة دون تطوير ولا تعديل ، لسببين اولهما عدم الاخذ باسباب المعرفة الانسانية وعدم الاختلاط بالاخرين من الاغراب ، وهذا وحده سبب بقاء كثير من المجتمعات الرعوية على حالها دون ان تتطور عما كانت عليه منذ الآف السنين ، ولذلك نجد ان اسباب التطور الجديدة قد وجدت من يأخذ بها دون تعليل ولا تفسير لاكتشاف العلل والاسباب ، ويظل هذا طابع المجتمع الرعوي دون تغيير او تبديل لانه مجتمع قد تحددت فيه نماذج الحياة وتوطدت القيم الاجتماعية واتبعت قواعد السلوك ، وصار للفرد اهداف محددة يعرفها الابناء عن الآباء والاجداد ، وتظل متوارثة متنقلة من جيل الى جيل الى ان تمر ريح التطور فوق صفحة الحياة الاجتماعية الهادئة ، فتهتز قليلا او كثيرا ، وتنقل المجتمع من حال الى حال، مما يبشر بولادة المجتمع الزراعي وطبقاته الاجتماعية وقيام علاقات جديدة من التعامل بين الافراد وبين المجتمعات المتقاربة جغرافيا وحضاريا ، فكأن عربة التطور البشري بعد ان انهك جيادها العدو المستمر ، قد وقفت اخيرا .. وبدلا من الترحل والتنقل فقد حولت الجياد اصيلة كانت أم غير اصيلة الى جياد تسحب المحراث من الافق الى الافق لتكتب على الارض البكر قصة المجتمع الزراعي وقصة المعاني الاخلاقية فيه .

الاخلاق في المجتمع الزراعي

ان البساط السندسي الاخضر الذي كان شعار المجتمع الزراعي هو الذي بسطته حوافر الجياد وهي تسحب المحراث خلفها ، وهو الذي اقام البيوت بدلا من الخيام ، فاستقر الانسان ذلك الاستقرار الذي مكنه من التطلع الى السماء لدراسة النجوم والافلاك ، واضحى بحاجة الى كيان يحميه كفرد ، فولدت فكرة الدولة ، والى شيء آخر يحميه كانسان فتكشفت له البصيرة عن وجود الله فعبده في الشمس والقمر وفي الريح والحجر .. الى ان جاءت الكلمة المقدسة من السماء فكانت قوافل الرسل تترى للهداية والارشاد .. ولا بد لنا من الوقوف لحظة عند فكرة الدين في المجتمع الزراعي ، تلك التي لازمت استقرار الانسان في الارض ، لان التفكير عدو الرحلة والتنقل ، والانسان كالشجرة لا يمكن ان تعطي ثمارها الا اذا غاصت جذورها في اعماق الارض ، وكذلك الانسان : انه لا يستطيع ان يفكر مهما كان التفكير ومن اي نوع كان الا اذا وقف واستقر وابتنى البيوت للسكن والعبادة واخذ يحاول ان يتعلم ويكتشف المعرفة وان يمزج شعوره الانساني بالمعارف الجديدة ، وان يحول وسائله وغاياته نحو طريق تفصح عن سمو الشعور ودقة المعرفة .

وقد تطورت الاخلاق في المجتمع الزراعي تطورا شبه جذري عما كانت عليه في المجتمع الرعوي لتغير الطبقات من طبقة مالكة للقيادة الى طبقة مالكة للارض ، وتغير العلاقة من رابطة تقوم على الدم ، الى رابطة تقوم على الولاء والتعاون بين مالك الارض والعاملين فيها ، وقامت الاخلاق الدينية مقام الاخلاق الرعوية ، واضحت المعاني الاخلاقية مجردة بعض الشيء عما كانت عليه في السابق ، واضحت السرقة مثلا ، سرقة سواء أكانت عن غريب او قريب ، واضحى العقاب ملازما لكل مخالفة تقع على اوامر سلطان اولي الامر ، ولم تعد مناصرة الاهل والاقرباء على الظلم موضع ترحيب وتقلصت فكرة القربى وصار الفرد مسؤولا عن نفسه الا بما قيدته به عن حب وطواعية نزعة الاخلاق الدينية والتضحية في سبيل الله ونشر العدل والمحبة بين الناس .

وولدت من جديد الاخلاق الدولية التي تدعو الى تغيير الوسيلة القديمة وهي الحرب الى الوسيلة الجديدة وهي السلم ، وان كانت الحرب ظلت تستعمل كآخر مرحلة للتفاهم او لفرض الصلح على العدو .

والفكر في هذه المرحلة اذا كان قد وضع نفسه في خدمة قيم هذا المجتمع واخلاقه ، فانه ظل بحاجة الى ان يفتح جناحيه على مداهما كي يحلق في سماء المعرفة والاستقلال واخضاع ظواهر الطبيعة للمناقشة والدراسة والاقتناع عن بصيرة وحكمة .

ولقد حققت العلاقات الاقتصادية اثر قيام الممالك والدول في نشر العادات والتقاليد والافكار خارج حدود المجتمع الذي نشأت فيه ، كما اخذت صلات الشعوب تتعمق فيما بينها للاستفادة من خبرات بعضها بعضا ووضع هذه الخبرات في الموضع الذي يفيد ، وتطور مفهوم الحكم من سلطان يقوم على اغتصاب الولاء ، الى سلطان يقوم على ارضاء الله

وتنفيذ مجمل ما تأمر به القواعد الاخلاقية التي اضحت طابع المجتمع الزراعي . ولقد كان الفكر الديني خطوة الى الامام في المجتمع الزراعي لانه ضرب العادات والتقاليد القديمة في الصميم ، وربط وسائل الانسان وغاياته بالمعرفة الانسانية والشعور الانساني مهما كان حظ الانسان في ذلك الوقت من المعرفة بسيطا ومهما كانت ظلال الشعور رقيقة . كما بلور الفكر الديني عادات جديدة للمجتمع ، نشرت بشكل واسع عن طريق الحروب الدينية محلية كانت أم عالمية . ولقد ساعدت هذه الحروب الدينية ، ولنسمها حروب الفتح ، على قيام اتصال كبير بين الشعوب ونقلت تبعا لذلك كثيرا من المعارف والعلوم والادوات والصناعات اليدوية . فالفكر اليوناني لم يكن متيسرا للعرب ان ينقلوه الى لغتهم ويضيفوا اليه من عندهم الشيء الكثير لولا حروب الفتح وتحرير مصر والشام والمغرب من احتلال الاجانب ، وقيام الفكر الفلسفي لدى العرب الذي فلسف فكرة الله والجبرية والاختيار ، ولولا العرب لما وصل هذا الفكر الفلسفي الى اوروبا .. وهو الذي كان منطلقا للفكر الاوروبي الحديث الذي مهد للحضارة الصناعية والمجتمع الصناعي الوليد .

وتتميز طبقات المجتمع الزراعي عن طبقات المجتمع القبلي بميزتين ، الاولى هي ان الاستقرار في الارض قد فتح الطريق امام البناء والانشاء وقامت قواعد اخلاقية تبرر سلطان الحكام على الرعية تارة باسم الله لما دعمتهم به السلطة الدينية في اوروبا مثلا من قوى معنوية لا قبل للحكام على مقاومتها ومن بينها مرور التيجان من تحت يدي البابوات لتوضع على رؤوس الملوك والاباطرة ، وتارة باسم تملك الارض وما عليها مما انشأ طبقة رقيق الارض ، واضحت بذلك الامارات الاقطاعية هي الدول النامية آنذاك ، ولم تكن هذه الدول سوى المدن الصغيرة المتناثرة على الخريطة . اما الميزة الثانية فهي ان الاستقرار في الارض قد يستغرق عدة قرون ، وكذلك الحروب الدينية بين الشرق والغرب قد اتاحت للافكار الكبرى ان تنضج على نار هادئة ، تلك الافكار التي ناقشت القواعد الاخلاقية التي كان الضمير البشري يباركها لملاءمتها روح العصر وحركة التطور آنذاك ، ولكن ذلك لم يمنع الافكار الكبرى المطورة للاخلاق والمجتمع ، من ان تنمو في كثير من الرؤوس المفكرة ، بعد ان مدتها بالحماسة قلوب كبيرة متعطشة للحرية ، حرية الانسان العادي في ان يكون سيد نفسه وسلطان عصره لا ينازعه في هذه السيادة انسان آخر الا بالحق .

ومع الفكر الذي ولدت بذوره في المجتمع الزراعي ، وضعت اللبنة الاولى للتطور الانساني ولما اتى بعد ذلك من العلوم والاكتشافات ، وليس ضروريا ان يكون ذلك قد وقع بصورة دقيقة ومفصلة ، بل ان استقرار الانسان في الارض واخذه مشكلات حياته بالتفكير والدراسة والتأمل قد فتح في نفسه دروبا جديدة ، وفجر ينابيع ثرة ، وانمى حياته بالخصب والنماء والتنوع ، وجعل لها معنى بحيث اذا تطورت يوما بعد يوم كان هذا التطور مؤديا الى نتيجة وصادرا عن فكرة تنبع من عقل الانسان ومن قلبه لتصب في مجتمعه الصغير والمجتمع الانساني الكبير ، معبرة عن وحدة الفكر البشري ووحدة الشعور الانساني ، واضعة وسائل الانسان وغاياته امام محكمة الضمير الاجتماعي ، منتظرة اصدار الحكم الاخلاقي بحماسة صافية مهما كان الحكم ومهما كانت نتائجه .

والواقع الذي لا جدال فيه ، ان الاخلاق في المجتمع الزراعي قد اخذت شكلا ومضمونا لا يختلفان عن شكلها ومضمونها في المجتمع الرعوي فحسب بل انها ولدت من جديد على اسس روحية ومادية توازن فيها احساس الانسان بعالمه الداخلي ، باحساسه بالعالم الخارجي ، وتأكدت الى حد بعيد ولادة الوجدان الاجتماعي الذي يصدر الاحكام دون ان يقف محاسبا البشر على عدم تنفيذها بقدر ما يلجأ الى ضمائرهم التي صاغتها التربية المنزلية والمعاني الاخلاقية التي جاءت بها الاديان ، وكرس لها الفلاسفة والمفكرون والمصلحون جل وقتهم وعنايتهم ، واذا كان من صفات الاخلاق في المجتمع الزراعي ، الاستقرار وعدم التغير ، فان السبب لذلك هو ان الاتصال بالارض والتوفر على خدمتها ورعايتها، يخلق من العادات ما قد تصبح طبيعة ثانية مما يمكن بها مقاومة كل الافكار الجديدة التي تنادي بتغيير قواعد السلوك وتطوير الاخلاق نحو المضمون الذي يكرس احترامه للانسان ومقاومته لمحاولات الضغط عليه باسم العادات حينا والتقاليد احيانا .

ولقد تطورت المعايير لاخلاقية الانسان في المجتمع الزراعي عنها في المجتمع الرعوي . ففي المجتمع الرعوي كان المعيار الوحيد لاخلاقية الانسان ولااخلاقيته هو مدى دفاعه عن اقربائه الذين تربطه بهم صلات الرحم والدم مهما كانوا مخطئين او مصيبين ، وكذلك عدم انتهاك حرمات هؤلاء الاقرباء ولا اموالهم مع استباحة كل ما للغريب وبخاصة اذا كان عدوا .. ونستطيع ان نصنف المعايير الاخلاقية في المجتمع الرعوي على اساس غير مجرد، بمعنى ان الخير ليس خيرا لذاته بقدر ما هو خير نسبي وان القيمة الاخلاقية التي تعطى لفعل من الافعال ، تتغير بحسب تغير هذا الفعل وتغير الشخص الذي صدر عنه . فالاخلاق هنا شخصية ليست مطلقة مادية ان صح التعبير وليست مجردة او معنوية .

اما في المجتمع الزراعي فقد حدث تطور شبه كلي بحيث صارت المعايير الاخلاقية مجردة عن الاشخاص الذين يمكن الحكم عليهم بمقتضاها .. وصار الخير خيرا لذاته والشر شرا لذاته ، ولم تعد مناصرة الاخرين محمودة ولو على الحق الصراح لقيام الدولة ودفاعها عن مواطنيها متخذة بذلك دور الرئيس في المجتمع الرعوي ووضعها القوانين والانظمة وتعاملها بالاعراف والعادات التي ثبتت اخلاقيتها .

ونستطيع هنا ان نقول ان الانسانية قد وجدت نفسها منذ ان صارت المعاني الاخلاقية معاني مجردة ومطلقة تتصل بالفكر والشعور وتخضع لوازع الضمير والوجدان ، وتشمل مختلف الناس على الرغم من اختلاف العروق والاجناس ، وبذلك سمقت شجرة المعاني الاخلاقية عالية وسط مجتمع مهذب من الناس وفرشت ظلها الظليل لتقيهم وهج الشمس المحرقة .

وفي المجتمع الزراعي حدث ذلك التفاعل بين المعاني الاخلاقية والفكر البشري الذي مهد لولادة البذور الاولى للمجتمع الصناعي .

اننا امام مجتمع زراعي عرف الاستقرار وسادت فيه المعاني الاخلاقية التي ركزتها على اسس واضحة مجموعة القيم الدينية التي كانت تهدف الى خلق الانسان الصالح لذاته وبذاته من خلال تعامله مع الاخرين . ولقد كان من الممكن ان يستمر المجتمع الزراعي الى الابد لولا ان الفكر الذي انبثق من ميزة الاستقرار وتناول الانسان مشكلات حياته القريبة او البعيدة ، بالتأمل والدراسة والمناقشة وتبحره في الاصول الدينية للتفكير لمعرفة القوة الالهية وادراك معجزاتها – ان ذلك كله قد مكن الانسان من استعمال فكره في هذه الامور كلها .. وقد ساعد الانسان على ذلك ما ادخرته المعرفة الانسانية منذ عصر الفلسفة اليونانية وعصر الفلسفة العربية التي كانت بحق خيطا متصلا للفكر الانساني على صعيده الفلسفي حتى اذا تجمع هذا الزخم الفكري كله وجد البيئة والمناخ لينطلق من جديد واضعا للبشرية سلما جديدا للقيم ، مناقشا القيم السابقة مبشرا بولادة العقل الذي هو وحده السلطان والحاكم ، فاتحا بهذا العقل اشرعة المجهول لينقب ويدرس ويضع مشاهداته على محك التجربة . فما وجده العقل فهو الموجود ، وما لم يجده فهو الغائب الى حين يثبت فيه العقل وجوده مرة ثانية .

ان الفكر الذي ولد في رحاب المجتمع الزراعي هو الفكر نفسه الذي اخضع للمناقشة كل القيم التي اتى بها المجتمع الزراعي . وان الفكر الذي انطلق من ذات الانسان معبرا عن قوة العقل وسلطانه هو الفكر الذي جاء بالعلم . ذلك الذي ولد من تماس الفكر بالطبيعة . وان الفكر الذي حاول فهم الطبيعة بوضعه القوانين لظواهرها وتفسير هذه الظواهر قد ولد علم الرياضيات على اسس جديدة . وان الفكر الذي ولد علم الرياضيات ذلك الذي ساعد على فهم الكثير من خواص الاجسام والمعادن والظواهر الطبيعية والفلكية قاد المعركة من جديد لولادة علمي الفيزياء والكيمياء .

وان الفكر الذي تمخضت عنه هذه العلوم عاد من جديد وقد تسلح بها كلها لدراسة الانسان والطبيعة على قواعد علمية تمخضت عنها

في النهاية بذور جديدة لحضارة تشرق على الانسانية حتى اذا نجحت اكثر هذه المحاولات في حقلي الفلسفة والعلوم انتقل الانسان لتطبيقها على واقعه ومجتمعه فكانت نظرية الجاذبية وكان اختراع البخار .. وكانت الالة شعار المجتمع الصناعي الجديد مبشرة بحياة جديدة للبشر جميعا وكانت قوة العقل قوة لا تقلب .

فما هو هذا المجتمع الصناعي وما هي خصائصه وما هي معانيه الاخلاقية ؟

الاخلاق في المجتمع الصناعي

ان المجتمع الصناعي كان ولاشك وليد النهضة العلمية في اوروبا تلك التي مكنت لها الافكار الفلسفية والاتجاهات التحررية في السياسة والدولة والحكم بحيث اتخذت عدة اتجاهات في آن واحد . فمن الثورة على سلطان الباباوات الى الثورة على الظلم الاجتماعي الى الثورة على القيود التي اورثتها العصور الوسطى للفكر والمفكرين الى ما هنالك من اتجاهات جديدة في انظمة الحكم والدول والحروب المحلية واكتشاف امريكا وانقراض الامبراطوريات وقيام الدول الحديثة على اساس القوميات وتطاحن هذه القوميات فيما بينها مخلفة وراءها جملة الحروب الدينية .. ان ذلك كله يشكل الصورة الجانبية للتطور الاجتماعي الذي تمخضت عنه اخلاق جديدة لازمت ولادة المجتمع الصناعي وشبت معه . اذ في معزل عن هذه التطورات العامة التي مست حياة الافراد والجماعات كان هناك مخلوق يولد من جديد هو انسان العصر الحديث ، وقد تزود بكل المكتسبات في حقل العلوم والفنون والاداب كذلك بكل المنجزات في حقل التربية الاجتماعية وسائر الاكتشافات في حقل علم النفس بغورها الى اعماق الذات الانسانية وتشوفها الى عالم متحرر من الخوف قادر على تهيئة السعادة للاخرين . ولقد ساهمت هذه المنجزات العلمية المتطورة يوما بعد يوم وكذلك المنجزات الاجتماعية في بلورة القيم من جديد وصياغتها بالاسلوب الذي يتلاءم وحضارة العصر والانسان الجديد . وقد تغيرت تبعا لذلك كثير من المعتقدات المادية في حقل العلوم وكذلك المعتقدات الروحية وما يتصل منها بالفكر الفلسفي وعلم النفس وعلم الاجناس وعلم التطور وانبثقت افكار جديدة ليس لها علاقة بالافكار التي كانت سائدة في المجتمع الزراعي لتسهم في دفع عجلة التطور الى الامام في طريق المجتمع الصناعي ، مخلفة بعض الضحايا في كثير من الاحيان دون ان تقف عن الدوران ، ومن دون ان تتوقف عن التقدم مهما كلفها ذلك من تضحيات .

ان وقفة قصيرة عند شكل هذا التطور الجديد قبل النفاذ الى مضمونه تخرج منها بنتائج ظاهرة ، منها ان سلطان الكنيسة الديني قد خف تدريجيا على الحكام ملوكا واباطرة . وخفت حدة الخلافات الدينية بين الدول لتقوم على اساس القوميات واللغات والمشاعر الوطنية ، وضعف سلطان العائلة داخل الدولة الواحدة في الوقت الذي اشتدت فيه سلطة الدولة على الفرد واضحت فكرة الوطنية والدفاع عن الوطن من المعاني الاخلاقية التي تبذل من اجلها الدماء والارواح ، وتوضحت الى حد بعيد القيم الاجتماعية من خلال المعاني الاخلاقية بالنظر الى الانسان وعدم الحكم على نواياه والاكتفاء بالحكم على افعاله الخارجية ومحاسبته عليها .. اذ في الوقت الذي ازداد ارتباط الفرد بالدولة ، كانت هناك فكرة رائدة تقضي بترك الانسان حرا فيما بينه وبين نفسه للاعتقاد بالقيم الروحية او مناقشتها ، ولم يعد الجهر بكروية الارض مدعاة لسجن غاليلو كما حدث له يوم جهر بفكرته .. واضحى الايمان وهو شعور شخصي محض ، موزعا بين بعض القيم الروحية وبين الانسان وبين العلم الذي اضحت سيطرته على الطبيعة تزداد شيئا فشيئا لقهرها واخضاعها لمشيئة الانسان . ولم يعد من الحرج في شيء الجهر بفكرة ما واخضاعها للدراسة والمناقشة ولو كانت هذه تشكل شيئا من القدسية لدى المجتمع لان المبدأ الاول هو ان الانسان حر في نقد ما يريد ما دام يتخذ الاسلوب العلمي في النقد بادئا بذاته ومن ثم بالاخرين ومن ثم بالعالم المحيط به .

ان التطور البشري في المجتمع الصناعي قد بدأ على خط مستقيم بعد ان كان قبلا يجري حول دائرة مفرغة ، فالزراعة والمحراث المستعمل في فلاحة الارض لم يتطور خلال الاف السنين ولكن أختراع اول محراث حديدي فتح الباب لمحاريث جديدة اخر .. انتهت بان اصبحت الالة في الزراعة كالالة في الصناعة تصنع كل شيء.. والجواد الذي كان شعار المجتمع الزراعي والرعوي كذلك ، لم تتغير سرعته عن ذي قبل ولكن اول سيارة ظهرت كانت تسير بسرعة بطيئة ، فاذا قورنت باخر سيارة تنتجها المصانع اليوم ندرك موضع التطور وسر التقدم السريع ، وكذلك الطائرة ، والسفينة ، والبرق والهاتف والتلفزيون . فالاساس لنوعية التطور وماهيته لا يقاس بالتغيرات الظاهرية لان تلك من العوارض ولكن يقاس بالدافع والجوهر بالمضمون الكلي بالمعاني الاخلاقية التي هضمت تطور العلم واخضاع الفلسفة والعقل كل القيم السابقة ، للانتقاد والتمحيص . وقد ذهب كثير من الدارسين ضحية النظرة الاولى لحضارة المجتمع الصناعي عندما درسوا نتائج هذه الحضارة وخلعوا عنها اردية الاخلاق والمثل العليا ليظهروها وقد تعرت من اسباب البقاء لتؤدي واجبها من اجل الانسان والانسانية . ان المنبع الاول لحضارة المجتمع الصناعي هي الدلالة على عبقرية الانسان ونضوجه العقلي ومحاولته تسخير الطبيعة لامره والعيش في الحياة دارسا متأملا باحثا عن حلول صريحة لكل مجهول يتبدى له ، معبرا بذلك عن مدى التجاوب بين سلطان العقل وروح التطور وبين مقتضيات العلم الحديث ومواضيع الحياة القائمة ، وبين خضوع الانسان للقوى المحيطة به، وتمرده عليها ومحاولة اخضاعها لامره وتسخيرها لارادته .

وتتجلى مظاهر تطور المعاني الاخلاقية في المجتمع الصناعي بتحرر الانسان من المعاني الاخلاقية التي جاءت في المجتمع الزراعي لتواصل دعمها لانظمة الحكم بين رجال الدين الذين كانوا يمثلون الكنيسة وبين الملوك والاباطرة الخاضعين لاولئك درجة فدرجة الى ان يصلوا الى الاله في الدرجة العليا الاخيرة . واذا كان نفوذ رجال الدين قد خف وتلاشى نهائيا مع مطلع عهد الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ فان قوة جديدة ولدت على مسرح المجتمع هي قوة الرأي العام او قوة جماهير الشعب المؤلفة من قوى الافراد العاديين مهما ضؤل شأنهم وقلت قيمتهم في سلم المراتب الاجتماعية ، ومراتب الثورات والانساب ، واستقطبت كلمة لشعب ما يقال عن هؤلاء تخصيصا او تعميما . لان القانون الاخلاقي الذي اخضع المجتمع الصناعي لقيمه المعنوية هو قانون ينظر الى الافراد دون ان ينظر الى وجوههم او ثيابهم بل ينظر الى ذواتهم الانسانية ، فكل ذات انسانية هي روح وكل روح هي انسان ، وكل انسان هو فرد في المجتمع ومواطن في الدولة .. وكل مواطن له حق وعليه واجب .. وما دام القانون الاخلاقي اخذ يمس الفرد وحده في المجتمع الصناعي فان المعاني الاخلاقية قد توزعت تبعا لذلك ، نشاطات الفرد وميوله الفكرية والسياسية واراءه الاجتماعية ، ومعتقداته الروحية ، واضحت ا لاخلاق عموما في المجتمع الصناعي ليست حسن السلوك واجتناب المساوىء وعدم الكذب والسرقة وغش الاخرين فحسب ، بل اضحت ايضا والى حد كبير التزاما خلقيا بموقف معين من القضايا الاجتماعية ، والمباديء العامة والدعوات الكبرى والاشخاص الساعين اليها ، واضحى التغير عنها والانقلاب عليها دون مبرر ودون اقناع ، مدعاة للحكم على من تغير او انقلب او تلون ، بانه اخضع نفسه لمنطق المنفعة والغاية السيئة متخذا التنكر للمعاني الاخلاقية وسيلته العاجلة لقضاء مآربه وتحقيق مراميه ، وهذه اول لبنة في اساس تطور اخلاق المجتمع الصناعي دون ان تصدر عن دافع روحي او غيبي ، لصدورها عن العقل الاجتماعي الذي اخضع التطور لعملية النقد الذاتي وجعل الانسان ذا ارادة ووعي ، تلتزم حدود التطور الاجتماعي ما دام يوافق منطق العقل والعلم والتجاوز عنه اذا جمد عن مسايرة داعي التقدم المستمر الذي تسعى اليه البشرية في جميع العصور .

ان ظاهرة ارتباط الاخلاق بالفكر السياسي والاجتماعي في المجتمع الصناعي ، هي ظاهرة تأتي في الدرجة الاولى من سلم التطور . ولم يكن

مقبولا ولا مستطاعا ان يحدث مثل هذا الانقلاب في التكوين الاجتماعي لولا ان القيم الاخلاقية التي ولدت من جديد كانت تحث على مثل هذا التلازم بين الفكر السياسي والاجتماعي وبين الاخلاق ، ولولا ذلك التلازم الذي رافق الدعوة الى مثل هذا الوعي الجديد بحيث يدل دلالة قاطعة عى ان قوة الحافز الاخلاقي في المجتمع الزراعي قد ضعفت وتلاشت الى درجة جرأت عليها بعض حملة المشاعل من المفكرين والمصلحين الاجتماعيين ، كي ينيروا طريق التحرر من الجهل والعادة المستحكمة والطلاسم باتخاذ العقل حاكما والعلم مرشدا ، والفكر هاديا الى طريق المعرفة ، لتتابع طليعة المجتمع البشري رحلة التطور المبدعة وتدق بيدها القوية باب المجتمع الصناعي وتدعو الرواد من المصلحين والمفكرين والعلماء والباحثين الاجتماعيين والمؤمنين بالحضارة الصناعية والمجتمع الصناعي وبالالة شعار تلك الحضارة ، للعمل وفق اسلوب علمي وعلى اسس عقلية ، لمتابعة عملية التطور ومدها بزادها من السهر والتعب والتضحية .

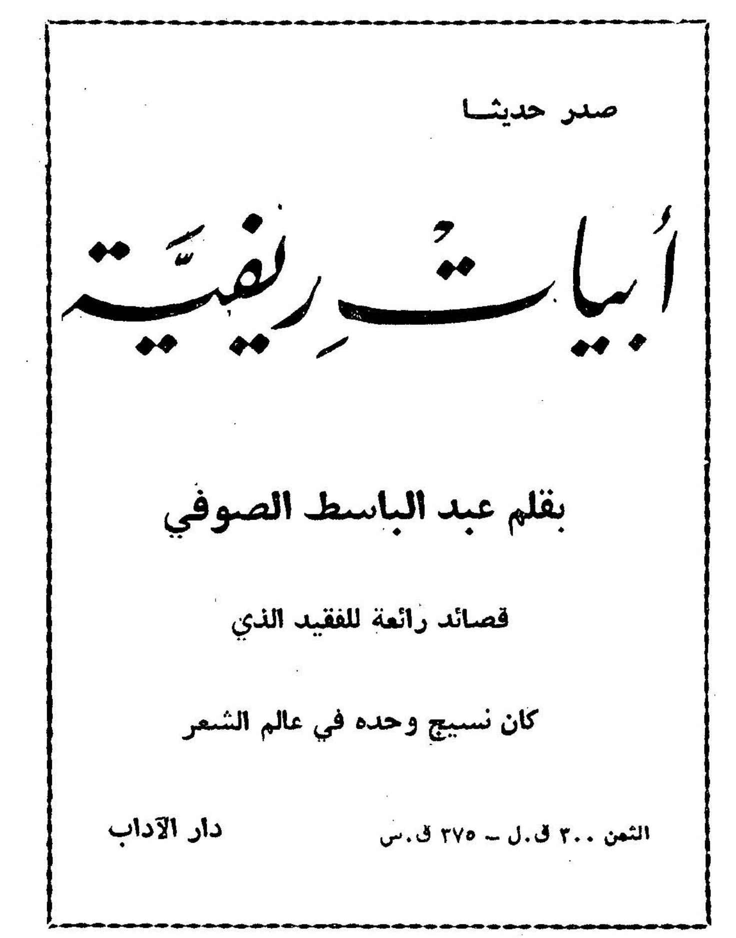
وقد توفر للمجتمع الصناعي من القيم الاخلاقية الجديدة ما جعلت له مسالك جديدة في دروب التطور بعد ان اضحى المجتمع الصناعي مقسما الى دول تقوم على رابطة الدم واللغة والمشاعر القومية نتيجة لاضمحلال كيان الدولة على اساس من المشاعر الدينية فلما قامت الدولة القومية عادت الى مسرح الحياة السياسية بعض العادات المستحكمة في المجتمع الرعوي دون ان تقف منها الاخلاق موقفا معاديا ولكن بفارق واحد ، هو ان المواطن في المجتمع الرعوي كان لا يحاسب على ما يفعله بالاعداء المجاورين وقد يتحمل المجتمع نتيجة عمله ، كما قد يتكتل الكثير للاغارة على جيرانهم ، ولكن الاخلاق الجديدة في المجتمع الصناعي تحاسب حسابا اخلاقيا معنويا وماديا على كل الاعمال التي يرتكبها المواطن داخل الوطن او خارجه اذا سرق او قتل داخل وطنه او خارجه . لان الانسان قد تحرر من الالزام المادي والمعنوي الذي يفرض عليه من الخارج ، وخضع بمحض ارادته للالزام المعنوي المنبعث من داخل النفس ، ذلك الالزام الذي هو القانون الخاص او العام داخل حدود دولته او خارجها . كما تجلى الطموح الفردي في طموح المجموع.

فالفرد طموح داخل حدود الوطن ، ولكن طموح المجموع تمثله الدولة ويقوم عنها بذلك سفراؤها ووزراؤها المفرضون ، فاذا زاد الطموح الى درجة السيطرة قامت الحرب التي تعتبر تصرفا طارئا تقتضيه الاخلاق ما دامت للدفاع عن النفس ، وهي موقف تنفر منه الاخلاق اذا كانت هجوما وعدوانا . ولقد تأصل الحكم على الحرب كاسلوب غير اخلاقي الى ان قامت منظمة الامم بعد الحرب الاولى وهيئة الامم المتحدة بعد الحرب الثانية ، لتمثل الى جانب محكمة لعدل الدولية ، يد الضمير الدولي عندما تمسك بميزان العدالة وتحمل سيفها للدفاع عن القيم الاخلاقية في العالم كله . ولقد نفذت الاخلاق الى صميم فكرة الحرب واعتبرتها اسلوبا غريزيا بدائيا ورفضت اعتبارها قدرا لا مناص عنه ولا مهرب لان المجتمع الصناعي وقد حرر الانسان من اثار الماضي السيئة ، جعل الفكر هو الدلالة الوحيدة على قوة الذات الانسانية ، وهي القوة المعبرة التي يلجأ اليها الانسان لشرح افكاره وتبيان وسائله ، واذا كانت الحرب قدرا فلتكن هي حرب الافكار والعقائد والقيم الاجتماعية والمعاني الاخلاقية ، وهذا مما يبشر بولادة عالم خال من الحروب ليعيش البشر في طمأنينة وسعادة .

فاذا تساءلنا الان عن خصائص القيم الاخلاقية في المجتمع الصناعي وجدناها قائمة على ـ ثلاث خصائص . الخاصة الاولى منها هي ان الاخلاق كشعور ذاتي خاص بالانسان وحده قد نمت نموا كبيرا الى جانب تطور الانسان في حقل العلوم النظرية والعلوم التجريبية ولكنها قصرت عن مجاراة ذلك النمو في الحقل الاجتماعي ... ولو اردنا تبيان نوعية المبرر الاخلاقي الذي كان يبرر مثلا تشغيل الاطفال في المعامل اكثر من اثنتي عشرة ساعة يوميا وباجرة لا تسد الرمق ، لحار اللب في ذلك حيرة بالغة ، ولكن قيام مناصري هؤلاء البؤساء بالدعوة لتحديد ساعات العمل والتهاب الرأي العام حماسة لهذه الفكرة وخاصة بين ابناء الطبقات الاجتماعية المفكرة قد حرك شراع الضمير عندما واتته الريح الخيرة . ولم يكن مسموحا في بدء النهضة الصناعية ان يقول داعية الى الخير والحق ان هؤلاء المساكين مظلومون ويجب انصافهم . لان الانسان كان انذاك لا يزال قليل القيمة . وكان ينظر الى قوته وما يمكن ان تؤدي من العمل مثل ما ينظر احدهم الى بغل او حمار ... ولذلك فان سلم القيم الاخلاقية اذا كان قد دخل معارك جزئية كتحسين احوال العمال وتأمين اسباب المعيشة لهم والعناية الصحية بابدانهم ، فان معركته العريضة كانت تأكيد احترام الذات الانسانية واحترام القيم الانسانية والمثل العليا ، بدفع اخلاقي كان يزداد حدة وعنفا كلما ازداد اعداء الانسان والانسانية تطرفا .. ولقد جرب المصلحون جميع طرق الدعوة للاصلاح واستعملوا الوصفات المستعملة في المجتمع الزراعي.

فلم يجدوا اذنا تصغى او قلبا يحس . لان المجتمع الزراعي كان يقاوم في احيان كثيرة الطبيعة نفسها وما تمثله من غموض محير للعقول ، ويعتمد على الريح والمطر والشمس وهذه كلها قوى لا قبل للانسان على اغضابها او مقاومتها ، ولذلك كان من الممكن ان يستمع الانسان وليد المجتمع الزراعي للنصائح والمواعظ والتحذيرات فيرعوى اذا قدر له ان يرعوى .. ولكن انسان المجتمع الصناعي اختصر الشمس والريح والمطر بحرارة البخار والكهرباء واقامة السدود وحصر وعيه كله في هذه الالة التي تقدم له الانتاج الوفير وما عليه الا ان يقدم لها المعامل التي يشرف عليها او يرعاها ... ان والفكر وكان يقف عندها الوجدان وينتصب الضمير محاسبا ... وباتت الالة والحالة هذه سيدة صاحبها وسيدة العامل عليها ، تسوقهما معا في طريق الاحتراب الاجتماعي ، الكلامي حينا ، الدموي حينا اخر وقسمت المجتمع الى فئات وتوزع راسمال بين المالكين وغير المالكين احدهما يملك

ـ التتمة على الصفحة ٤٩ ـ



رؤى محرقة

يخيل لي بأني مت من زمن
نسيت لديك تاريخه
واني لم ازل احيا ورا عمري
غريب الجسم ، منسيا ، بلا كفن
بعض الصخر مسعورا على روحي
ولما يدن من بدني
فموتي كامن في داخلي
يندس في العتمات من سري
واحمل في دمي قبري !

✶

ومهما استمتعت بالليل احزاني
كما تستمتع الديدان بالجيف
ومهما استعبدت وحشية الصحراء انساني
وانشب عقهما الناري في نيساني الدنف
الوف ينوبه الصفر
ومهما جن ، جن اليأس في ذاتي
كغول ، من كهوف الدهر ، يستولي على النطف
يفتت ما تبقى من تعلاتي
ومهما شب ، في صمتي وطي كآبتي ، جوعه
سيبقى كالبيادر ، كالصباح ، كصوت ام وارف حان
سيبقى كل ايماني
بانك ها هنا .. تغفين في صدري
كما يغفي الجنين الحي في احشاء مصروعه !

✶

رؤى ، قزحية ، شتى
تهوم في سماواتي ، من الذكرى
رؤى نشوى :
عرفتك ، يا سمارا ، جنة بكرا
الوذ بها كعصفور
تقيه أذى الرياح وجوع تنور
عتيق ، لا يجد لجوفه شبعا ولا ريا !
ويفرد ريشه في حضنها زهوا
فلا تصفر ، مهما اجتاحها كانون ، لا تعرى
وتحلو لي بها النجوى
فأنثرها على الدنيا
رذاذا ، سندسي الرف ، ضيفيا

. . . .

رؤى ازلية السكب :
تسلسل حبك السحري في روحي
وفي اشيائي الصغرى
كموسيقى من الاغوار تنبع ،
من وراء مداركي ، معسولة ، حرى
تفتق غبطة زهراء في قلبي
وتحفر في جليدي ذلك الصمتا .

. . . .

رؤى محزونة ، لا تنتهي .. ابدا
كأسراب من الغربان تنعب في شراييني
ففي ريح الخريف صدى !
وتعبر افقي الباكي ، بغير هدى :
عشية غلغل الواشون كالبرداء ، في بلدي
تلوث في نفوسهم ملايين الثعابين
حبالى بالردى والحقد والحسد
فراحوا — خوف ان يحظى بعرس الشمس وادينا
وتكتنز الينابيع الشهية خصبها فينا
نياسينا ، نياسينا
يدوسون الزهور ، يدنسون عفافها حتى
يجف رحيقها الشافي فلا تحنو على احد
ويحتفلون بالظلمات انتبقى الى الابد
فكم رقصوا على اناتنا .. بطرا !
وكم سكروا بما نلقى من الكمد
تحدوا صبرنا واستنزفوا اغلى امانينا
ابادوا كل ما اعطت من الخيرات ايدينا
وشادوا حولنا ، يا اخت ، اسوارا
من الانقاض والموتى
فها انذا اعيش وراحياتي ، تافها ، ميتا
كأني نقمة شلاء ، او طين
بلعنة هذه الاسوار ، مرهون

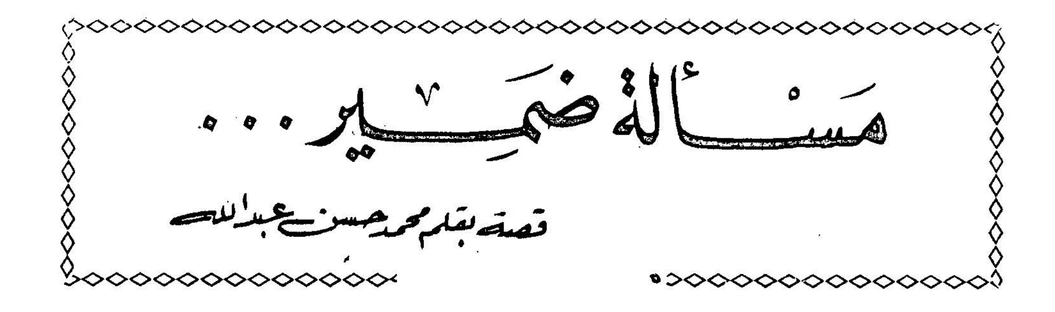
✶

ومن يدري !؟
لعل غدا يطل مجنحا ، حرا
الى بيتي
وفي عينيه ، بين يديه ، في بسماته ،
ما يشبه البشرى
بانك ، يا سما ، لا بد ان تأتي
وانك قد هدمت عليهم الاسوار وارتحت
من الاسر
واني عدت حيا ، ثائرا ، من غربة الموت
لاحرق في دمي قبري !

علي كنعان

---

* من مجموعة « انسام البادية » المعدة للطبع



احمد وسامي صديقان منذ ايام التلمذة الباكرة وفريق « النمر المفترس » للعب الكرة .. – الشراب طبعا – في حواري المنصورة وازقتها . ولكنهما الآن اصبحا لا يلتقيان الا في الاجازات .. فأحمد يعمل في القاهرة .. او بالاحرى يسكن القاهرة ويعمل بحسابات شركة الحديد والصلب في ضاحية حلوان .. وسامي يعمل بأحد بيوت التصدير والاستيراد باسكندرية ولا سبيل الى تلاقي الصديقين القديمين الا على سبيل المصادفة – التي قد تفرضها ظروف ما – او حين يعودان في الصيف الى مدينتهما – المنصورة – ليقضيا الاجازة السنوية .

وكانت تلك الليلة هي آخر ليالي احمد في المنصورة . اذ ان اجازته تنتهي في الغد وعليه ان يتسلم عمله بعد غد .. وقضى الصديقان ليلتهما على شاطىء النيل الاسمر – المتدفق في غير انقطاع – حول الحسان من رواد كازنو « منيرفا » .. وفي الواقع ان للنيل عند المنصورة جمالا لا تجد له نظيرا على شريطه الطويل الممتد من اعماق القارة الى شرفتها المطلة على البحر المتوسط .. هناك تجد المباني الفخمة الشاهقة في جانب . والخضرة الممتدة الى ما لا يدرك البصر منبسطة على الجانب الآخر « والبحر الصغير » يأتي متقاطعا معه لائذا به كأنه رضيع متعلق بثدي امه . واشرعة المراكب والزوارق تملؤه بيضاء خافقة وكأنه قمرية حمام ... وصوت محطة كهرباء طلخا ذات القوة العارمة يأتي من بعيد هادئا متوانيا كأنه نهاية لحن .. لا ينتهي .. ثم لماذا نغفل ركنا هاما من اركان جمال النيل المنصوري ! ! ؟ تلك الباقات التي تزين شاطئيه فتزيدهما سحرا وعطرا .. الحسان حسان المنصورة ذوات الجمال والدلال .. والسحر الحلال ! !

وامتدت يد احمد فازاحت النضد قليلا لينهض . فوقف سامي وأقبل على صديقه معانقا وهو يقول :

– « ارجو ان نلتقي في الاجازة القادمة ومعك امرأة وطفل .. »

– « اتزوج ! ! ؟ »

– « لا .. تستأجرهما للتمويه علي » .. وضحك .

– « ياه .. انت متفائل جدا .. بمثل هذه السهولة .. في عام واحد .. امرأة وطفل ! ! دفعة واحدة ! ! فارس .. فارس بدون شك »

– « والله يا احمد. ماذا اقول ؟ المسألة لا تحتاج الى فروسية.. ظروف .. ظروف لا اكثر .. هذا الحبل الذي بامتداده تمتد الحياة .. أعني .. الزواج .. احيانا يجدل بمنتهى البساطة ويتم في هدوء ويسر .. واحيانا تتشابك الخيوط وتتداخل وتتعقد فلا يتم الامر الا بعد عناء وجهد .. لقد وقعت في يد جماعة اسكندرانية اوصلتني اليهم ظروف العمل فخطبت ابنتهم .. انهم الآن يتسلون بعذابي .. يذلونني اذلال الدولة التي القت السلاح امام سطوة غريمتها ... ربنا يحميك من امثالهم » .

– « ومن غير امثالهم .. هل تريد ان تتكرر المأساة ! ! ؟ »

– شوف يا احمد .. الزواج شر لا بد منه .. حتما ستفكر فيه يوما .. ولعلك تفكر فيه الآن .. الا اذا كنت .. انهم يقولون ان القاهرة مملوءة (بذلك)

– « وحياتك يا سي سامي لا بذلك ولا بهذا .. انهم يقولون عن اسكندرية نفس الشيء . فهي اذن ليست الا اشاعة لا معنى لها .. ثم.. كيف تتهمني بـ .. آ .. بعد هذا العمر الطويل لا تعرف حقيقتي ! ! انني يا سامي انسان له ضمير .. ضمير متيقظ يحاسبه دائما .. لا يمكن .

– واين هو الانسان الذي يعيش بلا ضمير ؟ ؟ كل انسان يولد بضميره – ان صح هذا التعبير – ولكن بعضنا ينجح في تخديره . او خنقه احيانا تحت شعارات مختلفة . الظروف . الوضع الاجتماعي . حق الشباب في المرح .. اشياء كهذه نقولها لضميرنا عند اللزوم فنكتفي شر العراك معه . ان الضمير كحارس الارض الفضاء ... في الواقع لا يؤدي اي مهمة الا انه يذود الناس عنها ليثبت سلطانه عليها » .

– « ولكن الارض فضاء بالنسبة لك فحسب .. اعني بالنسبة للرجل ، لان الاضرار لا تقع عليه في صورة مادية منبوذة .. اما الفتيات !؟! ؟ » .

– « لكنك يا عزيزي لست فتاة !! ان اسمك – على ما اعلم – احمد ! ! » .

– « وماذا يمنعني ان اضع نفسي هذا الوضع ؟؟ ولماذا ابيح لنفسي ما أنكره على أختي ؟ ؟ حتى ولو كانت الارض فضاء يجب ان تظل (بكرا) يحميها حارسها الى ان يسلمها الى صاحبها الشرعي والا فانها ستتحول الى دورة مياه قذرة » .

وعاد الصديقان فتعانقا وافترقا وتواصيا بكتابة الرسائل .. وهذا دأبهما .. ما ان يلتقيا حتى يبدأا بالعتاب على اهمال المراسلة. والاعذار معروفة ومكررة ... وان كانت في النهاية صادقة . وما ان يحين الوداع حتى يوصي كل منهما صاحبه بالكتابة اليه .. ويظل كلاهما ينتظر أن يبدأ الآخر الى ان يلتقيا بعد عام فيعودا للعتاب والتواصي .

وفي الصباح حمل احمد حقيبة السفر واتجه الى محطة القطار وما ان اخذ مكانه في الدرجة الثالثة ووضع حقيبته على الرف حتى رأى صديقه « سامي » يسير على الرصيف وفي صحبته فتاة عرفها احمد على الفور .. انها نبيلة اخت سامي .. كم صارت جميلة ناضجة .. تلك التي كانت تنط الحبل مع صويحباتها منذ سنوات قلائل ... وحسب ذهنه سريعا المدة التي قضاها في الوظيفة ولم ير فيها نبيلة فوجدها اربع سنوات اتبعها بآهة حزينة .. وقبل ان يستقر على رأي .. هل من اللائق ان يناديه او يتركه . التقت عيونهما فهتف سامي على الفور – متهللا – وهو يمسك بيد التي معه :

– بس .. ضاعت والتقيناها .. هذا هو الحارس الامين ! ! »

– « ذاك هو الكلب يا صديقي .. الاسم الذي اطلقناه على الكلب في المدرسة الالزامي .

– « كلب .. قط .. المهم » – وكان قد وصل الشباك – « هذه اختي نبيلة .. واختك طبعا .. لا تدعها حتى توصلها الى منزل خالتها .. الدقي ٣٧ شارع الدكتور كامل .. هي تحفظ العنوان » .

– « ولم لم تحدثني بشأنها امس ؟ أم ان السفر مفاجأة ؟ »

– « لا والله .. فقط اردت الا اقلقك واغير نظام سيرك . لقد سافرت بمفردها قبل ذلك وهي تعرف الطريق .. اما وقد وضعت نفسك في طريقها .. فالذنب ذنبك » وجلست نبيلة في مواجهة احمد . وبدأ القطار يتحرك فانصرف سامي مودعا .. واختلس احمد اليها نظرة حبيبة .

ـ « جميلة » .. هكذا قال احمد في نفسه « جمال منصوري اصيل .. ولماذا لا تكون المنصورة مدينة الجمال ! ! ارضها خصبة وخيرها كثير وجوها لطيف والطبيعة من حولها وادعة .. هل كان من الطبيعي بعد ذلك ان تلد ذئبانا لا غزلانا ! ! ؟ ؟ »

واختلس نظرة اخرى اطول ... جمال منصوري أصيل .. القسمات واضحة .. العيون عسلية عميقة . الحاجبان متباعدان قليلا مما يعطي الوجه مسحة حلوة باسمة .. الشعر الملتهب المجدول يصل الى الخصر .. الشفتان رقيقتان حانيتان .. القوام رشيق ملفوف .. تبارك الخلاق .

ووقف القطار في المحطة التالية . وصعد رجل الى العربة وتمهل في (الطرقة) التي تفصل بين المقاعد . ثم نقل عينيه بين المقعد الخالي الى جانب نبيلة والمقعد الخالي الى جانب احمد ! ! ومن الطبيعي .. جدا ! ! ان يختار الاكثر رفاهية .. جانب نبيلة .. وادرك احمد الموقف سريعا فانتقل هو الى جانبها وترك المقعد الاخر كله خاليا .

كانت نبيلة قد جلست الى جوار النافذة والقت ببصرها الى الحقول الخضر فلما فوجئت بحركة احمد عادت بانتباهها وعينيها الى داخل العربة واراحت ظهرها على مسند المقعد فلامس جنبها ذراع احمد الذي أحس بطراوة الجسد الذي يجاوره فجذب نفسا عميقا وهو يقول في نفسه مرة اخرى « تبارك الخلاق » .

وفي الواقع ان احمد لا يستطيع ان يقول او يفعل اكثر من ذلك . فضميره له بالمرصاد يؤنبه ويؤرقه على اقل هفوة .. وفي هذه المرة بالذات كشر ضميره عن انيابه وشرع اسنته ليسيل دمه اذا تحرك .. انها فتاة ، واخت صديقه .. وامانة في عنقه .. ضمير تكعيب !! ووصل القطار الى « المحلة الكبرى » ولم يتبادلا ولا كلمة . ولم ينقذ الموقف الا بائع المثلوجات اذ صعد الى العربة وملأها صياحا فرأى احمد من واجبه ان يحييها .. وشربا وتمازما على دفع الثمن .. وتحادثا بعدها حتى وصلا الى القاهرة ووصل الحديث الى مجاهل حياة كل منهما فكشف عن بعض جوانبها .. فهي مرحة جريئة تأخذ على عاتقها جانب الترفيه عن المدرسات من زميلاتها في مدرسة القرية الريفية التي تعمل بها .. وهي تدخر نصف مرتبها كل شهر لتشتري به اساور وخواتم .. وفساتين.. وعرف ايضا ان من عادتها ان تقضي بعض اجازاتها عند خالتها في القاهرة . وبعد اسبوعين ستنتهي اجازة سامي ويعود الى اسكندرية وستلحق به هناك لتتفرج على « البلاج » لكنها لن تلبس المايوه ولو شنقوها ... وعرفت عنه ـ دون ان يحدثها بذلك ـ انه خجول .. واعزب قريب من المثالية .. يقرأ احيانا لكتاب مهذبين ويعتنق ما يقرأه.. اذ انه لا يعتقد ان الكتاب يكذبون او يتصنعون ! ! ما الذي يحملهم على الكذب ؟ وعندما صارا في ميدان رمسيس لم يركب احمد « الباص » درجة ثانية كما تعود ولا درجة اولى كما تمنى . وانما اشار الى تاكسي وجلس معها في المقعد الخلفي وهو يهتف بالسائق ..

ـ « الدقي يا اوسطى » .. ، خمسة وعشرون قرشا ... وأيه يعني ! ! ؟ لكنها .. نبيلة الى جانبه .. الا يساوي ذلك ربع الجنيه ! ! ؟

وانطلقت السيارة بهما حتى انعطفت في شارع الدكتور كامل فبدا ـ كأكثر شوارع الدقي ـ خاليا من الناس موحشا ، تتلاقى ذوائب اشجاره المغروسة على الجانبين ونثار زهورها يفرش الارض بالوان بهيجة .. ثلاثة وثلاثون .. خمسة وثلاثون .. سبعة وثلاثون . سبعة وثلاثون .. حاسب يا اوسطي .. و .. توقف الاوسطي .

ـ « اليس هذا منزل خالتك ؟ » .

قالت وهي تفتح الباب من جانبها : « هو كما تركته منذ عام » .

وتقدمته قفزا على السلم ووجد نفسه ـ عفويا ـ يبحلق في ساقيها السمينتين وخاصة في تلك المواقع « التي يكشفها انحسار الفستان نتيجة لصعود السلم .

وتصور اخته مكانه وتتصرف نفس تصرفه فتعجب بساقيني شاب غريب فأحس بالاشمئزاز حتى اوشك ان يبصق على السلم . لم يمنعه الا ان رخام الدرجات نظيف جدا .. ها هو مرة اخرى يتصرف (وكأنه فتاة) وهذا ما قاله صديقه .. انه لا زال تحت سلطان « المعادلة اياها » بدليل انه اخذ في تقريع نفسه ورميها بكل نقيصة ولم ينقذها ـ نفسه ـ منه الا وصوله الى الدور الثالث حيث تسكن الخالة .. وهناك كانت تنتظرهما مفاجأة .. القفل في الباب ! ! ! هكذا بكل بساطة .. الباب مغلق بالقفل .. والقفل لا يستطيع ان يجيب على اي تساؤل .

ونوقفت نبيلة مبهوتة وقد اصفر وجهها والتفتت اليه ـ خلفها ـ في ذعر.. اما احمد فسريعا ما ادرك المقلب.. فانتفض قلبه وتدلت اذناه وتملكه دوار خفيف جعله يركن على درابزين السلم .. تماما كالسيارة التي نفد وقودها فمالت الى جانب الطريق .

ـ « ما العمل ؟ »

قالتها نبيلة وهي تنظر اليه وكأنها تترك قيادها له . انه الرجل وعلى الرجل ان يتصرف . وتمالك احمد سريعا ..

ـ « لا شيء .. لعلهم في الخارج .. في زيارة او يشترون شيئا او اي أمر من هذا القبيل .. لا داعي للانزعاج » .

قالت وهي ترتعد رعدة خفيفة :

ـ « انا لست منزعجة .. هل ننتظرهم هنا ؟.. »

ـ « طبعا لا » .. ـ وتلفت حواليه ـ « حتى الشقة التي تجاورهم مغلقة هي الاخرى .. أف .. حظ .. طبعا وضعنا هنا في انتظارهم أمر غير معقول .. ننزل لعلنا نجد البواب ونسأله متى يعودون .

ونزلا ـ ولم يجدا البواب .. ووقفا في الباب قليلا . واخذ احمد يتلفت حواليه في حيرة وكأنه يبحث عن شيء ضائع بينما خيوط من العرق تجري على جانب عنقه .

واخيرا قالت نبيلة في همس :

ـ « انا اعرف انك مكسوف تقولها .. ومع ذلك .. انت اخي تماما .. سأقولها انا ... اننا لا نعرف متى يعودون . ولا نستطيع ان نقف هكذا فنجعل من انفسنا هدفا لنظرات المارة .. وانت متعب من السفر . وكذلك انا .. سنذهب الى مسكنك .. انت اخي .. نستريح ..

ساعة .. اثنين .. ثم نعود .

واهتز شيء في داخله .. وتململ ضميره لينهض معترضا .. لو كانت اخته هو في موضعه ... ولكنه رأى رجلا عابرا ينظر الى وقفتهما – في مدخل البيت – في اتهام صريح فاقتنع بأن هذا هو الحل الوحيد.

وتاكسي مرة اخرى .. والى المنيرة يا اوسطي .

ومسكن احمد – ان كنت لا تعرفه – حجرتان صغيرتان . وممـــر ضيق .. في احدى الحجرتين سرير قديم من ذوات الاربعة اعمـدة .. يعزف لحنا جنائزيا متهدجا عندما تعلوه او تتقلب فيه او تهبط منه .. لعله يشكو من وجع في المفاصل .. لذلك فقد علم احمد فضيلة النـوم دون حراك ، وفي الحجرة الاخرى اربعة كراسي قش ونضد .. من القش ايضا ودولاب صغير للثياب احسن حالا من السرير لذلك حرص احمد على وضعه في حجرة ((الجلوس)) لان حجرة النوم ((سر حربي)) لا يطلع عليه احد .. هي كما ترى شقة لفرد واحد متوسط او دون المتوسط .

وكان احمد يتقدمها الى حجرة الجلوس وهو مكسوف من الغبـار الذي يكسو كل شيء فيها ومن الفوضى المسيطرة على جوها ، واخيرا .. لقلة اثاثها ..

وكان ضروريا – ما دام الامر سيستمر الى ما بعد العصر – ان يبدلا ثيابهما وان يتناولا طعاما .. وان يتكلما .. وان يضحكا .. على القلب احيانا واحيانا لسبب آخر او بلا سبب الا ما يتخيله ايهما في داخلـه ولا يجرؤ على مناقشته ولو في خفية من نفسه .

وعند الاصيل لبسا ثياب الخروج – وارادت هي ان ترحمه من اجر التاكسي واقترحت ركوب الاوتوبيس فوافق بعد تمنع .. وصعدا السلم وهما لا يشكان في أن هذا موعد معقول لوجود اي اسرة في بيتهـا .. ولكن القفل كان لا يزال ممسكا بزمام الباب .. واسقط في يد احمـد وغرق في ارتباك حقيقي حتى اذنيه ، وطاشت تصرفاته حتى انـه ضغط على زر الجرس ضغطا متواصلا نبه البيت كله .. وفتح الباب المجاور واطلت منه سيدة عجوز ثقيلة السمع .. يبدو من لكنتها وهيئتها انهـا يونانية او ايطالية .. وامالت رأسها نحوهم وكانها ديك يوشك ان يصيح وقالت : انهم يغادرون منزلهم عادة في مثل تلك الساعة ليتنزهوا عـلى النيل ثم يقضوا السهرة في سينما صيفية او ما اشبه ذلك ثم دخلت وأغلقت بابها ..

ولما كانا لا يستطيعان تفتيش عشرين سينما صيفية موزعة في انحاء القاهرة ولا يستطيعان الانتظار حتى الواحدة صباحا امام الباب .. فقد اقترح عليها ان يدخلا السينما وبعدها يعودان للتأكد من رفع القفل .

وفي السينما جلسا متلاصقين .. وكان الفيلم عاطفيا ملتهبا جعل احمد الطيب الوديع كالحمل يتمنى لو كان ممثلا .. واحيانا تمنى اشياء اخرى في تلك الليلة .. ولكن ضميره – كالشيخ الهرم – لا يدركه النوم الا لماما .. يسعل دائما ويزوم .. متيقظ .

وخرجا من السينما فنظرت نبيلة في عينيه بثبات وقالت :

– اسمع يا احمد .. دعني اقترح هذه المرة ايضا .. سنذهب اليهم بعد نصف الليل .

ماذا نقول لهم ؟ كيف نعلل وجودنا منفردين ؟ سنجعل من صحبتنا مدة طويلة في الخارج محلا لشكهم دون فائدة . انت تعرف النـاس والسنتهم .. وانت اخي.. سنذهب الى الشقة – واهتز كأنه قذف بحفنة ماء بارد في وجهه – ((لا تعترض.. انني لا اخاف .. في الصباح نعود اليهم ولا نخبرهم بما كان . ويضيع هذا اليوم من حسابهم ومـن حساب اخي سامي .. انه لن يسألهم في اي يوم وصلت .. هذا سؤال لا يخطر على بال)) .

وأحس بانتشاء خفيف للفكرة الجريئة التي اهتز لها قلبه حتى لقد عضد نفسه في اعتقادها انه حقيقة لا يستطيع ان يبرر وجودها عنـده حتى تلك الساعة وان هذا هو الحل الوحيد .. ولعله حاول ان يعترض لكنها كانت قد سحبته من يده فانقاد لها صادقا . وفي الشقة ترك لها الحجرة اليتيمة التي تصلح للنوم واغلقها عليها وجلس على كرسي في الحجرة الاخرى ووضع ساقيه على النضد الذي كان متهالكا فأخذ يتأرجح بهما مما احال عليه ان ينام الا لوقت قصير .. ومتقطع ..

ولاول مرة في حياته نهض من جلسته ليجد فتاة جميلة وجهها نضر وجسمها رائع وشعرها مبتل تقف امام المرآة تمشطه وهي تميل برأسهـا الى جانب في دلال الفرس الاصيل المختال .

هه .. ولبس ثيابه وتناول الافطار وصافحها مودعا – لانه ذاهب الى عمله . ولكنها اخبرته بانها ستنتظر حتى يعود لتحافظ على شكليات السفر فيوصلها بنفسه كما اوصى اخوها .. لعله ان يسألهم عمـن صحبها . لكنه بالتأكيد – لن يسأل عن يوم الوصول هل كان الجمعـة او السبت . وقضى اول ايامه في العمل بعد الاجازة مرتبكا متوتـــر الاعصاب .. دخن ثلاثين سيجارة وشرب عشرة فناجيل قهوة حتى مغصت بطنه .. وخرج على كل عاداته حتى لقد شتم عم زكي فراش المكتـب العجوز الذي يعامله الجميع كأب ! ! وقد يبدو ذلك محتملا او ممكنا الا ان حدوثه في اليوم الاول عقب الاجازة – والمفروض ان يكون يـــوم ملاطفات وتحايا وحكايات مسلية عن الاجازة – لفت اليه الانظار حتـى لقد تظرف احد زملائه فعلق على التبدل الملحوظ قائلا : ايوه يا عم .. راحة وبط وفراخ .. لمدة ثلاثة اسابيع .. واخـيرا شمس المنصورة لطشتك ... هو انت دايخ من شويه !!!

((عليك اللعنة .. كأنك تقرأ ما في نفسي .. شمس المنصـورة لطشتني بالفعل .. أليس شيئا .. يدوخ ! ! ؟))

وانتهى من عمله في الشركة قبيل العصر . وركب سيارة الشركـة العائدة الى القاهرة فتعطلت في الطريق .. نهايته .. وصل مسكنه في السادسة .. وهناك وجد نفسه في الجنة .. آنسة رشيقة انيقة معطرة جميلة .. والشقة – رغم فقرها – بسيطة ونظيفة والغذاء معد والقلل نظيفة لاول مرة ومملوءة وساقعة .. تغري بالشرب ، والمطبخ الصـغير – على غير عادته – ليس فيه ولا صرصور ولا ذبابة واحدة .

– ((الله)) هكذا افلتت من قلبه كلمة الاستحسان .. وأكلا ونـزلا سلم بيته وصعدا سلم الخالة وكنا بعد المغرب بقليل .. وكان القفل في البـاب .

وتمثلت المشكلة لاحمد على حقيقتها وعنفها في لمحة خاطفة ودارت به الارض وفقد صوابه حتى راح يصفق بعنف كالمجنون . بينما وقفت نبيلة – هذه المرة – كالغريق .. لا تدري ماذا تفعل وبمن تستنجـد ! ! وانفتح باب صغير تحت السلم واطل منه بواب هزيـل – ((مين ؟ .. مين ؟)) .

– ((البـواب ! !)) .

ونزلا مسرعين .

– ((اين اسرة الاستاذ خليل ؟)) .

قال في اهمال : ((كلهم في اسكندرية)) .

– ((اسكندرية ! ! ؟ ؟))

– ((هذا ثالث يوم لهم هناك))

قال احمد وهو يزفر من الغيظ ((ولماذا لم تقل ذلك من امس ؟)) وأمسك بذراع نبيلة في ذهول وهو يقول للبواب في سره : ((الله يخرب بيتك يا بعيد)) .

وخرجا الى الطريق .. وسكتت نبيلة هذه المرة .. انها لا تستطيع ان تقترح شيئا ان الحل يفرض نفسه .. ستنتظر هذه الليلة ايضا .. ماذا يحدث بعد ذلك ؟ ماذا تقول لاخيها وكيف تبرر بقاءها امس ؟ .. ثم الى اين تذهب غدا ؟ ..

ووجد احمد نفسه في دوامة عنيفة ليس امامه الا ان يؤويها هذه الليلة ايضا والامر لله .. ومن الفجر تسافر الى اسكندرية فتنضم الى اسرة الخالة .. وهناك ربنا يحلها .. تعرف شغلها .. انها السبب .

ووافقت نبيلة وهي تحس بالمتاعب التي خلقتها لصاحبنـا . ولم يتحدثا هذه الليلة وان كانت تصرفاتهما قد فقدت ((الحرج)) الذي كانت تتسم به من قبل .. فقد مد احمد ساقيه امامها في وضع مريـــح ! ! واخذت هي تنشر ضفائرها لتغسل شعرها غير منتبهة لنظراته المحرومة التي يرسلها ويستردها كومض البرق .

وعند النوم بدأ احمد يستعد لمغادرة الحجرة ولكنها نظرت في عينيه بتمعن قائلة :

ـ « اسمح لي ان اقترح عليك للمرة الاخيرة .. انت اخي .. انني اغتصب راحتك .. هذا شيء غير لائق .

وهمس لنفسه « ماذا تريد ان تقول ؟ » . ونهض ليقوم قائلا : «لكن ذلك هو الحل الوحيد »

ـ « مطلقا .. لقد تبين لي انه ليس في البيت مكان يصلح للنوم غير هذا السرير وسننام فيه ! !

ـ « معا في السرير ! ؟ ماذا تقولين ؟ »

ـ « اقول انني اعذبك بتركك جالسا على كرسي طول الليل .. هذا حرام .. تعذيب .. سأنام واغطي باللحاف وتنام انت بدون غطاء ! ! شيء خير من لا شيء .. ولن يلامس جسمك جسمي .. هذا كل ما في الامر » .

ـ « لا استطيع .. هذا غير ممكن » .

ـ « انه ممكن وسترى . وان لم تفعل فسأنام انا على الكرسي وادع لك سريرك » . ونظر اليها في استخذاء كأنه تساومها على شيء محرج .. لكنه وجد وجهها مكتسيا باصرار بعيد عن هذه الفكرة تماما .. فاطاع صامتا .

والتفت هي في اللحاف . واستلقى الى جانبها مديرا لها ظهره وهو يفكر في كيفية حل مشكلتها في الصباح .. لكنه يعود فيفكر في امور يتمنى من اجلها لو لم يشرق الصباح ! ! ! وينهض ضميره متثاقلا هذه المرة .. لكنه ـ ضميره ـ لا يقوى على الاعتراض .

ولا يقترب النوم من عينيه .. ويتقلب طول الليل وينظر اليها من زاوية فيجدها قد استلقت في نومة حالمة . واهدابها الطويلة متعانقة .. وانفاسها تصعد هادئة .. دافئة .. تفري . « هيه يا احمد » .

وتقلبت هي في رقدتها فالقت بذراع طرية ساخنة على صدره سريعا ما انزلقت حتى التفت حول عنقه وكأنها توشك ان تعانقه! ! وأحس بالاختناق .. بانفاسه ثقيلة متقطعة كأنه يجذبها من اعماق بئر .. لكنه ظل متصلبا لا يتحرك .

هل تصدق كلمة اخيها .. سامي : ان كل انسان يولد بضميره لكن لبعضنا القدرة على تخديره .. عليه اللعنة .. سامي .. وهل انا الذي اخدر ضميري الان !؟ انها اخته .. هي التي صرعته برصاصة من ... آه .

وتحركت مرة اخرى فرفعت ذراعها فاخذ يتحسس مكانها الدافيء على عنقه في تحسر .. ان ضميره لا يطاوعه على ان يتصنع حركة مثل هذه وهو مستيقظ . ولو حدث مثلها وهو نائم فانها ستخلو من اللذة تماما ! ! .

وأحس بتثلج قدميه . وحاول ان يبعد عن خاطره فكرة دسهما تحت اللحاف . ولكن برد الدنيا كلها قد تجمع فيهما . واصبح الحل الوحيد لانقاذهما من الشلل هو ان يضعهما تحت اللحاف ..

وتسلل بهما في رفق حتى لامسا قدميها الصغيرتين الناعمتين فتلذذ بدفئها وطراوتها .. وتمنى لو يتم ذلك على نطاق اوسع قليلا ! ! بمعنى .. ان تلامس ساقه ساقها !! وكان هذا الخاطر كافيا لان يجذب قدميه ويعيدهما الى البرد متحديا . وادار لها ظهره مرة اخرى .. وسمع أذان الفجر ففكر كيف يستطيع ان يذهب الى عمله غدا .. و .. راح في النوم ..

وتنبه على لحن نشرة اخبار الصباح اتيا من راديو الجيران . ووجد الضوء يغمر الحجرة متسللا من زجاج الباب .. ووجد نبيلة مستلقية على ظهرها وذراعه هو مستلقية في دعة بين نهديها ... تماما ..

واحس بخدر لطيف يسرى في جسمه كله . وبنعومة ذلك المنخفض وما يعمر به من عطر وبضاضة ودفء.. رغم وجود الثياب حائلا بين البشرتين ...

واراد ضميره ان ينهض لكن تعليلا مقبولا كان جاهز ومعدا ... لو انني جذبت يدي فانها ستستيقظ وتفهم انني عرفت ان يدي كانت في ذلك الموضع فيدركها الحرج .. اما الان فهي تعتقدني نائما لا احس ما افعل .. سأتركها تستيقظ هي اولا فتزيل يدي وتنهض وتظن انني لا اعرف شيئا .

ونظر اليها من زاوية وخيل اليه ان اهدابها الطويلة المتعانقة .. تتحرك .. وانها ستفتح عينيها .. لكنه كان عاجزا تماما عن رفع يده.. كأن ذراعه خلت من الاعصاب .. الا ان طرقا شديدا على الباب جعله يقفز من فراشه مذعورا واتجه اليه من فوره وفتح ..

ـ سامي !!!

ـ نعم سامي .. عجيب ان اوجد في القاهرة اليوم !! المسألة في غاية البساطة ، واتخذ طريقه لحجرة الجلوس .. وكان باب الحجرة الاخرى مواربا .

ـ ا.. أ.. اختك هنا ... نائمة

ورشقه بنظرة مغيظة : « اعرف ذلك »

وجلسا وجها لوجه .

ـ لقد بعثت الى الشركة برسالة تستدعيني فورا للعمل . فعدت الى اسكندرية فوجدت خالتي قد احتلت هي واولادها ـ بيتي من خمسة أيام ... في الوقت الذي لم تعد فيه نبيلة الى المنصورة ولم تذهب اليهم في اسكندرية من امس الاول .. فعرفت انها .. عندك

واحس احمد بانه يسير في ظلام لا نهاية له .. فقال في استخذاء :

ـ سامي .. هل تشك في صديقك ؟..

انه لا يملك دليلا .. فلا مناص من استجداء البراءة .

ـ « انا » .. محال .. انا لا اشك فيك مطلقا .

ولكن نظرات سامي ولهجته كانت تشككان احمد فيما يسمع . وعرفت نبيلة صوت اخيها فاقبلت من حجرة النوم حافية منفوشة الشعر لحد ما .. وانتقلت عيني احمد من وجه نبيلة الى عيني سامي ليرى وقع ذلك على نفسه .. فرأى عضلات وجه صديقه واسنانه تتضاغط حتى وضحت تقاسيم فكه من الخارج ـ بينما تطلق عيناه شررا .. وران صمت

كالذي يسبق انفجارا مروعا ..

ــ ما الذي اخرك حتى الان يا نبيلة ؟

قالها سامي ويده تهتز في تشنج وكانه يستجمع كل قوته فيهــا ليصبها صفعة قاتلة على وجه اخته ..

وحاولت نبيلة ان تهرب من عيني اخيها القاسيتين .. وان تبحث عن اجابة ..

ــ انا ...

كان قلب احمد يتمزق . والموقف الحرج يضغط على عنقه وصدره فيسحقه ويشل تفكيره معا .. لكنه ... يجب ان يقول شيئا .. اي شيء اليس هو قطب المشكلة .. والسبب في تضخمها !! اذن عليه ان يتحدث انه طيب .. ولكنه يستطيع ان يتحدث ان يدافع عن نفسه وعنها ... تلك المظلومة ..

ــ سامي .. لا داعي لهذا الحديث الان ..

ــ بل مكانه وزمانه .. الان هنا ..

ــ «ان مناقشة هذا الامر في ثورة الاعصاب لن تصل بنا الى الحقيقة..

طبعا انت استاذنت من الشركة اليوم .. تعال معي اذن لتتفــرج على مصانع الحديد والصلب ساحكي لك عن كل ما حدث .. كــل شيء .. ستقضي في الشركة يوما ممتعا .. لحسن حظك سنشــعل اليوم فرنا جديدا .. اضخم فرن للصهر في الشرق الاوسط .. سيظل مشتعلا بصفة مستمرة مدة خمس سنوات !! تصور ؟؟ ساحكى لك .. بامانة كل شيء » .. وركبا سيارة الشركة من ميدان التحرير وفي الطريق كان سامي ساكتا . وكان سكوته يغيظ احمد لان فيه معنى الاتهام ... واذا تكلم نضحت كلماته بالشك والغيظ .. الحبيس .. وسامي معذور ... ان اي انسان محايد لا يملك الا ان يتهمهما معا ولا يقف عند مجرد الشك .. ليلتبن على انفراد !.. سيعيش احمد .. ونبيلة ايضا هدفا للاتهام طول حياتهما نتيجة لهذا المأزق ... سيحكى احمد لصديقه كل شيء بامانة لكن هل يصدقه ؟؟!

ومال احمد على صديقه :

ــ سامي .. عندي كلمة ..

ــ هل تقبلني زوجا لاختك ؟

وشمل سامي صديقه بنظرة من تاكد من شيء .. كان متاكـدا منه .. اه .. ان احمد يتستر بالزواج على شيء ما قد فعله .. وسنعرف ذلك بوضوح من الموعـد الذي يحدده للزواج .

ــ ولم لا يا صديقي .. انت خير من يتزوجها.. وهي ايضــا تستحقك .

اشكرك .. انت صديق عزيز ونؤكد هذه الصداقة بالمصاهرة ... وانت تعرفني

ــ لا اعتراض لي عليك .. انت تعرف معزتك عندي .. لكني لا استطيع ان اعطيــك وعــدا بموافقــة نهائية حتى تؤخذ اراء باقي الاسرة .. ولا استطيع ان اقطع بوقت معين لذلك .

وفهم احمد مرمى الحديث .. لكنه سيثبت له براءتها وبراءته .

ــ افضل ان تفاتحهم فور عودتك واخطبها هذا الاسبوع .. وهـذه مدة معقولة .. وان نكمل الامر العام القادم .. مثلا في الاجازة القادمة .. حتى استعد .. انت تعرف مرتبي طبعا .

ــ كمــا تشــاء

وراى احمد نظرة الشك تذوب من عيني صديقه لكنها لا تنمحي نهائيا ... وايضا .. فقد ظل يعاني وقع كلماته الاولى فقال في نفسه :

« عليه اللعنة .. انه لا زال يظـن ان في الامر شيئا .. مع انهـا مسالة ضمير لا اكثر .. لو كانت اختي فما كنت اقبل نهاية لهذه المشكلة الا الزواج .. لا اريد ان اتخلى عنهـا في موقف كهذا وليس لها ذنب.. ثم .. انني ساتزوجها .. تلك الجميلة المنصورية .. ســاصير زوجا .. عليه اللعنة .. سامي .. ان هذا الحبل الذي بامتداده تمتد الحياة قد تعقد عنده . لكنه وجد الحل باهون سبب عندي ...

القاهرة — محمد حسن عبدالله

فارس الكلام ...

لو كنتُ فارسا وانتِ يا حبيبتي اميره
لكنتُ احمل القمر
ليرتمي بصدرك الجميل يا اميرتي صغيره
رفعت صدرك الجميل للسما
النجم جاء واشتكى قد غار من جمالك
عقدت فرحتي بطرف شالك
دعيه فوق صدرك الجميل نائمــا
.. حبيبتي غنى الشجر
فهل سمعت يا حبيبتي غناءه ؟
بل انت من يردد الغناء .. ها هو الشجر
يصغي اليك .. يجعل الغناء يا جميلتي سماءه
جميلتي :
يا غلتي التي غرستها القت علي ظلها
ملأت كفي من ثمارك
اطعمت قلبي مرتين يا حبيبتي
الشمس اشرقت على نهارك
والبدر في المساء وجهه اختنق
لما طلعت في الافق
يا نجمتي :
تعلقي على شعارى
وضوئي بالحب لي جدارى
او فارتمي بشرفتي
فربما اكون تحتها جيدتي
كفارسي وانت يا جميلتي اميره
واليوم يا اميرتي : احببت ان اكون فارسا اتى اليك من مشارف الجزيره
واحمل الكنوز في يدي
فاليوم عيدك الذي احبه ولست يا حبيبتي اعيش فارسا
بل انني اعيش شاعرا بضاعتي الكلام
ولست فارسا اتى اليك بالهدايا والكنوز انصب الخيام
وجئت يا حبيبتي : حصاني الاوزان والقوافي
وفي جزيرة الخيال يا صديقتي طوافي
خلف الضلوع لي غرام
كتبت منه هذه القصيده
وصرت فارس الكلام
وجئت يا يمامتي حملت هذه القصيده
هديه صغيره
لطفلتي الاميره
واليوم عيدك الذي احبه فهل ستقبل الاميره
هديتي ؟!

القاهرة — مجاهد عبد المنعم مجاهد



الخبز مع الكرامة

بقلم يوسف عبدالله صائغ
منشورات دار الطليعة ـ بيروت

تعج الفترة الحالية من تاريخنا بتطورات كثيرة ، تعود في اصولها الى سببين متفاعلين ، احدهما سبب حديث وظاهرة عصرية ، والآخر سبب قديم ، وظاهرة انسانية .

فاما السبب القديم فهو رغبة الانسان في تنظيم مجتمعه تنظيما يؤمن اكثر الخير ، ويجسد اعظم الفضائل التي يؤمن بها المجتمع . ولعل اول التعبيرات العظيمة عن هذا الامل الانساني الكبير هو جمهورية افلاطون ، التي لا يستطيع مفكر مجتمعي ، منذ وضعت ، ان يتجاهلها .

واما السبب الثاني الحديث ، فهو العلم وتوأمه التقنولوجيا . فالعلم الحديث ادخل ثورة الى عالم الانتاج ، تقوم على ركيزتين ، اولاهما الالة العاملة بمصادرة الطاقة اللابشرية والقادرة على اداء العمليات التكرارية بدقة وسرعة ، وثانيهما الاسلوب الانتاجي القائم على اختصاص كل عامل بأداء وظيفة صغيرة ، ضمن اطار من الادارة المنظمة والتصنيف المرتبي لفئات العمال . وتبين ارتباط هذا الاسلوب الجديد بالامل القديم في التنظيم المجتمعي الفاضل ، عندما اتضح ان اسلوب الانتاج ، يتضمن انشاء مؤسسات جديدة ، ربط الناس بها برباط وثيق ، وعندما عرف الناس ان عمل الانسان في الانتاج نفسه يستوعب القسم الاكبر من حياته الواعية فلا بد له اذن ان يؤثر في عقليته وتكوينه . وزادت حدة الارتباط عندما شعر الانسان بما يستطيع اسلوب الانتاج الجديد ان يحدثه من زيادة في الثروة ، ووفرة في السلع والخدمات الاستهلاكية ، وعندما ادرك في الوقت نفسه ان خيرات هذا الاسلوب الجديد قابلة للتوزيع الحسن والتوزيع السيء .

كان الانسان المفكر قبل عصر العلم والتقنية الحديثة ، يتصور انه ربما استطاع توفير السعادة للبشر ، باعادة تنظيم المجتمع . فكانت الفردوسيات العظيمة من افلاطون ، الى الفارابي ، فسير توماس مور ، حتى الاشتراكيين الفردوسيين من امثال أون وسان سيمون وفورييه . ولكنه كان يصطدم دائما بعقبة الواقع السابق لعصر العلم او المعاصر لاوائل تطبيقاته .

وهذا الواقع يتكون من عنصرين : ندرة الموارد الاقتصادية ، بحيث انه مهما حسن توزيعها ، فسيبقى الفقر فقرا . اما العنصر الثاني فهو اعتماد الانسان الاوحد او الاول على طاقة عضلاته في سبيل الانتاج . وظلت الانظمة المجتمعية كلها طوال القرون الماضية تلف ضمن هذين الحدين ولا تتخطاهما . ويمكن ارجاع كل المظاهر الجائرة في تلك الانظمة اليهما او الى احدهما .

وجاء العلم يغزو عالم الطاقة اللابشرية ، ويغزو عالم الندرة ، فجاشت الآمال ، ولاحت التوقعات البراقة ، واخذت المشاكل الاجتماعية تبدو متفاعلة ضمن مزيج من النسج الفكرية القديمة ، والواقع الحالي ـ بما يحتويه قبل التصنيع وفي اوائله من جور وشقاء ـ والامل العظيم للمستقبل . ولم يستطع عصرنا بعد ان يميز تماما بين الامكانات التي فتحها العلم ، والامكانات التي قد يفتحها التنظيم المجتمعي . ولما كان ايضا عصر السرعة الهائلة في المجال الطبيعي ، فانه لم يستطع ان يوازن بعد بين سرعة الحركة ، في الاكتشاف ، والعلم ، والحركة ، وبين سرعة التطور الاجتماعي. وطبيعي ان يكون في الواقع من أقل العصور اصطبارا، ومن اسرعها الى البرم والضجر والحركة .

ولا بد لهذا الواقع كله ان ينعكس فينا ـ مجتمعا وافرادا . ولعل اسئلة صعبة ثلاثة تراود اليوم مجتمعنا وتهزه بعنف :

هل سنقبل العلم وتوأمه التقنولوجيا بدون تحفظ ؟

هل سنهيىء للعلم والتقنولوجيا كامل الفرصة للسيطرة على جميع نواحي حياتنا ؟

هل نستطيع ان نسيطر على مقاومة القديم ، واندفاع آمال المستقبل ـ وكثيرا ما يتحد تشبث القديم وانطلاق المستقبل ضد الحاضر ـ لنتم هذا التغير بأقل ما يمكن من الالم ؟

اننا على العموم نتابع هذه العمليات كلها باسلوب الاقتباس ، وتقبل القريب من متناولنا ـ عمليا وذهنيا . ومن هنا ما زلنا في دور تصارع الشعارات الخارجية ، التي كثيرا ما تكون مجرد ستار لتصارع خارجي لا علاقة لها بآمالنا او واقعنا .

ولقد كانت مساهمة المفكر العربي في هذا الصراع محدودة ، ومعظمها ايضا يدخل في باب الاقتباس . وان اقدام الدكتور يوسف صائغ على اثارة هذا الموضوع بمثل هذا الجد والتجرد والاستقلال في الرأي لعمل يستحق عليه تقديرا عظيما . ونعتقد ان الدكتور صائغ وضع يده في كتابه « الخبز مع الكرامة » على جميع المخاطر والعلل المهمة ، التي تواجه المجتمع العربي اليوم ، وقدم لها الاقتراحات « العقلانية » .

والزاوية التي ينظر الدكتور صائغ منها الى موضوعه هي زاوية باحث الاقتصاد المؤمن بمستقبل أمته وكرامتها ومن هنا فهو يجمع بين الامل في اعادة التنظيم المجتمعي وبين معرفة موقع التقنولوجيا العصرية واثرها في هذا المجال . وان معرفته الدقيقة بالناحية الاقتصادية الفنية من الموضوع ، لتجعله قادرا على غربلة الكثير من الشعارات المبسطة الجياشة . وهو يعتقد بالاشتراكية اسلوبا للتنظيم الاقتصادي والمجتمعي، ولكنه يدرك تماما ان الاشتراكية قد تعني اشياء كثيرة ، بينها ما هو وارد ومعقول ، وبينها ما يحتاج الى كثير من الحساب والنقاش . ولذلك فقد حدد اشتراكيته تحديدا واضحا . ويظهر لنا من تحديده انه لا

يريدها اشتراكية مذهبية ، بل اشتراكية تجريبية . والفرق بين هذين الطرزين من الاشتراكية كبير . فأولهما مستعد للتضحية بجيل كامل او اكثر في سبيل تحقيق مذهب ، دونما نظر لما يتضمنه ذلك من الشقاء الانساني ، ليكتشف في نهاية المطاف انه كان قادرا على الوصول الى حيث وصل بدون هذا الشقاء كله . وهذا ما فعله ستالين واكتشفته روسيا من بعده . وثانيها يقر بأن الاشتراكية انما هي لخدمة الانسان وليس العكس . ومن هنا يصر الاستاذ الصائغ على ان يجري السعي للاشتراكية ضمن اطار من « التراضي والطوعية لا عن طريق صراع الطبقات » . ثم يرفض أن تلف الاشتراكية نفسها كل الحياة ويرى ان لها حدودا يجب تعيينها ، وانها اذا كانت تعني قيام الدولة بالقسط الاهم من الحياة الاقتصادية فلا تعني ابدا تصفية كل جهد فردي وكل نشاط خاص .

وتلك في اعتقادي أهم مستلزمات هذه اللحظة ، كما اثبتت احداث الوطن العربي كله عام ١٩٦١ بما لا يقبل شكا . ويريدها اخيرا اشتراكية تنمو ضمن مفهوم الحرية والمشاركة والديموقراطية الصحيحة .

واذا كنا نريد اشتراكية عربية ، فيجب ان تكون بالضرورة عربية ، اي شاملة ، ولا يمكن وجود اشتراكيات عربية محلية منوعة ، مهما كانت اسماؤها . ومن هنا كان تبينه الواضح للحاجة الى الوحدة وعدم التفتيت .

انني اعتقد بان هذه النقاط تمثل بدقة وأمانة التفكير العربي الواعي في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا . فهي لا تتضمن تحفظا من ناحية الاهداف النهائية ، ولكنها تدرك جيدا اخطار التسرع ، مهما كانت دوافعه مثالية وعظيمة . كما تريد ، بان يتم التغير كله ضمن اطار من الكرامة ، لكل الافراد ، وتعتقد بامكان ذلك .

ان من اجمل ما قيل في وصف هذه المرحلة من تاريخنا قول أدلى به الرئيس جمال عبد الناصر لمراسل احدى الصحف الالمانية ، وذكر فيه اننا نعيش في عصر طوفان من الاماني ، وان الطوفان قادر على ان يخرب، مقدرته على أن يكون مصدرا للحياة ، وان اكثر ما نحتاجه الآن هو بناء السدود التي تختزن امانينا ، مثلما تختزن السدود مياه فيضان النهر . وستنطلق هذه الاماني من ثم على الارض الطيبة التي تنتظرها لتستنبت منها الخير العميم .

برهان الدجاني

حارة الطيب

رواية تأليف محمد جلال

يبدو أن العام الجديد ، عام ١٩٦٢ ، يبشر بانتاج غزير في الحقل الادبي ، فقد ظهرت ـ في وقت واحد ـ كتب عديدة متزاحمة ، منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ مسرحية « الراهب » للدكتور لويس عوض ، ومجموعة قصص « الاستاذ في الحارة » للقصصي الشاب محمد سالم، وكتاب « الاحلام » لمصطفى محمود ، ورواية « حارة الطيب » لمحمد جلال ، وهي موضوع الدراسة التالية :

✶

انها رواية يدخل بها محمد جلال ميدان الفن الروائي ، أما نشاطه المعروف عنه فهو الصحافة ، اذ يعمل صحافيا بمجلة الاذاعة . وروايته الحالية ليست وليدة الساعة ، وانما استمر يعمل فيها ، ويدونها وينقحها لفترة طويلة . ثم خرجت الى النور مع طلائع العام الجديد ، فما هي طبيعة هذه الرواية ؟

يحدث أحيانا أن يتدخل عنوان الكتاب في تحديد موقف القارىء او الناقد منه ، فالعنوان يعده بشيء ـ أو هذا ما يتصوره القارىء أو الناقد ـ فيشرع في القراءة على هذا الاساس . وقد تكون للعنوان ايحاءات عاطفية ، انفعالية ، فيقع القارىء تحت تأثيرها ، ويتتبع السطور تحت هذا التأثير .

وأعترف أنني تعرضت لهذه التجربة ، أو « الحالة » وأنا أقرأ عنوان الرواية ! من المؤكد أن البطل في هذه الرواية هو حارة الطيب نفسها ، الاهل الذين يعيشون فيها .. المهم .. دون اغفال لابن من ابنائها . وازددت اقتناعا بهذا الخاطر وأنا أطالع الاهداء الذي كتبه المؤلف : « اهداء . الى .. النماذج البشرية في حارة الطيب » . وبهذا تحدد موقفي من الكتاب ، وقدرت الاشياء التي يصح لي أن أتوقعها من صفحاته ، وصار من حقي أن أحكم على هذا العمل على ضوء نجاح المؤلف في تحقق الهدف الذي كان يرمي اليه ، أو عدم نجاحه .

وشيئا فشيئا صار من الواضح أن حارة الطيب ، بنماذجها البشرية ، لا تلعب دور البطل في هذه الرواية ، ان البطل الذي يدور حوله محور الرواية ، بل وتلتف حوله النماذج البشرية التي تقطن حارة الطيب شاب اسمه : رفعت مخلص .

ليس هناك من ينكر أن رفعت مخلص احد سكان حارة الطيب ، وان من حقه ان يظهر ويبرز ويعبر عنها ، غير انه يحتل خشبة المسرح طوال الوقت ، ليصبح دور الحارة دور الديكور الذي يحتل مؤخرة المسرح ، وليصبح دور السكان دور الكورس في مسرحية رفعت مخلص .

فمن هو رفعت مخلص ؟ انه شاب مرهف يعشق القراءة والكتابة ، ويكافح ـ في نفس الوقت ـ في سبيل لقمة العيش التي تقتسمها معه أمه الطيبة وأخته اللطيفة عفت ، فهو الابن والشقيق والعائل في وقت واحد . واذا كان هناك ما يميز هذا الشاب عن كثيرين غيره فهو أنه يحتضن عدة مبادىء جادة يعتز بها ويحنو عليها ، وهو يتحمس لهذه المبادىء بشدة ، وهو أيضا على استعداد للتضحية بالكثير من أجلها . وأمله الكبير ، في الحياة ، أن يصبح أديبا كبيرا له مبادىء سليمة ، وأن يخدم مجتمعه الصغير الذي يعيش في حارة الطيب ، ومجتمعه الكبير الذي يعيش خارجها .

ورفعت مخلص ، الكاتب الشاب الناشىء ، يؤلف مسرحية طويلة اسمها « ثورة العمالقة » . والمسرحية تدور حول ابنة اقطاعي تحب أحد الفلاحين الذين يحتكرهم هذا الاقطاعي . وحبيبها الفقير من المتمردين الذين لا يرضيهم الظلم الواقع عليهم . ويجن جنون الاقطاعي ، ويصعق حين يعلم بنبأ العلاقة القائمة بين ابنته وهذا المتمرد . ويكون الامتحان ! هل تطيع الابنة نداء الاب ولا تبدي نحوه عقوقا أليما ؟ أم تطيع صوت الحب ، ذلك الحب الذي يتسلح هنا بمبادىء سامية تطالب بتحقيق العدالة والمساواة ؟ ولا تتردد الفتاة كثيرا ، انها تواجه والدها وتنتصر عليه ، وتهرع الى حبها وحبيبها .

نحن هنا أمام ظاهرة فريدة ... اريد أن اقول : نحن هنا أمام عمل فني « ثورة العمالقة » داخل عمل فني آخر « حارة الطيب » . والشيء الفريد هنا أن بين العملين ارتباطا في الموضوع والايقاع ، وكأن الاول رمز للعمل الاكبر : « حارة الطيب » . فبطل « حارة الطيب » يكافح من اجل مبادئه مثلما يكافح بطل « ثورة العمالقة » ، وهو فقير ، مثل فلاح « ثورة العمالقة » ، والاثنان يحبان ، وحبيبة الفلاح المتمرد تقف بجانبه وتتمرد على أبيها ، وحبيبة رفعت مخلص تقف بجانبه وتتمرد على عمها ، لان أباها في الدار الآخرة .

نعود الى « ثورة العمالقة » التي الفها بطلنا الشاب رفعت مخلص . كيف تجد طريقها الى النور ؟ كيف تتجسد على خشبة المسرح ومؤلفها كاتب ناشىء ؟ وأي هو من الاسماء الكبيرة التي تحتل مقالاتها الصفحات الاولى في الجرائد والمجلات ، ويكتب اسمها ، في المسارح ، بأضواء النيون ؟

وهنا يلتقي القارىء بصفحات جميلة ، جريئة ، جد خطيرة . ذلك انها تعرض للمهازل التي تتكرر في حقل الادب والفن من يوم لآخر . وأبطال هذه المهازل معروفون : أسماء رنانة استطاعت ان تفرض نفسها في السوق ، بل واستطاعت أن تحتكر هذه السوق ـ اسماء رنانة تحقد وتنافق وتسخر ، والشيء المؤلم أن لكلماتها وزنا ، بصرف النظر عن

دسامة هذه الكلمات أو تفاهتها . وبعض الاسماء اللامعة يعيش في جو الصداقات والمجاملات ، فيصفق لنجمة محبوبة ويظل يثني عليها ويجند لها صفحاته .

ثم لا يقف الامر عند هذا الحد، هناك أسماء رنانة « نفسها حلوة »، لا مانع لديها من وضع توقيعها على كتابات الادباء الصغار !!!!

شيرين فهمي ، الكاتب المليونير ، وصاحب دار النشر، ومدير ورئيس تحرير جريدة الساعة ، شيرين فهمي هذا يسرق رفعت مخلص ، يسرق مسرحيته ويضع اسمه عليها ويحاول اغراء رفعت بالمال ، وبوظيفة ناعمة في دار النشر ، مقابل ان يفكر رفعت مخلص لشيرين فهمي ! مقابل ان يسكت ويظل يكتب له هو .

ألست معي ، أيها القارىء ، في أن الرواية هي رواية رفعت مخلص، وكفاحه في سبيل فنه ومبادئه ، قبل أن تكون رواية سكان حارة الطيب ؟

يتمرد رفعت مخلص على هذه النزعة الاقطاعية في حقل الثقافة المقدس ، ويبدو منه أنه سيعلن الحقيقة ويفضح شيرين فهمي . ولكن شيرين فهمي يستغل نفوذه ويدبر له مؤامرة مفتعلة ، يتهم فيها رفعت مخلص بالنصب والاحتيال وتزوير أوراق ومستندات . وينجو رفعت مخلص في النهاية على يد أبناء حارة الطيب ، وتثبت براءته ، ويرتفع صوت الحق عاليا .

*

هذا ملخص موجز ــ للغاية ــ لاحداث الرواية . وهو ملخص يكاد يغمطها حقها ، ذلك انه يقف عند المعالم البارزة جدا ويترك بقية المعالم للقارىء الذي سيطالع الرواية كاملة . ومن المعالم التي أغفلها الملخص قصة الحب الذي ترعرع بين رفعت مخلص وسوسن ، ابنة شقيق شيرين فهمي. وما دمنا قد أشرنا الى سوسن فلماذا لا نستعرض دائرة الاشخاص الذين يتحرك رفعت في نطاقهم ؟ هناك سوسن حبيبته ، وعفت شقيقته ، وامه الست اعتدال . فاذا خرجنا من الدائرة الخاصة الى الدائرة التي تليها مباشرة وجدنا سكان حارة الطيب . وهنا تتردد أسماء علي افندي شلش ، عم زكي ، الاسطي عبد الحي ، صلاح عبد الحميد ، ابراهيم افندي ، المؤذن الشيخ محسن اسماعيل ، الحاج دعبس ، أم زينب ، الحاجة نبوية واختها نفيسة ... الخ ... الخ ... أما الدائرة الثالثة، الاكثر رحابة ، فتمثل العالم الخارجي بكل ما فيه من خير وشر . وفي هذه الدائرة الثالثة يتحرك شيرين فهمي وابنه المدلل منير (وان كنا لم نره اطلاقا في الرواية) ، الممثلة المشهورة شريفة التي تمثل دور البطولة في مسرحية « ثورة العمالقة » (والتي أجاد المؤلف رسمها) ، وعثمان الكبير الشاب الجاد الذي ينقد في صفحة الفن ويعبر عن رأيه دون مواربة أو مجاملة ، فيرفته شيرين فهمي لانه لا يخضع لسياسة الجريدة في المجاملة والمحاباة . كما نلتقي أيضا بالكاتب القصصي عبد التواب الغندور الذي بدأ كاتبا موهوبا ذا مبادىء ثم باع قلمه وارتاح الى المال الوفير الذي يدفىء جيبه ويدفع له أقساط الفريجيدير والعربة والبوتاجاز .

*

والنغمة التي تشيع في سطور الرواية بأكملها هي نغمة التمرد والسخط ، وهو تمرد يصدر عن عقول ناقدة ــ لا حاقدة ــ عقول لا يرضيها ما تراه . والمتمرد لا يجد الطريق ممهدا أما بطبيعة الحال . ان هناك من يقاومه . بل ان الامر لا يقف عند هذا الحد، ان المقاومة قد تدور داخل المتمرد نفسه . وقد عرض المؤلف كثيرا لهذا النوع من المقاومة . فبطلة مسرحية « ثورة العبيد » موزعة النفس بادىء الامر بين واجب الطاعة لابيها الاقطاعي ، وصوت حبيبها الذي يكافح من أجل مبادىء شريفة ، ويحب الفتاة الحب كله . وسوسن حبيبة الكاتب الشاب رفعت مخلص تتابع سطور هذه المسرحية وتعيش هذا الصراع في أعماقها، ثم تقف الى جانب البطلة في تمردها . ورفعت مخلص نفسه يمر ــ في لحظات تمرده ــ بصراع داخلي ، قوة تريده أن يستسلم ويخضع للمقدور، وقوة تريده ألا يسكت ، وأن يقاوم . غير أن هذه الشخصيات كلها تنتصر للجانب المضيء ، وتعطي لتمردها معنى .

وهو صراع أيضا بين الآباء والابناء . وأحب أن أقول ان نغمة الابوة والامومة والبنوة تتردد كثيرا في هذه الرواية ، وهي تتردد في هدوء وخفوت لان اللحن الاساسي يطغي ــ في الموسيقى ــ على ما عداه من ألحان . ان هناك صراعا بين مها الابنة والاقطاعي الاب ، وسوسن الفتاة المرهفة التي تحب رفعت تثور على شيرين فهمي ، عمها ــ أي والدها . والاديب رفعت نفسه يتمرد على أمه الطيبة في اللحظات التي تستسلم فيها أكثر من اللازم . كان رفعت يطيع أمه ، بل ويعبدها ، ولكنه بدأ ــ في قمة الصراع مع العالم الخارجي ــ يشك في جدوى الاستسلام والصبر والابتعاد عن بطش الظالمين ، وكلها اتجاهات تمثلها أمه . هنا يبدأ الصراع ــ وان متأخرا :

« ولكن هل يوافق أمه ويستسلم لمصيره ؟

هل يخضع لارادة الثلاثي المتآمر : شريفة وشيرين والغندور ؟

هل يقول هذا قدر مكتوب .. ويتنازل عن مسرحيته ويندب حظه شأن المستسلمين ؟

وشعر ، لاول مرة في حياته ، بأنه يختلف مع أمه .. بل يختلف معها اختلافا جذريا .. فأمه تريد منه أن يستسلم .. وهو يريد أن يقاوم .. (ص ١٠٩) .

ولا يمكن أن نقول عن هذا النوع من الصراع أنه مجرد صراع بين الآباء والابناء ، والا لبطل معناه الكبير ودلالته العميقة . ان الصراع بين الآباء والابناء هو في الحقيقة صراع بين القديم والجديد ، صراع بين جيل يتمسك بأشياء ربما صلحت للامس ولكنها لا تصلح لليوم ، وجيل يتشبث بمبادىء اليوم ويرنو الى الغد ، جيل يضحي بمبدأ الطاعة من أجل أن يثور ويعبر عن مبادئه .

والحديث عن الصراع بين الآباء والابناء يجعلني أقف عند شخصية الام قليلا . لقد نجح محمد جلال في تصويرها نجاحا تاما . وهي من الشخصيات التي تأخذ بلب القارىء طوال بقائه مع صفحات الرواية .

ان سر نجاح هذه الشخصية انها مرسومة بدقة ـ ببساطة ـ بوضوح . والغريب ، بعد هذا كله ، انها لا تشغل صفحات كثيرة من الرواية . ربما كان هذا هو سر نجاح شخصية الام . انها لا تتطفل على أحداث الرواية، وانما تؤدي دورها من حين لآخر . ونحن ننتبه الى وجودها عندما نسمع كلماتها ، تلك الكلمات التي نألفها من كل أم طيبة :

« .... يا عفت .. يا عفت !

..... الله ... انت جيت !

. . . .

طيب واقفين كده ليه .. ما تطلعوا تقعدوا عندي شويه .. انتم سايبني لوحدي .. » (ص ٧١) .

وأكاد أقول انها ـ من حيث رسمها وتصوير معالمها ـ أنجح من شخصية سوسن على سبيل المثال (أخشى أن أكون قد غاليت أو تجنيت قليلا) . وهذا يثير قضية خطيرة في عملية الخلق الفني . أن المؤلف ، او بطل الرواية،متحمس جدا لشخصية سوسن * ، بل هو يعيش وجودهما بقلبه ، بوجدانه. ومن أجل هذا يتناولها بحماس . ولكن ، يبدو أن عملية الابداع لا تقبل الحماس الزائد لخطة التدوين . ان الفنان يتحمس لموضوعه ، هذا أمر مسلم به ، ويثيره هذا الموضوع ويدفعه الى الكتابة دفعا ، غير أنه حين يشرع في الكتابة بالفعل يحاول ترتيب أفكاره ، واسترجاع نقاط موضوعه . أي أنه يسجل في شيء من هدوء ، واستقرار . ان هذا يذكرنا بما قاله أحد الشعراء والنقاد الانجليز حين تحدث عن « العواصف التي يتم استرجاعها بهدوء وطمأنينة » .

وعفت ، أخت الكاتب ، مرسومة بنجاح ، وان جاء دورها ثانويا ، وهي تصلح بطلة لرواية تخصها وحدها . مرحة ، لطيفة ، طيبة المعشر ، نزقة ولكن في غير اسفاف ، جريئة تحب الصراحة ، لا يخلو فمها من الدعابات اللاذعة الساخرة . وهي نموذج بشرى للطالبة الحديثة ، لابنة اليوم .

*

ثم نصل الى مشكلة المشاكل التي تواجهنا في معظم انتاجنا الفني: التكنيك ! والسطور التالية تناقش التكنيك على حدة وهي كارهة ، ذلك ان عملية الفصل بين الشكل والمضمون غير مستحبة اطلاقا ، غير أن دواعي التشريح والتحليل استدعت ذلك فمعذرة .

ولا بد من مقدمة .

ما زالت اللغة العربية منكوبة بلعنة الزخارف اللفظية ، والنزعة الخطابية . ويبدو أن هذه الشوائب أشبه بالاغلال التي تعوق حركة السير ... سير من ؟ سير الافكار . وليتصور القارىء مدى هذه الجناية : جناية اللغة على الافكار . ان الاستطراد ، والسعي وراء الزخارف والعبارات الطنانة يجعل المعنى ـ بالضرورة ـ فضفاضا ، ذلك أن اللغة الفضفاضة التي تبعثر كلماتها في سخاء مفرط توصلنا الى معان غامضة ، لها صوت مرتفع ولكنه أجوف في كثير من الاحيان .

اننا بحاجة الى لغة معمارية ، تشبه كل كلمة فيها قالب الطوب المنسق الاجزاء . كل قالب له وظيفته في البناء السليم ، واذا زحزحته عن موضعه فربما تخلخل البناء ، والى جانب هذا لا تستطيع أن تضيف قالبا زائدا ، اذ اين تضعه ؟ نحن في حاجة الى كتابة معمارية تصف الحدث في ايجاز واقتصاد ، لغة تتحول فيها البلاغة من بلاغة كلمة الى بلاغة حدث ـ لغة تبتعد عن الوصف ، وتدع الشيء يصف نفسه . أفضل لي أن أقول « كان القصر يتألف من مائة حجرة » من أن أقول « كان قصرا شامخا متعاظما رحبا ينوه فيه الزائر ، وتكتظ حجراته كأنه مدينة قائمة بذاتها » . ان العبارة الاولى تبهرني في ايجاز ، وتقول لي في نفس الوقت ان القصر كان شامخا متعاظما رحبا . نريد للغة ألا تقف وتثرثر وتشرح ، نريد لها أن تشير فقط وتدعنا نحن نتأمل ونشرح لانفسنا بانفسنا . لا نريد تعليقا ، ان عبارة كالعبارة التالية لا تحتاج الى تعليق واستدرار للدموع ، لانها بليغة في حد ذاتها « ورفعت امه عينيها اليه ، ولكنه صفعها » .

نعود الى رواية « حارة الطيب » . انها تعاني من النزعة البلاغية الخطابية ، من ذلك على سبيل المثال :

وعندما تلاشى وقع أقدام رفعت .. فتحت النافذة على مصراعيها وهي في نشوة طاغية ، واستندت على حاجزها وكأنها ملكة تستعرض جيشا يقدم فروض الطاعة والولاء ..

وخيل اليها أنها ترى حارة الطيب لاول مرة ..

وأول ما جذب نظرها تلك الشجرة التي تزهو أمام مسجد سيدي الطيب تتراقص فروعها في نشوة .. وتسلقت عيناها الجدار السميك ، وتلقفت نظراتها المئذنة الشامخة التي تنطلق منها أغلى الاحاسيس .. وشعرت برهبة .. فانحسرت نظراتها لتلتقي بالاولاد .. أولاد الحارة في زيهم المدرسي النظيف وكتبهم مشرعة بين أيديهم تشق لهم طريق المستقبل كبلابل تشدو لحنا سماويا ! » (ص ٤٠)

والغريب ان المؤلف يصف هنا فتاة رقيقة وادعة لا يمكن أن تذكرنا بملكة تستعرض جيشا .

ويتصل بمشكلة الزخارف والتشبيهات الفضفاضة شيوع النزعة التقريرية في الكثير من رواياتنا وقصصنا القصيرة . وهذه النزعة التقريرية نوع من الاستطراد في السرد، استطراد يخرج عن سياق القصة ليطلع القارىء على شيء معين بطريقة اخبارية ، تقريرية ، لا تدخل في بناء القصة بطريقة محكمة . وعيب هذه الطريقة أن القارىء يفاجأ بها ، وكأن المؤلف يقول له : انتظر لحظة ، سأفضي لك ببعض المعلومات عن... ان كنت لا تعرفها .

مثال هذا ان قارىء « رواية الطيب » يتتبع السطور التي تنبض بها صفحة ٩١ ، ويتابع الحوار الملتهب الدائر بين شيرين فهمي ورفعت مخلص وعبد التواب الفندور ، ويقول عبد التواب الفندور أن من بديهيات الحب الاولى أن لا يعترف بالطبقات . ويقول شيرين بلهجة حازمة وهو يحاول انهاء المناقشة : لست مقتنعا بهذه النظرية ! وفجأة ، يفاجأ القارىء بحشد من المعلومات والبيانات التقريرية : ان شيرين فهمي « ... عاش في بيئة تكره المساواة وتؤمن بأن الناس أقوياء وضعفاء .. وان الطبقة القادرة صاحبة السلطان لها حق السيادة على الطبقة الضعيفة ، الفقيرة .. بل ان هذه الطبقة الاخيرة خلقت لكي تضع كل امكانياتها لخدمة الطبقة القوية .. وعليها أن تقدم طائعة ثمرة فكرها وجهدها وعرقها وأموالها الى الطبقة الاعلى ، التي وهبتها الطبيعة عناصر تفوقها من امتياز في السلطة والثراء والقوة !

لقد كان شيرين فهمي اقطاعيا فكرا ووجدانا !

تفتحت عيناه على آلام ودموع وصراخ الآخرين .. والاخرون كانوا الفلاحين والفلاحات الذين يكدحون طوال عمرهم لتزدهر مئات الافدنة بلوزة القطن ... »

ان القصص والروايات الناجحة تحاول ان تعتمد على عنصر التركيز، كما تحاول اقتباس تكنيك المسرح بأن تجعل الاحداث والحوار ينقلان كل شيء ، مع استبعاد كل ما هو تقريري او اخباري . كما أن الروائي الناجح يحدد الزاوية التي سيحكي منها قصة . هل سيكتب القصة من وجهة نظر البطل ولا يرينا الا ما يراه البطل فقط ؟ أم أنه سيحكي القصة من وجهة نظره هو فيصف لنا الشخصيات من الخارج ؟ أم سيطلعنا على مسرح الرواية من وجهات نظر الشخصيات المختلفة التي تتحرك فوق هذا المسرح ولا يقحم هو نفسه ؟ ان تحديد الزاوية من البداية أمر ضروري للغاية . ولذا فوجئت في رواية « حارة الطيب » بتزاحم الزوايا واختلاطها ، فنحن أحيانا مع البطل رفعت مخلص ، وفجأة نجد أنفسنا ننظر الى سقف الحجرة بعيني سوسن ، ثم نلبس فجأة رداء شيرين فهمي ، ونطلع على ما يعتمل في أعماق شخصية أخرى كانت بعيدة عنا ! وتارة نقف مع الكاتب نفسه نتأمل مخلوقا من الخارج . ولكنا ننزعج

---

* وضح هذا الحماس أيضا عندما تسبب في بعض الاخطاء المطبعية. ففي الصفحات ٨ ، ٢٠ ، ٢٣ كانت الاشارة الى عفت ، شقيقة البطل ، غير أن القلم كان يكتب « سوسن » بدل « عفت » !

فجاة حين نراه – نرى الكاتب – يحدثنا نحن ! ! ! وقد حدث هذا في مواضيع كثيرة . مثال هذا أننا كنا نعيش داخل شخصية سوسن وهي تناجي نفسها ، وتفكر في الحب الذي تخفيه ولا تجرؤ على التصريح به لحبيبها رفعت مخلص . انها تناجي نفسها ثم نفاجأ بالكاتب يحدثنا نحن كقراء – وبدون سابق انذار ، وسأورد هنا اطار هذه « المفاجأة » كاملا :

« ... ان نفسها انبرت تحدثها بطريقة لم تالفها من قبل وكأنها تكفر عن الحماقة التي ارتكبتها أمام رفعت قائلة : الى متى ستظلين مثقلة بهذا الحمل .. أليس من الافضل ان تلقيه عن كتفيك حتى تستريحي ولا تجعليني أتصرف هذا التصرف الاحمق الذي سبب لك هذا الارتباك ..

واذا كنت تنتظرين الغد .. فهذا الغد لا بد أن يأتي يوما ما .. ومن الافضل أن تجعليه غدا !

ولو كنت (يقصد القارىء) تجلس بجوار السرير الذي كانت تضطجع عليه سوسن ، وأمامها عفت المتحفزة للانتصار على صديقتها وارغامها على البوح بسرها .. لرأيت آثار المعركة العنيفة الدائرة في أعماقها واضحة على قسمات وجهها ... » (ص ٩)

وفي موضع آخر ، في بداية الفصل السادس ، نقرأ :

« كانت قلقة ..

ظلت تتقلب على سريرها كرة غير مستقرة تتدحرج بدون انتظام . لو شاهدتها ساعتئذ وهي مستلقية على ظهرها ، مرتدية قميص نومها الوردي ... لقرأت علامات القلق والاستغراق في التأمل .. » (ص ٧٤)

ومن العيوب التي ناخذها على تكنيك الرواية عيب آخر شائع ، وهو اختلاط الفصحى بالعامية في الحوار . والمسألة هنا ليست مسألة مطالبة بأن يكون الحوار بالعامية ، ذلك ان للكاتب ، حرية اختيار القالب الحواري (وان كانت العامية أقرب الى الواقع وأكثر حرارة) ... ان الاعتراض هنا موجه الى ظاهرة المزج بين الاثنين في سطر واحد وبدون مبرر ، صحيح أننا نتكلم العامية أحيانا وندمج بها الفاظا من الفصحى ، غير أن هذه الظاهرة نادرة . من أمثلة الخلط بين العامية والفصحى :

« ... فأقول له : عمي خد على عاتقة مساعدتك وانه حياخد بايدك حتى نصبح من الكتاب الكبار ! » (ص ٤٦)

« ما أظنش اللي أفكاره كده يتغير بسهولة .. ربما تدعوه مصلحته في أن يضع قناعا على سلوكه ونزعاته .. » (ص ٥٢)

وفي بعض الاحيان كان المؤلف يتجاهل الايقاع الزمني السليم للاحداث والخواطر ، فيجعل بعض الخواطر تنساب داخل حيز زمني غير معقول . مثال هذا أن سوسن تطرق باب أسرة رفعت تسأل عن أخت رفعت ، وصديقتها الحبيبة ، الآنسة عفت ، ولا تجدها ، وتقف عند الباب مترددة خجلى ، ثم يسعفها القدر فتسمع وقع أقدام الصديقة عفت وهي تدلف الى البيت وتصعد السلم . ان الايقاع الزمني لصعود عفت السلم يستغرق لمحة عابرة ، غير ان المؤلف يتجاهل هذا الحيز ويشحنه بخواطر تمر بذهن سوسن في هذه اللحظة . خواطر تستوعب فترة طويلة جدا ، أطول من فترة صعود عفت على السلم . وتستغرق هذه الخواطر الصفحات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ – وفي النهاية يتم اللقاء بين الفتاتين !

وأحيانا يقطع المؤلف تسلسل الاحداث عن عمد ويحول عدسته عن الصورة الرئيسية ليصف أشياء في الطريق . ان البطل يذهب الى مكتب شيرين فهمي ، لاول مرة ، والمقابلة غامضة ، وحاسمة ، وخطيرة . والتكهنات ... وموضوع المقابلة ... كل هذا يطن في رأس البطل ... غير أن هذا لا يمنعه من تامل السكرتيرة مليا والاقدام على محاولة لتقييم حركاتها وقسماتها . ان الوصف المسهب الذي ورد في صفحتي ٨٠ ، ٨١ اعتداء على التسلسل الزمني الحقيقي الذي يستغرقه دخول رفعت ، واعتداء على الحالة النفسية لرفعت وهو يدخل مكتب شيرين فهمي . وقد نتقبل وصف رفعت للممثلة شريفة ، لان للوصف دوره في ابراز شخصيتها ، أما السكرتيرة ، فان دواعي التركيز تستبعد وصفها استبعادا تاما . وينطبق هذا أيضا على البائعة التي قدمت للبطل أقراص الاسبيرين وهو في طريقه الى المسرح . ان جوهر الفن في الحذف قبل ان يكون في الاضافة . والفن هو الذي يفرق بين حادثة يحكيها لي جاري في الاوتوبيس ونفس الحادثة حين يحكيها لي فنان . ان جاري في الاوتوبيس قد يحكي لي كل شيء ، بترتيبه الزمني الفج ، ودون ابراز للنقاط ذات الدلالة واغفال للنقاط غير الهامة .

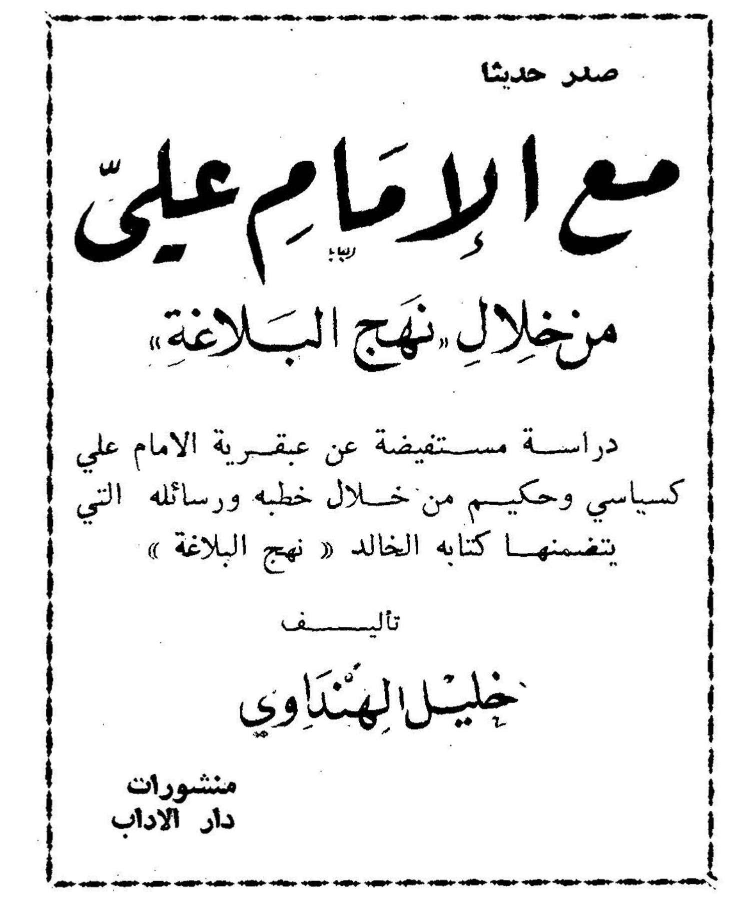
بقيت ملاحظة لعلها لفتت أنظار الكثيرين من قراء هذه الرواية ، وهي وقوعها – في مواضيع كثيرة – في فخ المبالغة . فحارة الطيب نفسها تبدو لنا أحيانا وكأنها مدينة فاضلة ، كأنها يوتوبيا . نحن لا نستكثر على اهلها ان يكونوا بهذه الصفات النبيلة المثالية . ولكن كان من الممكن أن نقتنع بهذه الصفات لو أورد لنا الكاتب عيوبهم ونواحي نقصهم ، فمن شأن هذا أن يجعلهم اكثر واقعية ، وبذلك نقتنع بسموهم ونصدق المؤلف حين يصف لنا فضائلهم . ان وصف الحارة يفوح أحيانا برائحة رومانسية مرهفة ، وذلك حين يقول الكاتب على سبيل المثال :

« وفي اليوم التالي خرجت مجلة الحارة الاسبوعية والتي يرأس تحريرها رفعت تروي في عدد خاص قصة عم عثمان (الفكهاني) كاملة .. الرجل الذي عاش خمسا وأربعين سنة في كفاح من أجل أن يمد أهل الحارة والحارات المجاورة باطيب الفاكهة وأرخصها » . ومن المواقف الغير المقنعة أيضا اقدام ممثلة ، وهي على خشبة المسرح ، على تغيير النص تغييرا جوهريا ! ! وتصفيق الجمهور لها وصياحهم : تحيا شريفة ! وصياح النقاد والصحفيين : برافو شريفة . ومن أمثلة المبالغات الرومانسية أيضا كثرة الدموع التي تتدفق من عيون معظم شخصيات الرواية ، بسبب وبلا سبب .

ولكن ، مما يشفع لهذه الرواية ، انها عمل مخلص جاد ، وأن النزعة الانسانية تغمره ، والرغبة في الصراحة وفضح الاكاذيب تشيع فيه . كما يبدو أيضا أن في جعبة المؤلف الكثير ، وهو شيء نرجو أن نطلع عليه في رواية قادمة .

القاهرة

محمد عبدالله الشفقي



الشقاء في خطر

للشاعر مالك حداد ـ ترجمة ملك أبيض العيسى
منشورات مكتبة الشرق بحلب ـ ١٤٢ ص

الجزائر ملحمة البطولة العربية ومشعل كبريائها الطافح بالزهو ، ان اطفال وهران الذين يشربون من دموعهم ، ونساءها اللواتي يتساقطن كالزنابق الجافة ، ورجالها الذين يحصدهم عذاب فرنسا المحمـــوم لم يستطع شعرنا المعاصر على كثرته أن يصل الى صعيده ، صعيـد الآلام المبدعة والبطولة التي تقطر شموخا وعزة !

ومهما يكن من أمر فلعل الغد القريب يكشف لنا عن طاقات مبدعـة تجعلنا نبارك مستقبل هذا الشعر ونبتهج له . هذه بضعة أحرف كنت احسها جديرة بمدخل عابر لهذه الكلمة .

ان صاحب هذه المجموعة الاستاذ مالك حداد .. شاعر عربي مـن الجزائر بيد أنه يكتب بالفرنسية ، انه لم يتعلم من فرنسا الا يتمـــه وضياعه ، ان الفرنسية منفاه هكذا كان يتألم : « الفرنسية هي منفاي الذي أعيش فيه يا أراغون ، لو كنت اعرف الغناء لتكلمت العربية » .

وولد الشاعر في مدينة قسنطينة عام ١٩٢٦ ، وبتلفت الطفل ـ كما يقول الشاعر سليمان العيسى ـ الى ما حوله فلا يرى من تاريخه ولغته واصله الا بقايا محطمة تراجعت الى البيت لتحتفظ بكل شقائها وعنفوانها في حكايات الحيرة وحنان الام ولفظ الصبية الصغار » (١) ، ومن هنا يبدأ منطلق مأساته فيدخل مدارس فرنسا والاغاريد الصبية تختنق في حلقه ، ويتفوق الشاعر الشاب على من سواه من ابناء (الوطـن الام) فينال جوائز النبوغ بكبرياء عربية ، ويسافر شاعرنا الى فرنسـا ويتم هناك دراسته العالية ويحصل على اجازة الحقوق في مدرسة « أكس آن بروفانس » .

ان مالك حداد شاعر الثورة الجزائرية ، انه كتلة مـن الاحاسيس الثائرة والاماني اللفاء ، قلبه مفعم بالانسانية وحب الحياة ، ورغم ان شاعرنا ولد عام ١٩٢٦ فانه يصر على أنه ولد في صباح ٨ ايار ١٩٤٥ يوم المأساة الدامية (٢) انه يصر أن يعانق تاريخه تاريخ وطنه وامته ، ان مالك حداد ليس وحده هو الذي ولد في صباح تلك المأساة المروعة . ان الجزائر كلها قد ولدت صبحية ذلك اليوم .

ان مالك حداد وصحبه الاخرين كمحمد ديب وكاتب ياسين ومولود فرعون ومولود معمري (٣) هم قادة القافلة التي تصارع قوى البغـــي باعصابها واقلامها ، القافلة التي منفاها فرنسا بيد أنها لم تنس آلامهـا العربية ومجدها الخالد ووجودها العربي الاصيل فأمسى قادتها يعبرون بلغة فرنسية عن تجربتهم القاسية تجربة القصص الراعفة والتشرد البغيض والعبودية المرة .

(الشقاء في خطر) يجسد لنا باصالة تلك التجربـة القاسية ، ان مقدمة الديوان الطويلة التي بلغت زهاء (٣٤) صفحة فذكرتنا بمقدمات الكاتب الايرلندي (برناردشو) وددت وأنا اتلو سطورها أن لا تنتهي ، فزخمها الادبي الشاعر جعلني في حيرة قاسية ، كنت أقول : اذا كانت المقدمة بهذا العمق الشاعري الاصيل فكيف باناشيد الديوان واغنياته ؟ !

انني لم أقرأ عن الانسانية وحب الحياة أقوى مما كتبه مالك حداد ، اذ ان اغلب ما كتب في هذا المجال يغلب عليه طابـع التحويج والهتافيـة والحمام واغصان الزيتون التي تتقاطر بلا حساب ! ..

ان مالك حداد هنا في مقدمته روح الانسانية وقلبها الحي الكبير ، ان كل حرف فيها يثير في قارئه أعمق ما في النفس من مشاعر ، اسمعه يقول : « انك لتتألم في صميمك حين ترى الاشجار تقطع اغصانها لتصنع منها حواضـن للبنادق ص ١٧ » « انك تغط قلمك في السواقي الكدرة ، السواقي التي تحمل الجسد المتورم للافاعي عدوة المياه الصافية المفردة، محبرتك هي النبع .. هي الانسان كله ، وفي آخر معجم في اخر سفر من اسفار الادب ستتحول كلمة (بطل) الى كلمة (انسان) .

ما أعمق هذه الكلمات وما اوقعها في النفس ، انها تخلع عـــلى احاسيسنا اردية ساحرة من اللذة العميقة وحب (انسان) بشرنـــا العمـــلاق .

ان اغاني الديوان تتوزع بين عذاب انساننا في الجزائر وضياعه الى حبه للحرية وتشوقه لوطنه وتطلعه نحو الغد العربي الباسم الى مواضيع انسانية عامـة !

اي ان الشقاء في خطر هذا الاسم الجميل المؤثر يكشف لنا اروع اللحظات واغناها بالمشاعر الحية ، ويرصد اقسى ما يعانيـه انسـان الجزائر من ازمات نفسية ومجازر مروعة وذل واستعباد وضياع ، انه ان اردت الايجاز مأساة وتفاؤل الجيل العربي الجديد أمام مستقبله !

فمالك حداد في قصيدته (يجب أن نقتل الليل) يتمزق ضجـرا كلما تذكر انه بعيد عن وطنه عن (جزائر) الملحمة البطولية والابـــاء الشامخ عزة ومضاء ، انه يبحث عن الرائع النبيل فلا يجده ، آه انـه، يجب عليه ان يطرد هذه الاطياف الموحشة ، هذا الليل الساخر ، هـذه المقبرة المتخمة بالانغام التي ترافقه ، ان رفاقه صرعى وقراهم على شقائها تباد ، ان (صانعي المغامرات السود) يقتلون نسغ الحيـاة باستمـرار ولهفة « وبالرغم من كل هذا يعيش شعبنا في الجزائر » .

وبعد فالشاعر لا ينتهي هنا فقط ، انه يتفاعل بالغد المشرق ، الغد الذي يستطيع فيه الاطفال أن يقولوا (وطني هو الانسان) :

سنبدع تقاويم جديدة للزمن ، سنصب الحياة كلمات في توابيت رفاقنا ، سنجفف دموعنا بأكفاف فقيرة ، وسنقول لاولادنا الذين ذاقوا اليتم الف مرة ستنجبون اطفالا يعرفون اباءهم ، اطفالا يستطيعون ان يقولوا : وطني هو الانسان (الشقاء في خطر ص ٥٦) .

ما كان اعذبها فكرة واحلاها التفاتة « سنجفف دموعنا باكفـــان فقيرة » ، « وطني هو الانسان » .

ان القصيدة تقطر أسى وانسانية وتفاؤلا ، أمور ثلاثة تختصر مـا في الديوان من اغان وآهات ، فالبارود يبعث في يبعث في نفس شاعرنا الغثيان ، انه يحب السوسن رفيق أيار .

أما في قصيدته (سأعطيك النهار الجميل) فان الشاعر يذكـر منفاه ويتمه ، يذكر فجيعته ، انه عندما ينقل حبه لوطنه العظيم يجـد أنه يستخدم جملا غريبة تخرج من شفة غريبة ، انه يتيم القبل ألا ما أشد ما تحمله هذه العبارة من زخم أسيان : « اني استخدم كلمات تخرج من افواه غريبة ، اني يتيم القبل ، احس هذا اليتم كلما لاح موطن الفجـر بعيدا عن عيني ما أقسى ان يكون الانسان يتيم القبل » ص ٦١

ان احساسه بمنفاه بيتم قلبه ، لعله اقسى ما في الديوان مـــن (اغنيات) انها شلال من الآلام والتفجع فأي لوعة حارة وانكار ساخط يكمن في قوله : « أماه ! .. يامه ، هل يمكن ان يكون اسمك : Ma mère ص ٦٧

---

(١) المقدمة (حكمة على الطريق ص ٧)

(٢) في هذا اليوم قام الاستعمار الفرنسي بأبشع مجزرة في التاريخ الانساني سقط فيها ٥٠ الف شهيد وزج بمثل هذا العـدد في غياهب السجون وذلك أثر اجتماع جماهيري كبير اعلن فيه ابطالنا حبهم لوطنهم.

(٣) راجع في ترجمة هؤلاء ودراسة بعض آثارهم كتاب (ادباء مـن الجزائر) تأليف الدكتور ابراهيم الكيلاني (سلسلة اقرأ) .

وقوله في موضع آخر « لكلمة وطني عندنا طعم الاساطير » ص ٦٦

أو في حنينه الى ماضيه يوم كان راعيا صغيرا يلهج (بعربيته) الحلوة : « ابنك الذي يلقن ان يقول في لغة غريبة تلك الكلمات الحلوة التي كان يعرفها عندما كان راعيا » ص ٦٧

أو في ذر هذا (التفرنس) الذي ينكره عليه ابناء الوطن الام : « اتسمونني جزائريا ، لا تقولوا ذلك فهذه شقيقتي لا تضع على وجهها الحمار ، ألم أحصل في المدرسة على الجوائز في الفرنسية ، يا الهي ما أشد وطأة الظلام في عيني هذه الليلة » (٤) ص ٦٩ .

ان هذه الصور رغم اختلاف (تأطرها) كما يبدو الا انها تكشف لنا مأساة يتمه وضياعه ومنفاه مأساة المعمري والشرايبي وديب وياسين ، مأساة الشعب العربي المعذب في كافة أقطاره .

وفي الديوان صور بديعة وفكر ساحرة الاطياف ، ان جاذبية عبقر وخصبه النغمي ثريتان فيها مما يدلنا على اشراق اصالة الشاعر وعمق ادراكه لفنه .

يقول في قصيدته (سأعطيك النهار الجميل) « اني أحب البلابل ، ولكنهم يريدون تعبئة اغانيه في اسطوانات ، وحين ارى ذلك ، أشعر ان الغابات قد سطا عليها اللصوص أنا واثق من ذلك » ص ٦٢

وهذه فكرة رائعة لا يقتنصها الا الافذاذ من الشعراء . وقوله : « المطر يتساقط فوق الشمس التي تجفف ابتساماتها ، المطر يتساقط على يد الماضي ، عندما كنت ملكا لايار ، المطر يتساقط على حبي الذي لم يعد له ما يهمس به » ص ٧٨ فقد اشعرنا باستمرارية المطر وديمومة سقوطه فللفظة هنا فوق قيمتها التعبيرية الداخلية قيمة تعبيرية خارجية في الدلالة على الصورة التي يتضمنها البيت ، ان الكلمات الجميلة هي النور الذاتي المتميز للعقل .

وقوله يصف غريقا يطفو ويرسب : « الفريق يطفو في عباب التيار ، ناسجا من شعره سيقان الغرب » ص ٨٢ فالغرب نبات رخو ضعيف يتحرك من مكانه حركة التفافية حوليه ، ان ربط هذه الوضعية من الصور بشعر الفريق الذي ينساب هو الاخر في حركة التفافية جاء يقطر جماليه فالالفاظ هنا تقمصت روحا من الحركية والايحاء زرعت في افئدتنا لحظات تجل قاسية وشعورا غامرا بجمال الحياة . انها لقطة بارعة ستدعي منا وقوفا اطول وثناء زنبقي الظلال .

ومن خصب صورة وتألقها قصائده (بعيدا عن القبر ص ٨٨ ، صور ٩٢ ، عندما نفش باقات الزهور ص ١٢٢ ، المخاض العظيم ص ١٢٩)

والذي اود أن اقوله أخيرا ان مقدمة الديوان عندي اروع من اغانيه ، انها رؤيا شمولية ضاغطة لمأساة الانسان العربي في تشرده وحقده وتفتحه للحرية والحياة .

وبعد فلست أزعم ان هذه دراسة للديوان انما هي تحية مخلصة أعربت فيها عن ودي الخالص لشاعرنا العربي مالك حداد الشاعر الذي تغنى بمأساتنا وتمزق جيلنا الحاضر وضياع وجهه الاصيل عبر اقنعة من المدنيات المختلفة ، اننا في انتظار ذلك اليوم الذي يتخلص فيه هو ورفاقه من منفاهم ولكنتهم الفرنسية فيتعلموا العربية ويجيدوا صناعة اساليبها فيزدهر الادب العربي بسبب خصب عطائهم واصالته « فالمادة الفكرية كما يقول الدكتور الكيلاني عند الفئة الممتازة منهم موجودة والاستعداد الذهني حاد التوقد » نأمل ان يكون ذلك قريبا بعون السواعد السمراء والقلوب المؤمنة برسالتها وحبها للحياة والحرية .

بغداد — **مزيد الظاهر**

---

(٤) ان تكراره هذه العبارة بين اونة واخرى خلع على جو القصيدة نوعا من المأساوية والتمزق زاد من جمالية طابعها .

لابد من طريق

.. ولاح في جدار الليل في فضائه البعيد
بريق نجم تائه شريد
يدعوك للرحيل ..
وكنت في مواقد الشتاء
تقلب الرماد في ذهول
تقول : يا سماء ! ..
يا جنة المحروم يا سماء ! ..
ويخفت النداء في تهدج ضعيف
ويعول الخريف
في الباب .. حيث الليل والسهاد والانين
وفي ظلال الصمت تغزل الرجاء
في مغزل الحنين
والجوع والحرمان والتطلع الحزين..
يا عاثرا ودربه الاشواك والصخور
يا كابيا معفر الجبين
يا طائرا مكبلا في زحمة الرياح
يهم أن يطير
يعيا .. فيرتمي على صقيع ليله المرير
متى .. متى ستطلق الجناح ؟ ! ..

✭

وفجأة يلوح نجمك البعيد
مشعشعا في الافق المديد
فتجمع المتاع والثياب
حقائبا تفوح بالوعود
وتمطر الورود
في بيتك المصدع العتيق
وأنت كالغريق
في نزعه الاخير أدركته صخرة النجاه
وربقة عادت اليها خضرة الحياه
فأقبل الجيران في فرحتهم يودعون
والاهل والاصحاب أقبلوا يودعون
وقلبك الحنون
يوزع القبل
مخضلة بالعطف والحنان والامل
وطائر أخضر يذرع السماء
تطلقه الشفاه يذرع السماء
وأختك الصغرى تشد الثوب في شغف
تحس بالاسف
فتذرف الدموع في حياء ! ..

✭

تراك ما تزال تذكر
يا أيها المسافر الغريب
تراك في مجاهل الحياة ما تزال تذكر
تلويحة الايدي ورفة المنديل في المطار؟!
تضاءلت أنوار
تغورت شيئا فشيئا .. ثم غام.
وميضها في جهمة الظلام
ركبت متن الريح
تحسبها معجزة المسيح ..
منتفضا يصعد في مدارج الخلود ..
تخال في يديك خاتم الغيوب
وسره الرهيب
ان شئت يغدق الكنوز والنضار ! ..

✭

هنا .. هنا شواطيء الاسفنج والمحار
تشدني .. تشدني .. أغوص للقرار ..
في جوف حوت جائع يفترس النهار
ملغومة عروقة بالكلس والدوار
ويمضغ الدخان في تلذذ مزيف كذوب
وفي وحول الارض يغرز الاجفان والنيوب !.
وحدي .. وفي تطلع النبي الخلاص ..
وفي انتظار ساعة المخاض
تنشق جبهتي عن جوهر ثمين
أصيح في جنون
وافرحا .. تموز ينتفض
مخضوضرا من جرحي الدفين
يا أملي الحزين
بشراك .. يا .. بشراك
سنملأ السلال والشباك
من لؤلؤ البحار ! ..
وفجأة تعربد الانواء والصواعق
كأنها مطارق ..
تهوي على أضلاع زورقي الصغير
فينثني مرتطما بالوحل والصخور ..
زوابع الهجير
تجلدني بسوطها الرملي .. تشوي جبهتي لوافح السعير ..
تغذ لعنة الجفاف في لحاقي
تلتف قبضة سوداء في خناقي
فتشهق الجراح في مضاجع الارق
ويرشح الغبار والعرق
من رحلة الضياع .. والعذاب .. والقلق ! ..
نحن هنا هيا كل محنية الرقاب
محشوة بالقش والتراب ..
تبحث عن جزائر
خضراء .. في منى عواثر
شراعها الرغيف
ضمادة الملح على الجراح
«سيزيف» في دمائنا ، وصخرة القدر
وعمرنا الهزيل منحدر
أيامنا عجائز صغار
دائخة معصوبة الجبين ..
تقيء في شحوبنا الهزال والسقم
ضحكاتنا هشيم
وصمتنا عقم رضيعه الندم
ونحن أخشاب تكومت على ضريح
تصفر فيها الريح
تنخرها الديدان في مفازة السأم ! ..
يا دار كوني سلوة الغريب في القفار
وليغتسل في شاطئيك الطين والحجر
والغرف المغلقة ...
لتنفتح .. كيما تطير في السحر
فراشة مشرنقه ..
ويا رمال .. يا رمال ..
يا روعة مبثوثة تداعب الخيال
يا أنجما تطايرت شرر
بالامس في سنابك الجدود ..
عنانها القدر
ودربها الخلود ..
فشرقت ، وغربت رسالة علويه
ورفرفت على الدنى حضارة محلقه ..
وددت يا رمال
وددت لو تساقط المطر
في واحة ممرعة الظلال ..
ظمآن يا رمال ، والمنى سراب
لا يعقد السحاب
أعراس هذي الارض بالغلال والثمر
وفي شفاه الجرح لا تزال
أغنية انتظار
مشبوبة الايقاع والوتر
وغصن زنبق ذوى يهفو الى اخضرار! ..

✭

عيني هنا .. ومهجتي هناك
تحوم حول فتية صغار
تطعمهم في البعد أدمعي الحرار
فتنقل الرياح من تحرقي صدى
يهمس في آذانهم فيسألون :
يا من هجرت الاهل والديار
ويا ممزق الخطى على الدروب
متى .. متى تعود ؟ !
وهمسة في خاطري تقول : يا صغار
يا جسر بيت عائم الجذور
في سبخة تفور ..
بالطحلب المخضر .. والعفونه ..
فتارة يطفو .. وتارة يغور
وتمسكون أنتم الجدار ! ..
الليل لن يطول ..
الليل يا صغار في احتضار
لا بد من طريق
يحملنا على جناحه الطليق
لشاطيء النهار ..
هناك حيث ينعم الصغار والكبار
في عالم منضر الرؤى .. جميل ..

احمد محمد صديق

كيهودي وزجاجة الكونياك

قصة بقلم عوض شعبان

رأيته للمرة الاولى في احدى حانات روما ، يقبض على الكأس بكلتا يديه . كان ثملا تفوح منه رائحة الخمر الكريهة . ولهذا كانت صاحبته الشقراء تدير رأسها عنه كلما اراد ان يفوه بكلمة .

ولا زلت اذكر كيف وقف وسط الصالة وصرخ هاتفا بملء حنجرته :

ــ « في صحتك هذه الكأس يا استير ! »

وترنح وهو يقذف بمحتويات الكأس في جوفه دفعة واحدة . وكاد يقع على الارض من فرط سكره ، لولا ان امسكت به الشقراء التي كانت بمعيته واجلسته على كرسيه امام المقصف . وهز رأسه مرات ، مسدلا عينيه المتورمتين في الكأس ، مغمضا نصف اغماضة . وكان يحك رأسه بنوع من البلاهة . ولم ينس ان يتطلع الى الموجودين من لحظة الى اخرى ، ويلفظ عبارات نابية .

وكان لغط الرواد قد علا مستنكرين صراخه على ذلك الشكل المزعج واوعز احدهم الى صاحب المشرب ان يقذفه خارجا ، فاحتج هذا على قسوتهم ، زاعما ان زبونه رجل طيب مبدئيا ، وما هذه العربدة الصادرة منه الا لكونه نكب بعائلته ، واخذ يعدد مزاياه :

ــ « لقد حارب في صفوف الانصار ضد الالمان في سبيل ايطاليا .

سي سنيور ! اشترك في تحرير فلورنسة وكالابريا من قوات الدوتشي والفوهرر .. ولعل هذا هو السبب الذي من اجله نال الجنسية الايطالية علاوة على جنسيته البولونية ! انه ميكا .. ميكا شراوزكي ! من اكثر اليهود حبا لاعمال الخير . فقد تبرع مرة بزوج احذية مستعملة لقريب له من فرصوفيا ، وفي مرة اخرى قدم مئة لير ايطالي لارملة في ريعان الشباب ! »

وفجاة وقف السكير وسط الصالة مجددا ، قاطعا على صاحب الحانة حديثه وترنح مليا .

كانت يمناه ممسكة بالكأس . فرفعها الى اعلى صارخا بملء صوته:

ــ « في صحتك هذه الكأس يا استير ! »

ومرة اخرى اعانته الشقراء على الجلوس مكانه ، ليصب عينيه الزرقاوين المرهقتين على الكأس الفارغة ، ويحك رأسه الاشيب ذا الصلعة البراقة .

*

اما المرة الثانية . فكانت في القطار الذاهب الى نابولي ، بعد شهر من مشهد الحانة في روما .

وبحكم تفردنا في قمرة واحدة ، كان من الطبيعي ان نقضي بعض الوقت نتجاذب الحديث . ودفعتني غريزة الفضول الى التحدث في مواضيع سياسية معينة ، لارى وقعها على قسمات وجهه .

كنت اتكلم وهو صامت . وقد حسبني في باديء الامر اسبانيا ، ولكنه ادرك باني عربي حالما انهالت اتهاماتي عليه تجريحا في مسلكه كيهودي !

ورأيته يقف وينتزع من جيب ردائه المعلق على مشجب في الحاجز الخشبي ، زجاجة كونياك ويشرب منها جرعة ثم يقدمها لي . فاعتذرت شاكرا ، فاحكم سدها واعادها الى جيبه بينما مسح فمه بكم سترته ، وارخى جفنيه ثم رفعهما وتلمظ شفتيه وقال ببرودة :

ــ « اسمع ؟ هل رأيت يهوديا سكيرا غيري ؟ »

ــ « لا ... لانهم مشغولون بجمع المساعدات المالية لاسرائيل ! »

ــ « اسرائيل ! ... انها اسطورة عتيقة ، لقد ابدعتها مخيلات شعرائنا منذ اكثر من خمسين عاما ... اسمع يا ابن العم ؟ اتعلم من هو اعظم شاعر في الدنيا بعد دانيال ؟ انه هرتزل !.. اليس كذلك يا ابن العم ؟ »

قال ذلك وضحك ببلاهة :

ــ « هه ، هه ، هه ... نحن اقرباء ! »

واخذ يتمتم وهو ينهض ليأتي بزجاجة الكونياك من جيب ردائه ثانية . وبدا على وجهه السرور ، عندما قربها من فمه الذي بدأت رائحة الخمر تنبعث منه ، فادرت وجهي عنه . وساعتئذ تذكرت صاحبته الشقراء فسألته عنها . وقال متظاهرا بالاهتمام الكلي :

ــ « تقصد غولدا .. زوجة اخي المتوفي في الحرب ؟ او على الاصح الذي قتله النازيون في فرصوفيا .. هاه ، هاه ... تركتها في روما . انها تربح جيدا في ساحة « اسبانيا » !.. انت تدرك جيدا ما اعني !؟ »

ــ « بالطبع . ولكن قل لي : لماذا قتل النازيون اخاك ؟ »

ــ « لانه يهودي ،اولا ! ولاننا معشر اليهود .. ثانيا ، لا ندين بالولاء للوطن الذي نولد فيه ونحيا !... »

ــ « لماذا ؟ »

ــ لاننا يهود !

ثم تنحنح وهز راسه وقال ساخرا :

ــ في الحقيقة ، لا افهم لماذا انا يهودي ؟ لعلني غبي كما يقولون !

وقبل ان يخبيء الزجاجة فيجيب ردائه من جديد ، قدمها الي فاعتذرت ايضا ، فالح متوسلا :

ــ يا ابن العم العزيز ... اشرب نخب استير .. اشرب ارجوك !

فكررت اعتذاري رافضا بلباقة ، وقلب الزجاجة بيديه وتنهد بعمق قبل ان يضعها في جيبه . وانتبهت لحظتئذ الى عينيه اللتين كانتا مغرورقتين بالدمع ، فأيقنت انه ثمل من جديد .

كان ينظر من النافذة الى الحقول الخضراء وهي تتسابق والقطار . وينتزع من فمه ابتسامة فتجيء اقرب الى العبوس . وتعددت زيارات فمه النهم لزجاجة الكونياك حتى تجاوزت الست مرات . ورايته يرمي بقبعته الرمادية على المقعد الشاغر ويحك رأسه الاصلع مشيرا الى الحقول الخضراء من خلال النافذة قائلا :

ــ مثل هذه .. حقول بلادي !

ــ تعني فلسطين ؟.. انها بلادنا نحن وليست بلادكم قط !

فتطلع الي وعيناه نصف مغمضتين ، وترع مرات قبل ان يعلق على قولي :

ــ انا الذي شربت يا ابن العم ، واراك امسيت ثملا ! مالك تهذي ؟ اني احدثك عن بولونيا بلادي .. عن بوزنان ، حيث ولدت . مالي وتلك الارض القاحلة التي تذكرها ، ما اسمها ؟

ــ فلسطين .. وهي ليست قاحلة .

ــ اه .. نفس الاسطورة الخرقاء . ولكنهم اخترعوا لها اسما حديثا يماشي تطور العصر ..

وتثاءب بعد ان تمطى ثم اضاف :

آه ... نفس الاسطورة الحرقاء . اسرائيل ! ايه .. حقاً انها لاسطورة قديمة . عمرها اكثر من عشرة اعوام !

وعاد فتناول زجاجته ووقف رافعا ساعده الى فوق ، صارخا كالعادة وعيناه مغرورقتان بالدمع :

ـ في صحتك يا استير !

فاضطررت الى تمثيل دور شفراء الحانة ومساعدته على الجلوس ثانية . وعلا صوته بالشتائم وبعبارات بذيئة . وكان يرفع اصبعه ويشير الى الحقول متمتما كمن يهذي :

ـ مثل هذه البراري الجميلة ، كانت بلادي ، ولكن ماجدواها الان مادامت استير الحبيبة لن تتمكن من تنشق هوائها النقي ، ولا من التمرغ على اعشابها الندية ؟!

ومسح انفه بطرف سترته ، وفرك عينيه بكف يده قائلا في شيء من النشيج :

ـ اقسم لك يا ابن العم ، انهم لم يدركوا من تلك المؤامرة شيئا . فقد انقطعت اخباري عنهم لمدة طويلة . كنت احارب في صفوف الايطاليين الاحرار ، يوم نزوح عائلتي الى تلك الارض القاحلة . لقد دبر تلك العملية القذرة « شولتس » الاعرج . هو الذي اغرى عائلتي بالسفر مع المهاجرين الى حيفا . كنت احارب في سبيل بولونيا بلادي ! اني ماكنت يوما مثلهم .. انا بولوني ! ولهذا كانوا يصمونني بالبلاهة..

وعندما عدت من الجبال حيث كان الحظ يحالف عملياتنا دائما ، ودخلت البيت ولم اجدهم ، اسودت الدنيا في عيني . كنت في كل لحظة ، ارى استير امامي ورأسها الدقيق يهتز يمينا وشمالا ، احتجاجا على سفرهم من غير ان يروني . نعم يا سنيور . فالوكالة اللعينة اغرتهم بالسفر الى ارض الميعاد المزيف بعد ان اعتقدوا باني قتلت في احدى المعارك . اراهن على ان « شولتس » القذر اكد لهم ذلك !!

وتناول الزجاجة فأفرغ نصفها في جوفه . وحالما تطلع الي بعينيه الباكيتين ، تناولتها من يديه وشربت منها جرعة وقلت ، وهي لا تزال في يدي ، قابضا عليها بشدة :

ـ ولماذا لم تتبعهم الى حيفا؟

فنظر الي مشدوها . وقطب مابين حاجبيه وحك انفه الكبير ، ثم اغمض احدى عينيه وفتح الاخرى على مدى اتساعها ، وقال ساخرا بصوته المخنوق :

ـ انا .. الحق بهم الى حيفا ؟

ثم زم شفتيه واعرز بصره في عيني وقال بهمس مسموع ، وقد قرب راسه مني :

ـ ولماذا ؟ ماداموا قد غرقوا في البحر قبل ان يصلوها .. نعم ، غرقوا في ظروف غامضة جدا .

واستدار برأسه الى الوراء ، ومد يده الي فتناول الزجاجة من يدي بعنف ، ووقف مترنحا ، رافعا ساعده الى اعلى ، صارخا :

ـ في صحتك يا استير !

فوقفت اود مساعدته على الجلوس . فشدني من سترتي متطلعا الي ببلاهة . وقال باسترحام ، سائلا :

ـ اتدري من هي استير ؟

ـ زوجتك ، اليس كذلك ؟

فانتفض وقذف بالزجاجة عبر النافذة مقهقها بهستيريا مفاجئة :

ـ هاه ، هاه ، هاه ، هاه ...

وكتم قهقهته فجأة ، وادنى رأسه مني ، فلم ادر وجهي عنه هذه المرة . وسمعته يقول بكل هدوء ، واضعا اصبعه على فمه :

ـ استير ، هي ابنتي الصغيرة !

عوض شعبان

العينان النعش

روحي تشتاق الموتَ على اجنحة العينين ،
فجدار الصمت أناخ على قلبي
طيري يا اجنحة العينين الى الغيب
ضمّي روحي .. لتمدَّ الى الموت بدن
فتحسَّ به شوقا ،
وتنام على شرفات مسالكه أفقا

✶

فالليل ربيع ينضح احلامي ملحا
صدري بحر دون شراع ،
وربيع الليل شراع يقتات شعاعي ،
أمياه البحر سهاد تعشب في قلبي جرحا ؟
شدي يا اجنحة العينين على روحي ،
طيري ! فلحون ربوعك تسبيحي

✶

أجنحة العينين عليك الموت ربيع
فأشيعي في روحي دفأه ،
وانيري في دربي وطأه
نعش حنان انت ! فهل يستسقي منك نجيع
بك موتي حب ملتهب النور
طيري حبا .. فأنا انزاح عن السور

✶

وسئمت الليل ربيعا ، انضح احلامي ملحا
صدري صار شراعا
فبأجنحة العينين يمد له الموت شعاعا ،
ومجاذيفا من أهداب جرحى
نعش حنان يسقى الموت لجوعي :
اجنحة العينين عليها الموت ربيعي !

بغداد

خالد علي مصطفى

من جمعية الكتاب والمؤلفين العراقيين

الاخلاق في المجتمعات

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣١ ـ

المال والاخر يملك القوة لاستثماره والعمل على تنميته وزيادته ، وكانت الاخلاق الاجتماعية تتوزع الفئات وتقوم على اساس المباديء والقيم التي ترعاها كل فئة من فئات المجتمع ، ولكن الاخلاق ظلت تتابع خط سيرها العام وانتقلت هذه الاحساسات الاخلاقية التي تشبه نبضات قلب كريم من صدور المتحسسين بها والداعين اليها ، الى ان وصلت مجالس النواب والحكومات فادخلتها في صلب القوانين ، لتنتقل من كونها قانونا اخلاقيا تحاسب على مخالفته محكمة الضمير ، الى قانون وضعي تحاسب على مخالفته محكمة تحكم باسم الشعب دون ان تترك للاقدار محاسبة اولئك الذين لا يرجعون الى جادة الصواب الا اذا وجدوا اقوى منهم يرغمهم على ذلك . وانها لخطوة عريضة تلك التي خطاها المجتمع الصناعي في حقل التحرر ، بالقياس الى خطى التحرر في المجتمع الزراعي . فرقيق الارض ظلوا مستعبدين الاف السنين دون ان يستطيعوا تحرير انفسهم الا في فترات قصيرة تشبه توهج الذبالة في المصباح قبل ان تنطفيء . ولكن المجتمع الصناعي حقق تحرر الفئة العاملة من سلطان الالة عليها في مدى قرن كامل على وجه التقريب . ولعل سبب ذلك كله لا يعدو ان يكون سوى سرعة التطور في جمود الميادين وفي مختلف المجالات . فسرعة التطور لا تحتمل بقاء الاوضاع الاجتماعية على حالها لان جمود المجتمع جمود للتطور ذاته . والحضارة الصناعية التي اتخذت العلم جوادا لها قد انطلقت على متن الريح وركبت للجواد جناحين واردفته بمحرك من صنع الانسان ، فكان هذا التجاوب وهذا الاقبال على الحياة الجديدة شعارا اخلاقيا نفذ الى ضمير المجتمع فهزه هزا عنيفا ودفعه للتجاوب مع الاوضاع الجديدة بشكل قد يدهش الناظرين الى ظواهر الامور ، ولكنه تجاوب طبيعي عند من ينظرون الى بواطن الاشياء ويخضعون الاسباب والنتائج للتحليل والتعليل المبنيين على قوانين المنطق والعلم .

اما الخاصة الثانية من خصائص المعاني الاخلاقية في المجتمع الصناعي فهي ان المجتمع بعد انشطاره بحكم توزع رأس المال الى فئتين فئة ارباب عمل وفئة عمال ، وقيام الفئة الوسطى بينهما ، فقد اقترنت في هذا المجتمع المعاني الاخلاقية المتعلقة بسلوك الانسان وتهذيبه وانطباق مشاعره مع الاتجاه الانساني العام ، كما اقترنت المعاني الاخلاقية فيه بالقيم الاجتماعية ، واضحى الدفاع عنها دفاعا عن وجود فئة بأكملها ، ولم تعد الاخلاق سلوكا مهذبا فحسب بقدر ما اضحت التزاما لمبادىء السياسة والاجتماع ووضع الحلول لاصلاح الامراض الاجتماعية كما اضحت المعاني الاخلاقية تقييما للافعال التي تصدر عن افراد معينين بحيث تمس نوعيتهم الاجتماعية، ونوعية الوسائل المستعملة والاهداف التي يسعون اليها. وبانتقال الاخلاق من نطاق السلوك المهذب الى نطاق الالتزام الهادف او الالتزام بعقيدة من العقائد ، انتقلت الاخلاق من كونها احساسا الى كونها فكرا وعلما ، لما رافق التطور الاجتماعي من تطور فكري وعلمي ، بحيث ارتقت مدارك الانسان الفكرية ونمت ملكاته العلمية واضحى يستزيد من فيض الحضارة الجديدة ، وصارت له خطة وهدف يسعى اليها واوشك ان يكون له موقف من حضارة العالم ، موقف اخلاقي يوجهه في الطريق التي ينبغي على الانسان ان يتابع المسير فيها ليؤكد ذاته ويكتشف انسانيته . ولقد ادى مثل هذا النضال القاسي المرير في حقل الاخلاق الجديدة لتتناسب مع التطور الاجتماعي في المجتمع الصناعي الى ترسخ المعاني الاخلاقية الجديدة في ضمير الانسان الجديد وشمولها كل خطوة من خطواته في طريق حياته ، وانبثقت عن هذه المعاني الاخلاقية فلسفات جديدة تعالج الانسان كموضوع قائم بذاته، وتحلل مواقفه من هذه الحضارة الصناعية وتكشف عن افراح قلبه ومأساة وجدانه في آن واحد ، وتحاول ما استطاعت ان تبرر سلوكه المصيب او الخاطيء ، فتقوم بذلك كله الانسان حسب فلسفات جديدة تحاول ان تفهم الانسان وتضعه حيث يجب ان يكون من العالم الذي يعيش فيه ، والطبيعة التي يكتشف خفاياها ، والحياة التي يريد ان يدرك اسرارها .

اما الخاصة الثالثة فهي الاتجاه بالاخلاق اتجاها علميا صرفا قائما على الحقائق المادية التي يمكن اكتشافها بالحواس وبالوسائل العلمية الاخرى ودراستها على انها علم قائم بذاته له اصوله وقوانينه . وهذا الاتجاه ليس وليد الحماسة المفتعلة لكل ما هو علمي او طبيعي بقدر ما هو انعكاس تقتضيه ضرورة الوصول الى الحقيقة ، ان لم تكن الحقيقة النسبية التي تناسب مكانا وزمانا معينين. لان الدراسات التي وجهت للاخلاق قد نفذت الى صميم العمل الاخلاقي وقامت مدارس وتشعبت هذه المدارس تبعا لتشعب الاراء فيما بينها بصدد تحليل المفهوم الاخلاقي ودراسته والخروج منه بنتائج معينة وتطبيق هذه النتائج على الوقائع المعروضة باسلوب علمي صرف . ولم يكن الهدف من ذلك كله هو عزل المفاهيم والقيم الروحية عن التأثير في المجتمع مع ما جاءت به من الزامات ادبية او اخلاقية او قانونية ، بقدر ما كانت طبيعة المجتمع الصناعي تقتضي مثل هذا المنهج العلمي الذي حدد منابع المعاني الاخلاقية في نفس الانسان ولتصويرها وتحليلها ، وتفسير السلوك الانساني والعاطفة الانسانية وارادة الانسان التي تقدم على فعل الخير ولو لم تستطع ان تتجنب الشر . وكذلك تفسير الفعاليات البشرية المقرونة بالبحث عن السعادة والطمأنينة وايجاد اللذة التي تنجم عن كل عمل يقوم به الانسان في معاشه ومأكله وملبسه ومشربه ، والتدقيق على هذه البواعث كلها والانفعالات كلها والتوفيق فيما بينها وبين طبيعة الانسان وواقع حياته والظروف الطبيعية وغير الطبيعية التي تمر به وبمجتمعه ، فتلزمه حينا حدود مثله العليا واحيانا تضطره للخروج عليها. وبذلك كله ، فان المجتمع الصناعي قد هز شجرة الاخلاق القديمة هزا عنيفا بحيث اسقط اوراقها وثمارها وحاول ان يمدها بما يغير لها من طبيعة هذه الاوراق والثمار ، حتى اذا وقفنا على ما انتهت اليه حرية الفرد وجدنا انها بدأت حرية سياسية ثم اقتصادية ، ثم اجتماعية، ثم شخصية ، ولم تقف حركة التطور لمفهوم الحرية عند هذه الحدود بل مست المعاني الاخلاقية للمجتمع الزراعي ، وبخاصة مفهوم حرية المرأة اذ ان الواقع الذي انتهت اليه حرية المرأة ما اورث المرأة سلوكها الاجتماعي، انما هو واقع معاش معترف به .. الامر الذي حدد الى حد كبير ، دروب التطور التي مست حياة الانسان ، متخطية الجنس واللون والنوع ، ناظرة للانسان كانسان ، ولم يحدث ذلك الا من جراء الايمان بالعلم وبالحضارة الجديدة التي اخضعت للتبدل كل القيم المتوارثة عن المجتمعات القديمة رعوية كانت ام زراعية . وقد ساعد انتشار الحضارة الصناعية على قيام المدن وولادة واجب العمل على كل فرد الذي هو حق في نفس الوقت ، والنظرة الاخلاقية القاسية التي يوجهها المجتمع الى كل فرد قادر على العمل دون ان يعمل ، والى كل مجتمع لا يهييء اسباب الرزق لكل فرد سدت في وجهه ابواب الرزق رغم حرصه على ايجادها ، مما وفر للانسان شيئا من الاستقلال الداخلي يوازي الشعور بالسيطرة عليه من قبل المجتمع والدولة في نفس الوقت ، ولكن ضمن حدود لا يطفى فيه شعور على شعور ولا تفقد فعالية الانسان فضيلة المبادهة الفردية والانطلاق في العمل المبدع حتى ابعد الحدود التي ينشرتها حضارة العصر لانسان العصر .

هذه هي الخصائص الثلاث للمعاني الاخلاقية في المجتمع الصناعي ، فاذا اردنا استعراض وحدة المعرفة الانسانية التي هي وحدة الفكر البشري ووحدة الشعور الانساني ووحدة الوسائل والغايات ، وجدنا ان الفكر البشري ، لم يستقل استقلالا حقيقيا عن باقي المؤثرات مثل ما هو مستقل في المجتمع الصناعي . فالاخلاق ليست ايجابية احيانا ، انها سلبية في احيان كثيرة . وقد وقفت الاخلاق السلبية موقفا عدائيا من تحرر الفكر وتطوره . وكم من مفكرين اعدموا ورواد قضية قد احرقوا بالنيران، وكم من ضحايا ذهبت فدا . للتحرر الفكري من الاخلاق

السلبية التي كانت شعاراتها « لا تفعل كذا ولا تقدم على كيت » . والفكر البشري اذا كان قد استقل في المجتمع الصناعي فانه قد حصن هذا الاستقلال بالكثير من احترام الانسان واحترام حريته ومكتسبات نضاله الاجتماعي، ولم يصبح الفكر قوة مستقلة مؤثرة في تطور الانسان والعالم الا عندما ادرك المفكرون انفسهم ان الفكر قوة لا تغلب لانها قوة العقل ، والعقل اقوى ما في الانسان.ونظرة تلقى على خريطة العالم تعطينا ان وحدة الفكر البشري لم تكن حقيقة واقعة مثل ما هي اليوم . اذ ان وحدة الحضارة ووحدة قضاياها ومشكلاتها قد اوجدت وحدة في الرأي الذي تكونه الاحاطة بما في العالم الخارجي للانسان مع ما في عالمه الداخلي بالذات وهكذا تبدأ وحدة الفكر قضية فردية تخص انسانا معينا ، ثم لا تلبث ان تشمل الناس كافة وتنتقل عبر الحدود والقارات لتشمل العالم كله . وقد اضحت وحدة الفكر البشري قضية من القضايا التي تعكس مضمونا اخلاقيا حيا يلتزم به المؤمنون بالفكر وبالعقل والعلم وبوحدة الحضارة ، يدفعهم ذلك الايمان الى المزيد من الاصرار على مناقشة قضايا الانسان بعيدا عن اللون والعروق والجنس واللغة .. وقريبا قريبا من انسانية الانسان وافكاره الانسانية وقيمه العليا في الحياة . ولقد تخطى الفكر البشري حوافز الاخلاق الوضعية التي قد تتأثر بالعصبيات والعواطف الوطنية ليؤكد من جديد ان الفكر البشري ليس عدوا لكل خلق وضعي او وطني بقدر ما هو مع كل خلق لا يكره العالم من اجل محبة الوطن .. بل يحب العالم كله لانه يحب الوطن . وقد اكدت وحدة الفكر البشري في المجتمع الصناعي ان القيم الاجتماعية ، والاخلاق من هذه القيم الاجتماعية ، لا ينبغي ان تتعادى ليسود بعضها بعضا ، بقدر ما يجب ان تتصافى وتعمل على اعلاء كلمة الانسان ورفع مداركه ومعارفه الى المستوى اللائق به وبانسانيته .

ان هذا كله تؤكده وحدة الشعور الانساني على المستوى الاخلاقي . اذ ان الحياة الاجتماعية في العصر الحديث ونتيجة لتطور المجتمع الصناعي ومحاولته التأثير في حياة الناس كافة ، قد ربطت بين تطور الفكر وتطور الشعور ، وهما خاصتان انسانيتان ، وجعلتهما متوازيين يعملان بقوة واحدة نحو غاية واحدة . كما كان من خصائص وحدة الشعور الانساني على المستوى الاخلاقي ، ان وحدة الشعور هذه قد تطورت في اتجاهين احدهما فردي بحت وخاص بحت ، متعلق بالانسان وحده كممثل لهذا العالم الذي يزعم نفسه انه جرم صغير وفيه انطوى العالم الاكبر كما يقول الشاعر العربي . وكذلك احساس هذا الانسان انه لا يحجبه عن البشرية كلها احد ، فهو صورة العالم وهو اطار الوجود . وهو الذي تعيش في عالمه الداخلي كل المعاني الاخلاقية الرفيعة التي هي موقف من الافراد الاخرين ومن المجتمع ومن العالم ومن حضارته بالذات ومن قضاياها السياسية والاجتماعية والروحية .. وهو يجد نفسه تبعا لانتشار وسائل المعرفة البشرية بين الناس قد اكتسب مزيدا من رقة الشعور والعاطفة للمشاركة في القضايا التي يتعرض لها الناس في مختلف البلاد والقارات . واضحى تصرف انسان ما في اخر الدنيا مدعاة لاسف البشرية كلها اذا كان تصرفه لا يتفق واخلاق العصر ونبالة الانسان ذي الفكر الحر والشعور السامي . ونجد سر ذلك في تطور المعاني الاخلاقية ، ففي المجتمع الرعوي كان الفعل السيء لا يعاقب عليه الا اذا عرف مرتكبه ، وفي المجتمع الزراعي كان الفعل السيء لا يعاقب عليه الا اذا عرفت نية مرتكبه ، ولكن في المجتمع الصناعي وعلى صعيد وحدة الشعور الانساني اضحى العقاب على الفعل السيء قاعدة اخلاقية ، ولو لم يعرف من هو الشخص الذي ارتكبه .. ووحدة الشعور الانساني اليوم لا تقبل الظلم من غريب على قريب ولا العكس بل هي لا تقبل الظلم والقسوة ولا الجور على اي انسان في هذا العالم . وهذا تطور واي تطور قد خطا بالسلوك البشري من سلم السلوك المتوارث الى سلم السلوك المأمول وصار الامل واقعا معاشا واضحت قضية احترام الانسان قضية انسانية .

وتأتي وحدة الوسائل والغايات لتعكس مضمون العمل الاخلاقي بصورة جذرية فلا تصدر الا عنها وبسببها ، بعد ان كانت وحدة الفكر البشري ووحدة الشعور الانساني ووحدة الوسائل والغايات في المجتمعات القديمة تتفاوت في التطور تبعا للظروف والاحوال فلا تلتقي الا قليلا وقد تظل منفصلة بعضها عن بعض الى فترات طويلة ، ولكنها في المجتمع الصناعي متلازمة متناسقة متحدة لا تنفصل . فانسان المجتمع يعيش حياته وقد اختلطت فيه بتناسق وانسجام وحدة الفكر البشري ووحدة الشعور الانساني ووحدة الوسائل والغايات . والانسان في المجتمع الصناعي ذو قيم ومثل عليا ومعان اخلاقية تضفي على فكره البشري حرية الاعتقاد وحرية الايمان بالطبيعة والعلم ، كما تضفي على وحدة الشعور الانساني فيه المزيد من الحساسية بكل ما له صلة بقضية ما من القضايا الانسانية ، وتحاول قدر ما تستطيع ان توحد وسائله وغاياته في الحياة مع مقتضيات الايمان بوحدة الفكر البشري والتسليم بوحدة الشعور الانساني . فاذا اردنا تقييم الاعمال من حيث اخلاقيتها ولا اخلاقيتها وجدنا ان الاعمال الاخلاقية ما كانت منسجمة والصفات الثلاث في الانسان تلك التي تحرك في نفسه المشاعر وفي عقله الافكار وفي ارادته العزم والتصميم لتكون حياته الداخلية وحياته بين الناس صورة للخلق الذي مخضت عنه حضارة العصر ومشيئة التاريخ . وبخاصة بعد ما تأكد الانسان انه غير مضطر لان يتناقض في حياته من اجل التوفيق بين وسيلة العيش اليومية وغايته البعيدة كما ان المجتمع والدولة وكذلك المجتمع الانساني والدولي ، قد وجدت انه ينبغي للانسان ان يعيش كريما حرا ، قد امن حاجاته ما دام يعمل وفق ما تسمح به قواه . وصارت الحياة الاجتماعية السليمة تكفل للعاملين وللراغبين في العمل ولو لم يجدوه مستوى كريما من العيش . وتطور المجتمع الصناعي من مجتمع لا يجد غضاضة في تشغيل الاطفال اكثر من اثنتي عشرة ساعة في بدء النهضة الصناعية ، الى مجتمع يكفل حياة هؤلاء الاطفال وحياة ابائهم ، باخضاعهم لنظام التأمين الاجتماعي ، فتوشجت بذلك في المجتمع الصناعي وسيلة الانسان التي ينبغي ان تكون خيرة لتحقق له السعادة ، بغاية الانسان التي يجب ان تكون هي الاخرى خيرة لتجلب له السعادة النابعة من المعاني الاخلاقية الاصيلة التي تؤكد ذلك وتسعى اليه وتصر عليه ما وسعها الاصرار ولم يعد امام الانسان الا ان يغني عقله بالمزيد من الفكر البشري الصافي وان يمد قلبه بالصافي من الشعور الانساني النبيل ، ليفرش دروب حياته بوسائل نبيلة واهداف سامية ، ليكون بحق جديرا بلقب الانسان الذي عرف نفسه وخبر مجتمعه ، واكد انسانيته .

منشأ المعاني الاخلاقية

انقسم الرأي في منشأ المعاني الاخلاقية بين الدارسين الى عدة اراء ابرزها القائل بان الاخلاق رغم ما يشوبها من ردود الفعل الغريزية والفطرية لا تصالها بالطبيعة الانسانية تنشأ عن القيم الفكرية وبالتالي عن الفكر وعلى رأس هؤلاء القائلين نجد كانت وهيغل .

كما نادى الفلاسفة الماديون وعلى رأسهم انجلز وماركس بان القيم الاخلاقية والفكرية في مجتمع ما هي نتيجة انعكاس التطور المادي لوسائل الانتاج فيه . .

فالاخلاق عند الفريق الاول المنادى بأن الفكر اصل كل شيء هي عطاء الفكر والروح وليس لادوات الانتاج ولا لوسائله ولا لطبيعة التطور الاجتماعي علاقة في منشأ الافكار والمعتقدات والقيم الاخلاقية .

بينما ينادي الفلاسفة الماديون بان الفكر مادة جامدة اذا لم تحتك بالمجتمع، فاذا احتكت بهسالت حياة وحضارة. فالعادات والتقاليدوالطباع والاخلاق والقيم الاخرى هي كلها انعكاس عن طبيعة المجتمع ودرجة تطوره في سلم الحضارة ، فاذا تطور المجتمع وجدنا ان العادات والتقاليد والطباع والاخلاق والقيم الاخرى هي ايضا تتطور ولا يمكن لها ان تتطور الا اذا تطورت وسائل الانتاج تطورها الفاعل ، فالاخلاق التي يخلفها مجتمع زراعي هي غيرها التي يخلفها مجتمع رعوى ، وهي غيرها في المجتمع الصناعي .

ويرد على هؤلاء الفلاسفة الماديين اولئك الفلاسفة العقليون بان الفكر

ليس مادة جامدة ولكنه مادة مطورة ، ولا يمكن لاي تطور مهما كان نوعه ان يحدث الا اذا كان الفكر له باعثا .. وهذه العقائد الكبرى والرسالات الاجتماعية والمبادىء المطورة لعالم الانسان ، هي كلها فكرية .. هكذا بدات وهكذا تابعت طريقها الى ان اخذ بها الناس وسلموا بقوتها وتأثيرها على نفوسهم وعقولهم . واننا اذا كنا نريد ان نحصر اسباب التطور كلها في سبب واحد هو تغير وسائل الانتاج فاننا كمن يحاول ان يغمض عينيه عن الشمس ذاتها ليبحث عنها في اشعتها المتسربة عبر ثقب مفتاح باب من الابواب المغلقة .. ان الفكر اصل كل شيء وهو القيمة ، وهو الجوهر ، وكل ماعداه فباطل وزائل .

ويمتد الجدل بين الفريقين وهو وان لم يكن جدلا واقعيا ولكنه مثبوت في كل راي من اراء الفريقين بشكل يكاد يؤلف محاورة لا نهاية لها تدلل على ان الفريقين معا لم يغفلا في الاساس نظرية الغريزة والعادة المتاصلة في اعماق الانسان ، وكذلك لم يغفلا الدافع لكل عمل فردي او اجتماعي ابتغاء اللذة او السعادة ، وان العمل الاخلاقي هو ما كان متوافقا وشعور الانسان في الحياة ومنسجما وهدفه واندفاعه نحو هذا الهدف بالوسائل كلها والغايات كلها ، وهو كذلك ما وافق الضمير البشري فلم ينغص على الضمير طمأنينته ولا هدوءه .

ولكن المدارس تشعبت بعد ذلك لتعليل اسباب تطور المفاهيم الاخلاقية التي تبرزها المعاني الاخلاقية على نطاق الاخلاق كعلم من العلوم الحديثة وتعنى بسبب تحلل القيم القديمة وقيام قيم جديدة محلها في كل مجتمع من المجتمعات الانسانية على الدوام .. وهم وان ردوا الاسباب كلها للفكر لانه يطور الحياة الاجتماعية ويطور بالتالي العادات والتقاليد ، فيمس هذا التطور اخلاق المجتمع في الصميم . الا ان الفريق الثاني-فريق الفلاسفة الماديين اقتصر في تبيان دور الفكر على المرحلة الثانية .. وعد اسباب التطور في المعاني الاخلاقية الى تطور وسائل الانتاج ، الامر الذي لا يمكن حسمه في سطور قليلة ، ولكن لا بد من التأكيد على ان عمليةالتطور في ذاتها هي عملية معقدة .. ولا يحلها قولنا ان الفكر هو الاساس ، او ان تغير وسائل الانتاج هو الاساس ، بقدر ما ينبغي ان نحلل عملية التطور نفسها التي هي رغم كونها عملية معقدة الا انها في حقيقتها علمية طبيعية سواء اكانت معقدة ام سهلة ..

هناك اذن رغم العسر الذي يطبع حركة التطور بطابعه المعقد ، نظرة نلقيها على المجتمع الانساني كله لنجده مقسما الى مجتمعات بشرية تختلف عن بعضها بعضا ، لغة وتاريخا وعادات وتقاليد واخلاقا ومستوى تطور وحضارة . هذه المجتمعات ، وهذا مؤكد - قد اخذت تتصل بعضها ببعض منذ القرون الوسطى وقبل ذلك بقليل اتصالا للتجارة والاطلاع وخفت الاتصالات الناجمة عن الحروب . وهذه الاتصالات تطلع القائمين بها على ما عند الشعوب الاخرى من علوم وفنون ومدنية فتسعى لان تقلدها فيها وتنسج على منوالها . وهذه الحروب الصليبية التي نقلت الى الغرب صناعتي الحرير والزجاج .. الى ما هنالك من اكتسابات تسجلها الشعوب من خلال اتصالاتها المستمرة .

ويأتي بعد عامل الاتصال ، عامل وحدة الفكر البشري ووحدة المشاعر الانسانية ووحدة الوسائل والغايات التي تضع على بساط الواقع المعاش كل ما في الحياة الانسانية من علوم وفنون واداب في خدمة الانسان ايا كانت لغته او امته او طريقته في الحياة .

ثم جاءت الحضارة الحديثة بما يسرته من وسائل الاتصال بين الشعوب كالطائرة والباخرة والقطار والسيارة والاذاعة والهاتف والبرق والتلفزيون ، مما افسح المجال لاية امة كي تطلع على ما عند الامم الاخرى، وفي الوقت نفسه يمكن لها ان تقدم لهذه الامم التي اخذت عنها ، ما عندها هي بالمقابل .

واننا نعلم جميعا ان كل اختراع مادي لا بد من ان يكون فكرة في البداية ، وقد يشوبها الكثير من الخيال فاذا انتقلت الفكرة الى صورة على الورق امكن لها ان تنتقل الى حيز الواقع .. ولكن لا بد لنا من ان نذكر ونؤكد ان الحضارة المادية قد ولدها قبل كل شيء الايمان بالعقل والعلم واخضاع مظاهر الحياة للدراسة والتحليل والمنطق ، كما رافق الايمان بالعقل والعلم ، ايمان بالانسان وبتحرره من كل ما يحده عن ان يؤكد ذاته ويبدع وجوده . وسواء اكانت القيم الاخلاقية في مثل هذه الحالة بعد ان تغيرت في المجتمع الصناعي عما كانت عليه في المجتمع الرعوي او الزراعي ، قد تغيرت نتيجة لتغير الفكر والتفكير او لتغير وسائل الانتاج ، فان تغيرها حقيقة واقعة لا ينكره احد .. والذي يعنينا ان نؤكده ونحن على عتبة تطور اجتماعي كبير يمس صميم مجتمعنا العربي ، ان التطور الانساني ليس بهذه السهولة ، والمراحل التي قسمناها هي مراحل افادتنا في الدراسة .. فلا يزال هناك حتى اليوم مجتمعات بشرية اختلطت فيها المجتمعات بعضها ببعض حيث نجد المجتمع الرعوي وكذلك الزراعي والمجتمع الصناعي قد اختلطت بعضها ببعض الى درجة يصعب معها العزل للتأكد من طبيعة هذا التطور الذي مس حياة البشر ومس افكارهم ومشاعرهم ولكنه لا يزال بحاجة الى وقت طويل ليمس وسائلهم وغاياتهم ويضعهم حيث يجب ان يكونوا في مقاعد الريادة البشرية .

الاخلاق في المجتمع العربي

ان الحديثعن المجتمع العربي حديث يتصل اول ما يتصل بالارض العربية التي نحددها بين المحيط والخليج متخطين بذلك الحدود السياسية للدول العربية القائمة لاعتقادنا ان وحدة الشعب العربي هي حقيقة قائمة وهي اقوى من بعض الحدود السياسية التي تقوم بين دولة ودولة، ولان سير التاريخ سوف ينتصر في النهاية على الحدود السياسية ، لانه ما من عربي الا ويدرك بالبداهة انه اخ لكل عربي في دنيا العرب وان الوحدة العربية الشاملة هدف قومي يسعى له كل عربي مخلص لامته وعروبته .

فاذا تخطينا واقع الارض وقفنا قليلا عند واقع الامة العربية، الذي يتجلى في اللغة العربية والتاريخ العربي ووحدة الاهداف ووحدة الالام

والامال . فالنصر في اية بقعة عربية هو نصر في كل بقعة عربية ، والدم المسفوك دفاعا عن حق او كرامة فوق ثرى العروبة المقدس هو دائما دم كل عربي لانه دم غال يبذل في سبيل امال غالية .

والامة العربية اذا كانت تشكل واقعا جغرافيا واحدا ، وواقعا تاريخيا واحدا ، فانها ايضا تشكل واقعا اجتماعيا واحدا ، رغم اختلاف التطور تبعا للظروف السياسية والاقتصادية وعوامل التطور الاجتماعي التي رافقت قطرا عربيا ولم ترافق قطرا عربيا اخر وتتجلى وحدة المجتمع العربي في التقاء عدة اخوان من العرب في مكان واحد ، فاذا الكل عروبيون واذا الكل يلتقون عند صعيد الامة العربية واهدافها في التحرر من نير الغاصبين ، وخلق اسباب النهضة الشاملة التي يستفيد منها المواطنون العرب جميعا .

ان وحدة المجتمع العربي لا تمنع اختلاف بعض العادات والتقاليد وكذلك القوانين في بلد عربي عنها في بلد عربي اخر لان التجزئة السياسية وان لم تكن الاصل بقدر ما كانت الشذوذ على القاعدة قد اوجدت الاختلاف في المنابع التي استقى منها كل قطر عربي اصول تطوره وقواعد الاصلاح فيه ، وكذلك الاختلاف في نوع السلطان السياسي الذي خضعت له بحيث يمكن لنا ان نصنف مناحي التطور في ثلاثة اشكال هي اولا نهاية المجتمع الرعوى وبداية المجتمع الزراعي . ثانيا المجتمع الزراعي . ثالثا نهاية المجتمع الزراعي وبداية المجتمع الصناعي. فاذا اردنا تبعا لذلك دراسة الاخلاق العربية وجدناها مقسمة هي الاخرى حسب اشكال التطور الاجتماعي من الرعوى الى الزراعي ، ومن الزراعي الى الصناعي وكان هذا التطور الذي مس كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ، مقياس تقييمنا للمعاني الاخلاقية السائدة في هذه المجتمعات ، وهو بداية الدراسة الموضوعية للاخلاق العربية اليوم.. وما ينتظر لها ان تكون عليه في مقبلات الايام .

اننا وقد عرفنا نوعية الاخلاق في المجتمعات الثلاثة الرعوى والزراعي والصناعي امكن لنا ان نحدد طبيعة الاتجاه الذي يسير فيه المجتمع لنعرف طبيعة المعاني الاخلاقية التي قد تلازم تطوره . الا ان ذلك لا يؤخر او يقدم في طبيعة التطور الاخلاقي لان الاخلاق لا يمكن ان تنهج ويوضع لها قواعد الا اذا نهج تطور المجتمع ووضعت له قواعده واصوله .. ذلك ان الفكر من خلال تماسه مع المجتمع، يحدث التطور الذي لا بد منه ، وهذا التطوروحده هو السبيل الوحيد لقيام المعاني الاخلاقية التي تناسب كل مرحلة من مراحل التطور بحيث يكون التأثير متبادلا اذ كلما تطورت الاخلاق الاجتماعية ، تطور المجتمع وكلما تطور المجتمع تطورت الاخلاق الاجتماعية فالاخلاق في هذا المجال قوة فاعلة ومنفعلة في آن واحد ولكن يشترط لذلك شرط واحد ، هو ان توجد في مجتمع يعتبر نفسه متطورا ومؤمنا بهذا التطور .. والا اذا كان المجتمع محافظا على مكتسباته الحضارية وقيمه ومثله العليا ومعانيه الاخلاقية فان الاخلاق قوة تتأثر ولا تؤثر ، تندفع ولا تقوم بدفع المجتمع الى الامام ولو خطوة واحدة .

ومجتمعنا العربي وقد حوى نماذج ثلاثة للقيم الاجتماعية والمعاني الاخلاقية تبعا لوجود هذه الاشكال الثلاثة من المجتمعات ، يعيش اليوم مرحلة تخبط وقلق ، فالمجتمع الرعوى الذي اخذ يندمج في المجتمع الزراعي يقاوم اشد المقاومة الكثير من التقاليد والاعراف والاخلاق السائدة في المجتمع الزراعي ، ولا يمكن ان يقبل بحال من الاحوال تقاليد واعراف وعادات المجتمع الصناعي واخلاقه . والمجتمع الزراعي اذا كان يحاول ان يهضم المجتمع الرعوى من حيث الشكل ليفرض عليه مضمونه في العادات والمعاني الاخلاقية ، الا انه هو الاخر يقاوم عادات المجتمع الصناعي واخلاقه الجديدة ويعتبرها مسببة في تخلخل قيمه وتشتت وجوده ، لانه يعرض كيانه كله للذوبان وسط هدير الالة واخلاقها ، وقيم الحضارة الصناعية الكاسحة .

اما المجتمع الصناعي او النموذج للمجتمع الصناعي في واقعنا العربي ، فهو بداية وحقيقة وكيان . فهو بداية لانه وافد جديد كفرع في شجرة مسنة فيها وقار الاشجار الكبيرة .. ولكن للفرع ايضا طراوة الشباب واخضرار الامل . وهو حقيقة لانه حقيقة لابد منها اذا اردنا ان لا نكون منعزلين عما حولنا .. فالحياة الاجتماعية في المجتمع الدولي هي حياة المجتمع الصناعي ما في ذلك شك .. والمجتمع الاقوى اليوم هو مجتمع الدولة التي تعرف كيف تصارع خصومها بسلاحهم واشد من سلاحهم وتعرف كيف تبذهم في مضمار المباراة السلمية القائمة على انتاج السلع والادوات الاستهلاكية وخدمة الحضارة . فاذا اردنا لمجتمعنا العربي ان يعرف بشخصيته الى العالم ليكون له كلمة في مشكلات هذا العالم فاننا مضطرون للاخذ بما اخذت به الامم التي سبقتنا في نطاق الاصلاح الاجتماعي وفق مبادىء المجتمع الصناعي غير غافلين عما يميز شخصيتنا القومية وعاداتنا ومثلنا العليا في الحياة . وهو كيان لانه اذا ترسخ فقد شمل كل شيء .. والحضارة القائمة على اسس التقنية والعلم ، هي حضارة قد اشبعت المجتمع الصناعي ترفا حضاريا وقطعت كل جذور الماضي بينه وبين المجتمعات القديمة ، رعوية كانت أم زراعية ، واذا كانت بعض المعاني الاخلاقية السائدة في المجتمع الرعوي يمكن لها ان تعيش ولو قليلا من السنين في المجتمع الزراعي ، الا ان المعاني الاخلاقية التي كانت سائدة في المجتمع الزراعي لا يمكن لها ان تعيش في المجتمع الصناعي ، لان المجتمع الصناعي نفسه لا يمكن ان يقوم كما ينبغي له ان يقوم الا اذا ولدت المعاني الاخلاقية التي تبرر ولادته وتنهي العناصر التي تقاوم هذه الولادة بالذات .

فاذا استعرضنا بعض المواضيع الكبرى التي لا تزال تحتمل المناقشة بين المفكرين العرب الذين يدعون الى قيم المجتمع الزراعي ومثله ومعانيه الاخلاقية ، والمفكرين الاخرين من العرب الذين يدعون الى قيم المجتمع الصناعي ومثله ومعانيه الاخلاقية ، وجدنا ان الخلاف لا يزال دائرا حول قيمة العلم والايمان به ، واخضاع المظاهر الكونية والقيم المطلقة لسلطان العقل ، واعتماد المنطق في تقبل النظريات المتوارثة عن القديم او رفضها، ومفهوم الملكية وحق الملك ، والحرية والديمقراطية ، وسلطان الالة ، وحقوق رأس المال وكذلك واجباته ، قبل الفئات العاملة وفائدة الدولة وهل يجب ان ترث كل عناصر الولاء في المجتمع الزراعي والرعوي ام انها يجب ان تبقى بعيدة عن كل ما يمس هذه الحقوق الشخصية فلا تكون الا شرطي المرور الذي يطفىء الانوار ويشعلها دون ان يكون مولجا بالتعرف على هوية راكبي السيارات وميولهم وامزجتهم وطباعهم ورغباتهم واهدافهم في الحياة . فاذا نفذنا الى اعماق المشكلة وجدنا ان هناك مقومات لكل نهضة ينبغي ان تتم ليستكمل المجتمع العربي مقومات وجوده ومن هذه المقومات حاجة المجتمع للعلم.. ولا نقصد بالعلمهنا بصورةمبدئية الا التعلم لاصول القراءة والكتابة . فالامية في مجتمعنا العربي هي حجر عثرة امام كل تطور صحيح . ولا اعتقد ان هناك انسانا واحدا متعلما يمانع في ان يعلم من حرموا من نعمة القراءة والكتابة .. وكذلك لا اعتقد ان هناك انسانا واحدا ممن حرموا هذه النعمة يمانع في ان يتعلم القراءة والكتابة بالشكل الذي لا يعيقه عن القيام بواجباته الشخصية والعائلية . فاذا استطاع المجتمع العربي ان يتخلص من الامية ومن الجهل في نفس الوقت فانني اعتقد انه سيحل نصف مشكلاته القائمة حلا جذريا .. لان القراءة والكتابة تقود الانسان تلقائيا لان يطلع على ما في المجتمع من عادات ويحاول ان ينقدها نقدا ذاتيا وكذلك لان يطلع على ما لدى الاخرين من افكار ، وان يقارن ذلك كله بما لدى العالم من علوم وفنون وآداب وحضارة ، وان يجاوز في ذلك دور المقلد الى دور المبتكر ويفسح الطريق لرواد الاصلاح كي يروا امامهم جمهورا يفهم ما يقولون له ويتحمس لما يدعونه اليه ، لان دعوات الاصلاح تبقى دعوات جوفاء الى ان تلقى الاذان التي تسمع والعقول التي تفهم ، والقلوب التي تحس . ومجتمعنا العربي بحاجة الى العلم والثقافة واني لاعدهقصورنا عن محو الامية ، قصورا اخلاقيا يمس منا الصميم وان كان من دواعي الامل ان المواطنين العرب شعروا بهذا النقص فأخذوا يسدونه بشكل يدعو الى الافتخار والاعجاب حتى لتقع العين على معدمين يمسكون عن افواههم رغيف العيش ليقدموا بدلا منه صفحة بيضاء لاولادهم يكتبون عليها رسالة الانسان عندما يفقه سر الحرف وقدسية الكلمة .

ان القضاء على الامية قضاء على الجهل ، وطريق للمواطن العربي كي يتصل بأخيه العربي في سائر الاقطار العربية ، واخلاق العالم غير اخلاق الجاهل لان العالم يخضع ظواهر الحياة ، والمجتمع للمناقشة فيرفض ما لم يوافق عقله ويقبل ما جاء متفقا واياه ولا نريد ان ندخل في جدل عقيم اذا قلنا ان تأخرنا عن هضم المجتمع الصناعي ومثلـه ومعانيه الاخلاقية ، امر سوف يضعنا على مفرق الطرق .. لاننا مضطرون لمسايرة التطور الذي بلغه المجتمع الانساني .. وكل تأخير تحصدّ الاجيال القادمة عواقبه السيئة . واتخاذ وسائل المجتمع الصناعي وكذلك القواعد التي قام عليها امر ينبغي له ان يتم ولو قاومته فئات تريد لنفسها البقاء وسط عالم لابقاء فيه الا لمن تسلح باسلحة اليوم .. اما اسلحة الماضي فلا تفيد اليوم شيئا .. واننا مدعوون فرادى وجماعات لان نؤكد ان الايمان بالعلم لا يناقض الايمان بالروح وخلودها .. وان تحرير العقل العربي من بعض الاوهام والاباطيل التي لازمته في عصور الانحطاط ضرورة حياة ووجود وبقاء . وان الاخلاق التي تدعو الى السلوك النبيل والاداب الحسنة هي اخلاق جميلة ، ولكن الاخلاق التي تدعو الى احترام الذات الانسانية وعتقها من قيود الكبت والذل والارهاق دون النظر الى الجنس او اللون او النوع هي ايضًا اخلاق جميلة ينعم بجمالها ملايين البشر دون ان يعتريهم مكروه .. بل على العكس انهم يعيشون سعداء وفي غاية السعادة . وان الاخلاق التي تعلو على حب العائلة او القرية او المدينة لتحب الوطن كله وليس الوطن الصغير الذي نعيش فيه بحدوده السياسية انما الوطن العربي الكبير ، لهي اخلاق وطنية قومية ينبغي ان تكون قانونا اخلاقيا يلتزم به كل مواطن ليحكم بموجبه على كل من يخون الوطن ويطعن العروبة . وان الاخلاق التي تدعو الى العدل في معاملة الضعفاء والمحتاجين بان تتبناهم الدولة باتخاذها نظام التأمين الاجتماعي، لهي اخلاق تتفق ومبادىء الانسان في عصر التحرر والعدالة والحق . وان الاخلاق التي تدعو الى ان يكون الانسان العربي بوحدة فكره ووحدة شعوره ووحدة وسائله وغاياته ، انسانا يعيش في وطن كريم كما يعيش الكثير من المواطنين في مختلف الاوطان في العالم لهي ايضا اخلاق يمكن ان تكون قدوة ومثالا . وان الاخلاق التي تتعدى نطاق السلوك المهذب لتناقش سلوك الانسان في الحياة وتخضعه لمقاييس الحضارة والتطور لهي اخلاق قد تكون مثالية في مجتمع كمجتمعنا وواقع كواقعنا ولكنها ينبغي ان تكون هدفا من اهداف مجتمعنا العربي الذي استيقظ على هدير الالة في المعامل تصنع القماش ، وفي الحقول تبذر الحب او تحصد السنابل ، وفي السماء تحمل الركاب والبضائع وعلى الطريق تهدر ماضية الى غايتها ، وان يقظة مجتمعنا العربي لن يعقبها رقاد ، لان الرقاد معناه الموت ، بل سيعقبها قيام وسعي وجد وعمل لتحرير الانسان العربي من بعض المعاني الاخلاقية التي تمنعه عن التطور الصحيح ، بعد ان سرت في دمه وفي وجوده الحي ، كثير من المعاني الاخلاقية الجديدة التي ان مضى بها الى النهاية اقام الوجود العربي الاصيل واحتل مقعده في الصفوف الاولى بين المجتمعات العالمية وساهم في حضارة العصر كما ساهم في حضارة الامس ذات يوم .

الاخلاق في المجتمع الانساني

هذه جولة في عالم المعاني الاخلاقية على توالي العصور والمجتمعات تعكس الى حد ما وجهة نظر – قد تكون شاملة – في الاخلاق والمجتمع ، قد لا تضع تعاريف ومعادلات وقيما لكل ما هو اخلاقي ، ولكنها على التحقيق تضع في اطار المناقشة بعض المعاني الاخلاقية المتوارثة لدراستها وأخذ الصالح منها ، وكذلك التعرض بمزيد من الموضوعية لبعض المعاني الاخلاقية في المجتمعات الحديثة للاستفادة منها في تطور المجتمع العربيّ وجعله اكثر تماسا مع الحياة .

ومن خلال هذه الجولة العامة ، تبرز قضية الاخلاق في المجتمع الانساني والقيم الاجتماعية التي حرص رواد علم الاخلاق والمصلحون الاجتماعيون على التأكيد عليها والدفاع عنها لانها لم تكن تمثل أمالهم العظمى في الحياة بقدر ما كانت تمثل وجودهم كله وعالمهم كله .

وقبل ان نتحدث عن الاخلاق في المجتمع الانساني ينبغي ان نسأل هل هناك مجتمع انساني قد عرفته البشرية قديما ؟ أم وعته الان؟ أم تحلم به في المستقبل ؟ ..

والجواب على هذه الاسئلة ان المجتمع الانساني كان أملا ولا يزال أملا .. ولكن هل سيبقى املا ؟

ان انسان الغابة قد حطم الغابة وخرج الى النور ليتصل بالاخرين، وان انسان القارة ركب البحر ليتصل بانسان القارة الاخرى . وان انسان المجتمع البشري الذي خبر شيئا من حياته وحياة الاخرين حوله ، حاول ان يديم هذه الخبرة لتشمل شيئا من سني المستقبل ، وكان ان تطورت البشرية الى ان وصلت الى ايامنا التي نعيشها نحن ، فعرفناها مثل القلب الكبير الذي ينبض حبا وخوفا اذا نزلت بالارض نازلة فمست شعبا من الشعوب ، وقد زادت معرفة العالم بعضه ببعض من هذه الاواصر الشعورية والفكرية التي متنت قواعد السلوك الاخلاقي عندما يعطي حكمه على فعل من الافعال سلبا او ايجابا ، واضحت الاخلاق الانسانية تتعدى نطاق الدول والشعوب والقارات لتمس اول ما تمس ضمير الانسان ووجدانه ، وتكسبه الى جانبها ولو عارض بذلك مصالحه الخاصة ومصالح بني قومه العامة .

وقد تطورت المعاني الاخلاقية تطورا فرديا ان صحت التسمية او صح التعبير . وكان هذا طابعها في التطور الى ان قام المجتمع الصناعي وولدت الحضارة الحديثة ، فأضحى تطورا جماعيا بمعنى ان المعنى الاخلاقي كان يصدر عن شخص ويمس شخصا آخر .. ولكنه اليوم يصدر عن مجموعة ليس مجموعة أخرى ، ولم يعد السلوك الاخلاقي يقوم بحسب سلوك فرد واحد لانه اضحى يقوم بحسب سلوك مجموعة كبيرة من الناس . وبذلك ولد مفهوم الاخلاق الاجتماعية ولادة جديدة ليس لها علاقة بالاخلاق القديمة لا شكلا ولا مضمونا . وقد سرت هذه المعاني الاخلاقية مع الافكار والمبادىء الاجتماعية داخل حدود الامة وخارج حدودها فاذا وضعنا في الاعتبار ان الاخلاق الحديثة عدا عن كونها سلوكا هي موقف من حضارة العالم والتيارات الفكرية المتضاربة فيه ، عرفنا ان مرحلة من التطور بلغتها الاخلاق في المجتمع الانساني الذي ولد رغم ان الدولة الانسانية لم تقم بعد . ونظرة نلقيها على خريطة العالم ترينا ان تيار الافكار المتصارعة ينقسم الى قسمين كبيرين – وهذا خاص بالامم التي اخذت بالحضارة الصناعية وتوطدت اركان المجتمع الصناعي فيها – وان هذين القسمين يكاد يكون لكل منهما موقفه من المعاني الاخلاقية ومنشأ هذه المعاني وان هذا كله سوف يؤدي بالضرورة اما الى استمرار المفهومين او غلبة احدهما على الاخر وعندئذ تترجح كفة على كفة بدءا من حدود الدولة وانتهاء عند حدود العالم ، ومنذ اللحظة التي يتكون فيها المعنى الاخلاقي الى اللحظة التي ينطلق فيها هذا المعنى الاخلاقي ليشكل قاعدة لضمير الانسان ووجدانه بصفته انسانا يعيش في المجتمع الانساني .

ان الاخلاق في المجتمع الانساني لا يمكن ان تقوم الا اذا انتهت اسباب الحقد والضغينة والبغضاء بين المجتمعات في العالم . وقامت حياة دولية سليمة على اساس من التعاون والحب وتأكدت الى حد كبير ومطلق ان الذات الانسانية هي أغلى ما في الوجود ، وهي الجديرة بالاحترام وتوفير اسباب المعرفة والحياة النبيلة لها .. رغم فوارق القيم في المجتمع الواحد والمجتمعات الاخرى ، ورغم مظاهر الجنس والعرق واللون ، لان الانسان انسان بعقله وقلبه ، لا بجلده او كونه ذكرا او انثى او بانتمائه الى سلالة تدعي لنفسها التفوق على باقي السلالات .

ونضال الانسان الواعي ينبغي ان لا يقف عند تحقيق التربة الصالحة لتنبت فيها اخلاق جديدة تهدف الى اعزاز الانسان واعزاز مجتمعه الصغير ، بقدر ما ينبغي له ان يستمر لتحقيق المعاني الاخلاقية على مستوى انساني ، لان انتصار الانسان على مخلفات القرون المظلمة في اي مكان هو انتصار لكل انسان في أي مكان يعي وجوده ويشعر بضرورة التأكيد على ذاته الانسانية وقيمها الخالدة وسعيها لتحقيق

المجتمع الانساني الفاضل .

والمجتمع الانساني اذا كان املا منذ الف او الفي سنة ، فهو حقيقة واقعة اليوم .. لان انطلاق الانسان عن هذا الكوكب الارضي الى الكواكب الاخرى غدا ممكن التحقيق ، وهذه خطوة الى الامام سوف تقرب ولا شك بين شعوب الكرة الارضية ، ومجتمعاتها ، والبشر الذين يعيشون عليها لاقامة وحدة بشرية تتخطى الحدود والسدود والقيود الوضعية ، لتنطلق في طريق انساني بحت وتستطيع تحقيق حلم الانسان باكتشاف العالم المحيط بارضنا وارتياده .

فاذا بحثنا عن بذور الاخلاق في المجتمع الانساني وجدناها نامية متصلة اشبه بعرق الذهب في الممر الصخري الطويل .. فهي مقاومة كل دعوة عنصرية وكل اتجاه للتفريق بين الناس بحسب اجناسهم او الوانهم او عروقهم . وهي دعوة الى احترام الذات الانسانية واعزازها والرقي بها الى مصاف القيم الخالدة في الحياة . وهي دعوة الى نبذ القوة كوسيلة لتفاهم بين الامم وفرض شروط الغالب عى المغلوب . وهي تكريس لمبادىء العدالة والحق وعدم التعدي على حق من الحقوق سواء كان هذا الحق لانسان واحد او لامة صغيرة . وهي نضال لا ينتهي ضد كل تبرير لخرق قواعد العدالة والحق باسم المصلحة العليا لامة من الامم . وهي ايمان بحرية الناس . لانهم ولدوا احرارا وينبغي لهم ان يعيشوا في رحاب هذه الحرية .

ووقفة عند المنابع الصافية لاخلاق امتنا العربية التي جف بعضها وعرقلت جرى بعضها الحشائش والطحالب ، نجد ان المعاني الاخلاقية في مجتمعنا العربي سواء عاشت في مجتمع رعوي او زراعي او صناعي هي المعاني الاخلاقية التي اغنت وجودها في الانسان فاكدت حريته وتحرره ، وفتحت له طريقا للمعرفة واكتساب منجزات البشرية في جميع الحقول . وجعلت من الانسان العربي مواطنا في دولة وفردا في مجتمع وانسانا من رعايا المجتمع الانساني ، لان امتنا العربية قد التقت ذات يوم على محاربة كل تفرقة عنصرية او جنسية او لونية ، او طائفية ، ولا تزال على ذات الطريق . واذا كانت قد تلكأت بعض الوقت فان يقظتها في العصر الحديث قمينة بان تجعلها رائدة الامم الى تحقيق آمال الانسان العربي في المعاني الاخلاقية الرفيعة التي تسود مجتمعنا الصغير ، والمجتمع الانساني الكبير مؤكدة في ذلك كله ان الانسان هو حقيقة هذا العالم الخالدة وما عداه فباطل وزائل .

حلب — علي بدور



الحاوي وتجربة الشعر الحديث !

بقلم رئيف عطايا

عودنا الاستاذ رجاء نقاش في مقالاته الاولى ، ومنها مقاله الجدي في شعر احمد عبد المعطي حجازي ، على الدقة في البحث والاحاطة والترصن . غير ان الاستاذ نقاش في عنوان مقاله الاخير « هل للشعر الجديد فلسفة ؟ » يطمع القارىء بالكثير ولا يعطيه غير القليل القليل . فبينما يوحي العنوان بمحاولة جدية لتعميق مفاهيم النقد المستمدة من الشعر الجديد وبالكشف عن جوهر ذلك الشعر ، نرى ان المقال يكاد لا يتصدى الا لكل ماعرف وشاع ـ خطأ او صوابا ـ عن الشعر الجديد واصبح من المعطيات المبذولة في الصحافة الادبية . ويقيني ان القارىء المطلع لم يعد بحاجة لمن يكرر له ويعيد بان « للشعر الجديد فلسفة فنية ترفض التلخيص وتتجنب التجريد وتميل الى التشخيص والتجسيد » . ومع ذلك فان هذه ليست فلسفة ، بل بديهة من بسائط الفن طالما نبه اليها نقاد الجيل الماضي امثال محمد مندور وسيد قطب ، وطالما تعرض لها نقاد الجيل الحاضر دون ان يسبغوا عليها جلال الفلسفة .

ويتم للاستاذ نقاش تحديد الشعر الجديد حين يسمه بعد التجسيد بالواقعية . والتجسيد ، في رأيه ، الشكل الفني للواقعية وهي مادته الحتمية . وقد لا نخالفه لو كان يقصد بالواقعية واقع الانسان في وعيه ولا وعيه وفي كهوفه وذراه وما يمتد بينهما من انبساط وتعقيد في طبيعته ، وواقع الانسان في ذاكرته التاريخية السحيقة وفي حاضره والتفاته الى مستقبله . غير ان الاستاذ نقاش لا تعنيه سوى واقعية العصر الحاضر . لذلك فاته ان اهم ما يميز الشعر الجديد في افضل نماذجه التعبير عن التجارب الكلية التي تحيط بجميع عناصر الذات وجميع عوالمها ، من سفلية وعليا ، وجميع ما يقابلها من عناصر الوجود ، فتكون تجارب ذاتية ـ موضوعية في ان واحد معا . وان الشعر الجديد فيما دون تلك النماذج لايزال غير جديد ، تشيع فيه ترسبات السوداوية الرومانسية والضرب المدوي الملول على وتر الفردية المنغلقة .

تقول عفاف بيضون في قصيدة « تموز » لسلمى الجيوسي انها : « تسرد لنا باسلوب عادي باهت ، تفضيلها لشهر تموز وما يحمله اليها هذا الشهر من احلام وذكريات عائلية متنوعة ... انها لم تتمكن من تخطي حدود الفردية الضيقة ، ولم تحاول ان تنفذ بتجربتها البسيطة الى تجربة وجودية صحيحة . » وما ان تحاول سلمى ، والمراة بوجه عام ، ان تتخطى حدود اهتماماتها الشخصية ومحيطها العائلي ، الى قضايا المصير العربي وتجربة الانسان الكلية في هذا العصر ، حتى تشيع في شعرها نبرات غير صادقة ، كنبرات نازك في قصيدتها عن الجزائر . ولا يبقى للمراة بين تلك النبرات الا نبرة صادقة واحدة ، هي نبرة الوتر الشخصي متى مست صميمه قضية عامة . وهذه سلمى لا ترى في ماساة فلسطين القومية غير مصيبتها الشخصية بفقدان املاكها وبيتها وتشتت ابناء اعمامها .

كذلك لسنا نعثر في شعر المراة على عالم سفلي وجحيم متفجر . وقد تنجذب الى تلك المنطقة وتحيط بها عن تجربة ، او تخيل يثيره حب الاستكشاف ، غير ان الرياء الاجتماعي الذي يتقنع بالحشمة والتطهر يقوم في كيانها قيام رقيب صارم ينكر عليها ان تصارح نفسها فيما جربت او تخيلت فكيف يسمح لها ان تعلنه في الشعر ؟ وكان من ثم ان تحتم على شعرها ان يحصد من العاطفة زبدها الابيض وزهرتها الشذية ، وان يغفي عن التيار المزلزل وعن الجذر الضارب في الاعماق . فجاء ، لذلك ، شعرا بعيدا عن الاحاطة بالتجارب الكلية .

وقد يتارجح الشعراء الذين ذكرهم الاستاذ نقاش بين الفردية المنغلقة وهي صفة غالبة على شعر المراة ، وبين نزعة اجتماعية تحيل ذات الشاعر الى رقم في عداد ارقام ممسوحة الشخصية . وليس هذا مانطلبه لحضارتنا العربية الجديدة ، وما يحاول الشعر الجديد تحقيقه حين يعي رسالته ويسعفه الفن على تاكيدها . ومن هنا كان التجديد النفسي الفكري مرحلة يجب ان تسبق مرحلة التجديد في الشعر . فليس التجديد صبوة ، بل هو واقع نفسي قومي حضاري على الشاعر ان يتقمصه قبل ان يسعى الى اشاعته في نفوس الاخرين . وليس تارجح الشاعر بين الذاتية والاجتماعية سوى مظهر للتيه الذي يعانيه، ولافتقاره الى اسس فلسفية توحد بين الذات والمجتمع دون ان تتحيف من حق الواحد لحساب الاخر . لقد تحتم اذن على الشاعر ان يكون صاحب نظرة في الحياة ، عليه ان يبدعها بنفسه ، او يستمدها ، اذا امكن ، من الفكر العربي المعاصر . والتارجح ضياع يورث السوداوية الرومانسية ، والحزن العميق الذي عده الاستاذ نقاش ظاهرة وجودية ، والوجودية براء منه . اذ انها في جوهرها الاجتماعي تحد وعنف وثورة على المفاهيم التقليدية المتحجرة . ولا مجال للحزن في عملية تستهدف التحطيم والبناء .

والتجارب الكلية التي يعانيها ويعبر عنها الشعر الجديد بافضل نماذجه ، لاتقف عند واقعية الحاضر ، ولا تنسخ الواقع ، بل ترى الشعر رؤيا تنير تجربة تحيط بالتاريخ السحيق وتجعل الماضي والمستقبل حاضرين في الحاضر . وهذا ما نجده متحققا الى حد بعيد في شعر خليل حاوي الذي اهمل الاستاذ نقاش الاشارة اليه ، لسبب نعجز عن التكهن به وعن تخمينه . قالت عفاف بيضون في شعر هذا الشاعر : « اما خليل حاوي فقد استطاع ان يخلصنا من طغيان الفردية وجموحها ، وان ينفذ بهذه الفردية بعد ذلك ، من تازمات الحياة العربية العامة ... الى ذلك الغوص الوجودي ، حيث ماساة الانسان ومشاكله الجوهرية » ان تجربة خليل تجمع الامداء والاعماق من تجربة الانسان ، في حاضره وماضيه ، وهي تفاعل بين الذاتي والموضوعي ، الصعيد الفني الذي ، كما يقول نسيم نصر ، انطلق اليه خليل حاوي في طليعة الرواد الشعراء بالحرف العربي . ولعل خير مايمثل هذا الاتجاه في شعره قصيدته « السندباد في رحلته الثامنة » ، ففيها تتحد ذات الشاعر بذات امته العربية وذات الانسان المطلق ، وفيها تتم عملية الانبعاث بعد الموت في رحلة داخلية تاريخية اجتماعية . لهذا كله قال جورج طرابيشي ! « ان خليل حاوي قد طرح مشكلة الخلق الشعري ، على صعيد وجودي قومي في آن واحد ، كما لم يطرحها شاعر عربي اخر حتى اليوم » ... وهو « شاعر الانبعاث العربي الاول الذي طرح تجربة الانبعاث على صعيد حضاري مطلق » .

وقد حاول مطاع صفدي ان يقيم نتاج الشعر الجديد تقييما نهائيا حاسما ، فحكم ان افضله نتاج عبد الصبور والسياب والحاوي . وبدا له ان عبد الصبور قد عبر عن الجانب اليومي المأساوي من حياة الشاب المعطل عن الثورة ، وان السياب قد بقي عنده السحر الاول للفظة وللتموج الشعري القديم ، والانفعال الجانبي تجذبه صورة وتدفع به صورة اخرى ، فتكون قصيدته معرضا للتفكك والاندياح كعادة شعراء العرب ، ويهيمن على شعره الندب الجنائزي . وهو ماعده الاستاذ نقاش حزنا عميقا محببا . كذلك يقول مطاع ان السياب انسان انفعالي لم تسعفه انفعاليته على الاطلالة المطلقة . اما عن الحاوي فيقول انه لم « يقدم لنا مشاعر وفنا ... لم يحقق اكثر ما تمنيناه لشعرنا من مزايا الشعر العصري : الوحدة والايقاع الانساني والشمول الفكري فحسب ،بل اتانا ، نحن الثوريين العرب ، بطريقة في الثورية والانعاث ، بمذهب يوحد

بين مطلق ميتافيزيقي واحساس ارضي ، وتلاقح بين شبق الجسد وشبق الفكر .. »

هذا من حيث الرؤيا والتجربة ، مادة الشعر ، اما من حيث الشكل والتعبير فان الحاوي قد تحامى افة الشعر الجديد الذي ينزع احيانا منزع السرد وعرض الظواهر والاحداث باسلوب وصفي متراخ مسترسل على مانشهد في نتاج السياب ، وذلك بان حول الاسطورة الى رمز جعله اساسا خفيا للقصيدة تحسه في نظامها ووحدتها ، ولا يبرز فيها على سبيل التعليل والتفسير . كذلك نفي من الشعر الجديد آفة التبسيط والسطحية ، بما شحنه به من رؤى تستكنه اسرار الوجود ، وتجارب مشحونة بالمضاعفات الشعورية ، وبالحقائق على مستويات مختلفة ، ومن بعضها حقائق الواقع .

ولعلنا نكون الان قد اخرجنا الشعر الجديد من حدود تعريف الاستاذ نقاش له بالواقعية ، واعطينا للتجسيد معنى اخر اعمق من معناه واصدق. ذلك انه عن تجسيد الرؤيا والتجربة في صور حسية واقعية تتولد الرموز . وهي صورٌ مكثفة تعني ماتعنيه في ظاهرها ، وفي الوقت نفسه توحي بامداء قفصية يشف عنها ذلك الظاهر . للمتذوقين من الرمز بنسبة قدرتهم على تفتيق مضامينه الغنية . فمنهم من يقف عند مدلوله الظاهري، فيتهم الشعر الجديد بالواقعية ، كما فعل الاستاذ نقاش ، ومنهم من يقدر على النفاذ الى ابعد امدائه . فالرمز قريب بعيد في ان واحد . وتولد الرمز عن رؤيا هي ضرب من الحدس الذي يصهر الذات بالموضوع يجعله الاداة الطبيعية الضرورية للادراك وللتعبير عن التجارب الكلية ، الذاتية ــ الموضوعية .

كذلك نرى ان الرؤيا التي تنصب على تجربة حضارية تتجسد في رموز تجعل الماضي والمستقبل حاضرين في الحاضر ولهما ماله من يقين العيان والمشاهد (١) . ولما كانت الرموز الحضارية تراثا عاما فهي تقوم بدور اشراك الاخرين في تجربة الشاعر ، وحملهم على الاستجابة لها . ومن يتتبع تطور الحاوي من دراما الموت وطلائع الانبعاث في « نهر الرماد » الى ان تم الانبعاث بيقين مبرم في « الناي والريح » ، يقع على محاولة تلقائية مستمرة في ابداع الرموز المستمدة من واقع الحضارة العربيةوحكاياتنا الشعبية . ان جميع رموزه تعيش في الضمير العام ، وليست كاغلب رموز السياب مستمدة ، كما يقول احسان عباس ، من مصادر غير عربية .

وبعد هل اذكر الاستاذ نقاش بحقيقة تاريخية كان يجب الا يغفل عنها ، وهي ان السياب مر في مرحلتين ، اولاهما مرحلة الالتزام الشيوعي، والثانية مرحلة اعتناقه للقومية العربية ، وفيها قد افاد الكثير من رموز الحاوي الذي كان اول من استخدم العنقاء وتموز وغيرهما في التعبير عن الموت والانبعاث في الحياة .

رئيف عطايا

الجامعة اللبنانية ــ بيروت

(١) بعض النظريات الشعرية في هذا المقال مستمدة من احاديث للشاعر خليل حاوي .

الى الاستاذ رجا النقاش

بقلم علي الجندي

... لن أقسو فيما سأقوله ، على العزيز رجاء النقاش فانا معجب به ناقدا حصيفا منذ ان طلع على دنيا النقد شابا لا يمنعه حماس الشباب من ان يكون موضوعيا الى حد بعيد غالبا ، رصينا الى درجة الادهاش ، متعمقا الى حد الترهب للحقيقة ... ، ولا أنسى مقالاته في « الاداب » وهو غصن لم يتجاوز الخامسة والعشرين .. والتحليل الدقيق الذي اتصفت به جل ابحاثه .. حتى لقد كاد يصبح مختصا بتقديم دواوين الشعر ومجموعات القصص ... ، فقد غدا له قراؤه المعجبون في « الجماهير » الدمشقية المحتجبة ولعل هذا الماضي من الاعجاب به ، هو الذي دفع بي الى الاسراع بقراءة مقاله في عدد الاداب الممتاز . واذا بي واسف ان اضطر للقول : أفجع به .. ناقدا ، وانسانا املت له المستقبل الرائع في عالم النقد ، العالم الذي نحن أحوج ما نكون فيه للنقاد الحقيقيين.

ولاسارع الى القول حتى لا يتهمني القراء بالفرضية ، ان علي الجندي الذي عناه في مقاله شاعر اخر غيري ، تجاوزني في العمر والقدر كثيرا.

لقد كنا مرة في ندوة ادبية نتحدث عن النقد في الوطن العربي، فباهيت برجاء النقاش موهبة تبشر بامال كبيرة ، ولهذا ، فانني قلت انني فجعت به شخصيا عندما قرأت مقاله الاخير.. لقد بدا لي احد متعصبي النقاد في السنين التي سبقت السنوات العشر الاخيرة ، فهو اما انه ينسى الحقيقة او يتناساها في سبيل اشياء غير الحقيقة ! او انه غير فاهم لحقيقة الشعر الحديث ، او غير مطلع على اخر تطوراته ، لقد كان يعجبني فيه وهو طالع جديدا على عالم النقد والادب انه ــ بالنسبة لعمره على الاقل ــ مثقف قرأ اكثر مما ينتظر لشاب مثله ان يقرأ ...

اما اليوم ، في مقاله الاخير ، فقد رأيت عنده اراء لا توحي الا بأنه اما قد توقف عن تثقيف نفسه ، او لم يعد يأبه بفهم الاشياء الا كما يريد هو ان يفهم ..

انه يبدأ مقاله ، وقد وضع خصما له اناسا لم يعد أحد يحس بوجودهم ، اناسا لم يعودوا اكثر من مومياءات سخيفة ، او تفاهات في الادب تدافع عن كيانها أمام زحف الجيل الادبي الطالع ... أمثال بعض الذين يناقش رجاء النقاش لهم رأيا موتورا في الشعر الحديث ان دلل على شيء فعلى عدم فهم اصيل فيه لمعنى الشعر حديثا كان او قديما ؟!..

وهو بعد ان يقسم فلسفة الشعر ذلك التقسيم التعسفي يسارع الى تقديم (ليستة) الاسمـاء على طريقة النقاد المهترئين ، فاذا بنا امام اسماء ليس لها من الشعر الحديث الا الشكل الخارجي والبهرج ... السياب – الى حد ما – على الرأس والعين .. والحجازي حبيب وأمل مستقبل ، وعبد الصبور نصفه مقبول ، وكذلك السيدة سلمى تقريبـا .. اما نازك فرومنسية، تعبر عن استسلام عجيب، وذلك بعيد عن ثورية الشاعر العربي الحقيقي .. ولست ادري كيف يغفل الاخ رجاء ركنـا مهما في الشعر العربي الحديث ، الحديث كروح جديدة تدخل عالم شعرنا ، ويكاد هذا الركن ان يكون نقطة الانطلاق الحاسمة في تطور شعـرنا الجديد ، الحديث ، هل ذلك تغاض وتناس ، ام جهل ، والامران سـواء في السوء .. هل قرأ العزيز رجاء خليل الحاوي وهو على حـد تعبير اكثر من ناقد شاعر الانبعاث العربي الاول ؟.. هل قرأ « نهر الرماد » و « الناي والريح » والمجموعتان نشرتا غالبا في الاداب ، وهما تنطلقان من صميم الروح العربية الجديدة ، في نهر الرماد تنكر لكل القيم البالية ، وثورة عليها ، واعـدام لها .. من خلال تجربة وجودية محترقة لهـا رموزها المبتكرة ودلالاتها الحضارية الكبرى .. ومن ثم انطـلاق الـى و«الناي والريح» والمجموعتان نشرتا غالبا في «الاداب»، وهما تنطلقان من سندبادي ، وبحث عن الحقيقة ، ثم عودة لارضنا العربية ، والفكـر مثقل بعطاياه .. واكتشاف لحقيقة الامة العربية .. وانها الهـدف والسبيل ، انها الحقيقة ..

لقد دهشت للاستاذ رجاء في جهله او تجاهله لشاعر ، قد يكـون لي عليه اكثـر من نقد، ولكنه اصبح شيئا لا يمكـن التحدث لا عـن شعر الالتزام للقضية العربية في الصميم ولا لقضية الشعر عامـة ، وفلسفته دون التعرض له ..

ذلك ليس كل شيء في مقال الاخ رجاء ، ان فيه من انـواع الخلط اشياء عجيبة ، انه يذكر كل شيء عن عبد الصبور مثـلا ونسي افضل ما كتب وهو « الظل والصليب » .

وهو لم يذكر في الاتجاه الماركسي كما سماه ، شعراء لعلهم فـي مثل اهمية البياتي ، كاظم السمـاوي والشرقاوي وحتى .. شوقي بغدادي .. وهو لا يكاد يميز بين الالتزام بالمعنى السارتري والمعنى الماركسي .. والفرق بين المعنيين كبير ، وهو اذ يتيه علينا بذكره لبايرون وشيـلي يوزع الالقاب بكرم ملكي قديم عثماني ، فهو لا يتورع عن اطلاق لقـب « اكبر شاعرين في اوربا في القرن التاسع عشر » عليهما ، ناسيا انـه كان معهما كيتس وبودلير ، وكوليريدج وورد ثورث وو .. هل اعدد اسماء اخرى ، ام اعتبر ذلك ادلالا سخيفا على القراء ؟!

وهو لو قرأ مقدمة الدكتور لويس عوض فقط ، « لبروميثيوس طليقا » لرأى من كان بايرون وغير بايرون ... ، ولخفف قليلا من حدة احكامه .. ثم ، ماذا يمنع ان يكون الانسان ثائـرا (ودون جوانا) معـا ، هل كـل الملتزمين لقضايا شعبهم قديسون ؟!

والاستاذ رجاء ، عافاه الله ، ادهشني اكثر ما ادهشني في حديثه عن رمز (فينيق) ان فينيق يا اخي تعني بالاجنبية Phœnix وترجمتها بالعربية « العنقاء » وقد استعمل الرمز الدكتور خليل حاوي في اكثـر من قصيدة ، وهي – ولا بأس ان اوجز لك اسطورتها العربية – طائـر يرحل عن الجزيرة العربية ، وعند بعلبك يحترق ومن رماده تبعث الحيـاة من جديد ، ان فينيق – وخطأ ادونيس انه لم يستعمل معناها العربي – رمز كتموز والاله ادونيس وحتى اوزوريس لبث الحياة من جديد مـن الترميم والموت والرماد .. غريب يا اخي رجاء ، ما عهدتك تتعجل تفسير الاشياء بل اعرفك رصينا ، موضوعيا لا تصدر الا عن منطق ..
ثم ما هذه التعابير التي تستعملها بغير دقة ؟؟ ماذا تعني بتعبيرك : « فلسفة فنية ثابتة » الخوض في بحر الفلسفة ايها العزيز صعب ، والكلمة هنا لا تستعمل الا عـلى قدر المعنى ، والا فحذار من الزلق ..
.. وانا في النهاية مثلك معجب بشاعرية بدر السياب ، ولعـلي مثلك ايضا معجب بشاعرية اكثر من ذكرتهم ، ولكن ، او لا ترى معـي انهم ، اذا سلكنا طريق مفهوم الشعر الحديث حقا نجد ان اكثرهـم يزل قبل الوصول ؟! .. ان الصورة عند السياب تكاد تضلله فـي تيه بريقها فتجعل القصيدة عنده متخلخلة فيها الف ثغرة ؟..

وعبد الصبور ، الا نحس عنده احيانا بجفاف وجفاء « الواقـع » لدرجة تكاد تخنق تجربته الرائعة ..

اما الحجازي ، الضليل ، فانه في « مدينته » « بلا قلب » كـان يبشر بانه شاعر الكنانه الاول ، ولعله سيكونه .. راميـا برأي النقـاد الذين يخيفونه كما يبدو .. واخيرا ، أرجو للاخ رجاء – وهو العزيز علينا تفكيـرا ، وعقيدة ، وكتابة الا تقتله اعمدة « الاخبار » الخمسة، والا يتوقف عن تثقيف نفسه ، والاهتمام من كل وجوده كما كان يفعـل لكل ما يتحدث عنه ... بموضوعيته ورصانته ، ومنطقيته المعهودة ... وبذلك كان لا يمكن له ان يتغاضى خلال اعجابه قوميا او شخصيـا بشعراء ، وينسى اخرين .. فالاخلاص للفن ، يعني استعـدادا للاخلاص لكل شيء.. وانني احس بالرغبة لنسيان هذا المقال العجيب .. وإلى لقاء قريب .

علي الجندي

« حول الموقف والقيمة في الالتزام »

بقلم : محمد كامل القليوبي

الاخطاء التي حملها مقال الموقف والقيمة في الالتزام للاستاذ عدنان ابن ذريل اخطاء لا يمكن السكوت عليها لانها تحمل معاني خطيرة وآراء لا نصيب لها من الصحة بالنسبة للاعمال الادبية ... ليس في شرقنـا العربي فقط الذي حصر فيه الكاتب المشكلة وانما في العالم كله ...

فلقد بدأ الكاتب بتحديد الالتزام ووصفه بأنه مأثرة ادبية يجب على الادباء ان يضعوها نصب اعينهم وعلى هذا الاساس اندفع مهاجما ادبنـا العربي لانه لم يراع هذه الحقيقة ثم اندفع متحدثا عن العوامل التـي تكسب الموقف الملتزم قيمته في العمل الادبي فقال ان الواقعية هـي العامل الاساسي والذي افهمه ان الواقعية بمعناها الحرفي لا تصلـح وحدها كمقوم للعمل الادبي وليس كل الواقع بصالح لان ينقل ليصنع لنا عملا ادبيا كاملا ملتزما ، والاعتقاد بان الواقعية هي اساس العمل الادبي فهم مادي لطبيعة العمل الادبي ، فالاديب بما له من نفس حساسة يملك المقدرة على ان يلتقط مواقف معينة تحدث في نفسه اثرا ما فتنطبـع بصورة قد تخرج مختلفة كثيرا عن الواقع المادي ولكنها أقدر على احداث الانفعال المطلوب كوحدة كاملة عنها كمجرد حدث مادي واحد ... فليس الالتزام بالواقع اذن هو الهدف من الادب ...

يقول الكاتب ان الواقع يجب ان يكون مادة الحديث ويتجاهل تماما انفعال الاديب بهذا الواقع فتأثر الاديب بهذا الواقع هو المادة الحقيقية لهذا الحادث والا لكان من الواجب علينا ان نكتفي بأعمدة الحوادث في الصحف اليومية وهي بدون شك اكثر واقعية من أي عمل أدبي ورغم هذا لم يقل احد انها تحتوي على قيمة ادبية من اي نوع .... فالواقع في الادب يجب ان يفهم على انه اكثر من مجرد نقل لحادث معين ولنتذكـر قول « ارسطو » في هذه المسألة :

« ليس الواقع هو ان نصور ما حدث ولكن نصور مـا يحتمـل حدوثه لا على حسب منطق الحياة التي نعرفها ولكن على حسب منطـق الحياة في القصة نفسها » ... هذه مسألة ... ولننتقل الآن الـى مسألة اخرى وهي وضع الكاتب للواقع كعامل اساسي في قيمة الادب الملتزم وهل الالتزام بموقف أو قضية ما يمنع التعبير عن هذا الموقـف

بوسيلة اخرى كالرمز مثلا .... لا اظن ... بل على العكس اعتقد ان الالتزام موقف . ما هو الذي يدفع الاديب الى اختيار الوسيلة التي يعبر بها عن موضوعه وقد تختلف هذه الوسيلة مرة عن اخرى ولكنها لا تحدد ابدا بمثل هذا التحديد الذي يطلبه الكاتب بان يكون الواقع هو الاساس في العمل الادبي الملتزم ....

وينتقل الكاتب بعد ذلك الى القول بان ادبائنا العرب يزعمون ان الانسان في ضياع وعلى ذلك فهم يجيزون التسكع والحرمان والفساد.. يقول يزعمون وينسى ان هذه هي مشكلة العصر الحديث ... مشكلة انسان العصر في جميع بلاد العالم ... مشكلة الضياع والاحساس بالانهيار والقلق وذلك للحالة التي فرضها هذا العصر بمتاعبه .... بآلاته التي تطحن كل شيء وبتقدمه الذي يغير كل شيء وبحروبه التي تخيم على الافق .... فالشعور بالضياع والقلق اذن ليس عندنا فقط نحن العرب وانما في جميع بلاد العالم ولولا ذلك لما ظهرت مسرحيات « جون اسبورن » الساخطة مثل « انظر خلفك في غضب » و « المهرج » ولولا ذلك لما وقف « كولن ولسن » ليعلن مذهبه اللامنتمي ولولا ذلك لما اندفع « صمويل بيكيت » بمسرحياته التشاؤمية الضائعة ولولا ذلك ايضا لما كتب « بوريس باسترناك » قصته الرائعة « دكتور زيفاكو » وقصائد « يورس زيفاجو » التي عبر فيها عن الضياع باكبر معانيه وعن ضياع الانسان في العصر الحديث عندما يجد نفسه مضطرا لان يعيش بافكار ومبادىء صنعها غيره ولم يؤمن هو بها .... الضياع موجود اذن ... ولانه موجود فمن الواجب ان يجد مكانه كمشكلة تحتل تفكير الادباء وتشغل بالهم ليس عندنا فقط بل وفي العالم كله .... اننا لا يجب ان نتجاهل هذه المشكلة بل يجب ان نضعها نصب اعيننا كمشكلة كبرى من مشاكل عصرنا .... فتجاهلنا لها لن ينفي وجودها ولكنه سيباعد بين الاديب وبين الحياة التي يحياها وسيضع حائلا كثيفا ليصبح الاديب العربي في عزلة تامة عن المجتمع الذي يعيش فيه ....

وبعد ذلك يفاجئنا الكاتب باتهام ادباء اليوم بالاباحة لمجرد تناولهم بعض الموضوعات الجنسية ويتناول الكاتب هذه المسالة بحيث لا يحدد اي الموضوعات يقصدها فالذي انتهى اليه الامر والذي فرضه المنطق وظروف العصر الحديث هو ان يحتل الجنس مكانه كمشكلة اجتماعية يجب على الاديب ان يتناولها بموضوعية تامة ، فلم يعد كافيا ان نغمض أعيننا عن مشاكل عصرنا لنتحدث عن ابطال اسطوريين كما يطالبنا الكاتب بان نفعل ... يطالبنا بالتحدث عن ابطال ثورة وتحرر ... ابطال عاملين ومناضلين ولكنه يطالبنا بأن نختارهم على مستويات أعلى من مستويات البشر وينسى او يتناسى ان الانسان ... اي انسان بمشاكله جميعها وبآلامه البسيطة والكبيرة وبضياعه هو البطل الحقيقي وراء كل شيء .. هو البطل الاسطوري الذي يطالبنا به وينسى ان الذي صنع البطل هو تلك الظروف وتلك الآلام التي يدعونا الى تجاهلها وعدم التعرض لها ... لقد عاب الكاتب على ادبائنا تناولهم للجنس في موضوعاتهم متهما اياهم متجاهلا ما قد يختفي وراء هذا التناول من مشاكل اجتماعية بل ورموز بعيدة لا يجد الكاتب احيانا وسيلة افضل منها للتعبير عما يرمي اليه ولعل في قصة « لوليتا » للكاتب الروسي الاصل « فلاديمير نابوكوف » خير دليل على ذلك عندما صور العلاقة بين اوروبا وامريكا على انها علاقة الرجل العجوز بفتاة صغيرة ماجنة .... ولقد صور « نابوكوف » تلك العلاقة في اطار جنسي صريح ورغم ذلك لم تقلل تلك الصراحة في تصويره للجنس من قيمة الرواية الادبية ولم تمنع من وضعها مع أعظم القصص التي ظهرت هذا القرن .... ولنقرا سويا حيثيات الحكم برفض طلب جمعية نيويورك لمكافحة الرذيلة بمصادرة رواية « فدان الله الصغير » للكاتب الاميركي « ارسكين كالدويل » التي تصور الانهيارات التي يمكن للازمة الاقتصادية الطاحنة ان تفعلها بالبشر .... فلقد جاء في حيثيات الحكم اننا لا يجب ان ننظر الى عبارات مفردة لنقيم حكما بالابتذال على شيء ما وانما يجب علينا ان نراجع الكتاب كله لتبين الغرض والمقصود منه ..

وينتقل الكاتب بعد ذلك الى مطالبة الادباء بالالتزام والاخلاص لقضية المجتمع الذي يعيشون فيه ومن هنا يظهر التناقض واضحا .... فالكاتب يدعونا للاخلاص لمجتمعنا ثم يدعونا الى ان نغمض اعيننا عن مشاكله الحقيقية .... فمن أجل هذا الاخلاص الذي يدعونا اليه الكاتب يجب ان نصور مجتمعنا بمشاكله الحقيقية ... يجب ان نفتح أعيننا على الحقائق الماثلة امامنا لا ان نتجاهلها .... اننا من أجل انسان هذا العصر الثائر المتحرر يجب ان نتحدث عن نقاط الضعف فيه بجانب نقاط القوة ايضا فليس معنى ان انساننا العربي اليوم ثائر متحرر هو انه انسان بلا مشاكل ... بل ربما زادت مشاكله في نواح كثيرة نتيجة للمسؤولية الكبرى الملقاة على عاتقه ، ومن هنا كان من الواجب على الاديب ان يركز الاضواء على هذه المشاكل .... فالكاتب يدعو للتفاؤل والثقة بانفسنا وينسى ان التفاؤل شيء والاخطاء والمشاكل الموجودة في مجتمعنا شيء آخر ولكن تلك المشاكل مهما عظمت لا تمنعنا ابدا من التفاؤل والثقة بانفسنا .... وكل تلك الاحاسيس التي يدعي الكاتب زيفها هي مشاكلنا .. اننا هنا في شرقنا العربي لم تزل تلك المشاكل لها جذور عندنا واحاسيس الضياع والقلق ومشاكل الجنس والمجتمع لم تجد بعد حلا لها ، ومن اجل هذا اصبحنا دعاة ثورة وتحرر لان الثورة هي الطريق لحل تلك المشاكل .... لذلك فانه ليس من المعقول ابدا ان ندعو الى تجاهل كل هذه المشاكل لنطلق في الهواء مثلا وشعارات نعلم تمام العلم اننا لن نصل الى تحقيقها الا اذا ركزنا الاضواء على مشاكلنا كلها بصراحة تامة بعيدا عن الزيف والنفاق ولنجعل امامنا دائما كلمات الفيلسوف الوجودي « هيدجر » التي يقول فيها :

« ان الحكمة والجمال وحقيقتنا في الوجود في ان نواجه واقعنا ووجودنا بشجاعة تخفف الكثير من بشاعة وقسوة هذا الوجود » .

القاهرة **محمد كامل القليوبي**

فلسفة ... ولا فلسفة !!

بقلم : اورخان ميسر

عندما اعلن عن صدور عدد خاص من مجلة « الاداب يبحث « الاتجاهات الفلسفية » كان السؤال الذي يدور في اذهان الادباء والقراء معا هو : ترى الى اي حد استطاع الادب المعاصر ان يهضم بعض اتجاهات الفلسفة وخاصة فيما يتعلق بالادب العربي المعاصر ؟ والحق ان كثيرا من المتخصصين في الفلسفة يأبون ان يجدوا ثمة فلسفة في الادب ، بالمعنى الذي يحرصون على فهمه من الفلسفة . كما ان بعض الادباء الاخرين يودون ان ينفوا عن انتاجهم باستمرار صفة التفلسف . ولعل الفلاسفة على صواب اذ قل ما عني الادب بان يكون جوابا عن مشكلة الحقيقة المطلقة . كما ان الادباء الاخرين على حق ايضا اذ لا يودون ان يصبح انتاجهم مجرد تسلسل منطقي صرف يجهض فنيتهم ، ورؤيتهم الذاتية الخاصة ، التي لا يبغون منها اعطاء حقيقة ، ولا يطمحون الى ايجاد مبرر موضوعي لها بقدر ما تحمل هذه الانتاجات من فنية هي كل حقيقتها .

ولسنا نحب ان ندخل الان في مناقشة مشروعية اقامة العلاقة بين الفلسفة والادب ، فذلك بحث نظري ، لم اجد على الاقل تناولا حقيقيا له في عدد الاداب الفائت . فلقد غلب على البحث طابعان ، احدهما حاول ان يربط بين الادب وبين مذهب واحد من الفلسفة هو المذهب الوجودي . فوقعنا على ابحاث متفاوتة وترجمات في هذا الميدان . والطابع الثاني حاول ان يستخلص من الادب العربي ، قديمه وحديثه ، شيئا من الفلسفة ، تبعد او تقرب من الوجودية على كل حال .

اما الابحاث التي تناولت بعض العلاقة بين الوجودية والادب في الغرب فلا شان لنا بها ، حسب الهدف الموضوع لهذا المقال . وانما الذي يهمنا بحثان بصورة خاصة تناولا ادبنا العربي من شعر وقصة ليدرسا اثر الفلسفة فيهما . الاول هو « الاتجاهات الفلسفية في الادب العربي المعاصر » للدكتور احسان عباس . والثاني هو « هل للشعر العربي الجديد فلسفة ؟ » لرجاء النقاش .

ان من يقرأ مقال الدكتور احسان عباس يلمح هذه الظواهر المتناقضة بين جنباته :

١ - يبدو ان المقال يقوم على تخطيط منهجي الى حد ما . وهذا التخطيط راعى النقاط التالية : اتخاذ الشكل وعاء لشرح فكرة فلسفية - دخول الافكار الفلسفية الخالصة في سياق الادب على نحو جزئي - التفلسف او اتخاذ موقف خاص في الحياة ذي طابع فلسفي مستنتج من ادب صاحبه - انشاء الادب في ظل نظرية فلسفية معينة او مبدأ فلسفي محدد .

والحق ان هذا التخطيط ، على ما فيه من جهد تنظيمي ، فانه لا يخلو من افتعال مدرسي وذلك لان الفقرة الاولى وهي « اتخاذ الشكل الادبي وعاء لشرح فكرة فلسفية » ليست من الادب في شيء. فقصيدة ابن سينا في هبوط النفس ليست سوى نظم مفتعل يمكن اعتباره مما يسمى بالمصطلح التقليدي « شعر العلماء » . واما تائية ابن الفارض ، وان كانت اقرب الى النزعة الفنية الا انها لا تزال اقرب الى النظم منه الى الشعر . وان ابن الفارض عندما يصبح شاعرا في بعض ابيات هذه القصيدة ، فانه ينتقل من اسلوب التدليل الفكري الى اسلوب الوصف العاطفي . وهكذا قل في مختلف الشواهد التي اتى بها صاحب المقال في هذه الفقرة ، فحاول فيها ان يستخلص ، بنوع من القسر ، معاني فلسفية متناثرة ، لا يمكن ان يعترف فيلسوف بها بالمعنى الصحيح . حتى لقد غرق الكاتب بين بعض الافكار العلمية التي يوردها الزهاوي عن اصل الانسان ، عن الكهرباء وعن الجاذبية فيجعل من كل هذا فلسفة واية فلسفة .

وكذلك فان الكاتب في الفقرة الثانية التي عنوانها « دخول الافكار الفلسفية الخالصة في سياق الادب على نحو جزئي ، » قد مزج بين مفهوم الحكمة التقليدي وبين الفلسفة . فبحث في بعض ابيات ابي نواس والمتنبي وابي العلاء المعري عن امثال هذه الحكم ، بينما في الحق لا يمكن اعتبار هذه الحكم مذهبا او نظرة فلسفية ، وانما كان في الوسع ، ان يدرس موقف المتنبي وابي العلاء المعري ، وابن الفارض وغيرهم ، ويستخلص من هذا الموقف العام دلالة على تجارب فكرية وانسانية عاناها هؤلاء دون ان نسمح لانفسنا بافتعال القصد الفلسفي من بعض ابيات هؤلاء الشعراء .

٢ - ولا يكاد ينسجم الكاتب مع عنوان بحثه الاصلي وهو « الاتجاهات الفلسفية في الادب العربي المعاصر » الا في الفترة الاخيرة من بحثه وهو المعنون بـ « انشاء الادب في ظل نظرية فلسفية معينة » . وهنا يعجل الكاتب بطريقة عريضة في بحث الموضوع الذي ينتظره القارىء من مطلع المقال . فلا نكاد نلمح في هذه العجالة الا بعض افكار غير معللة تتماوج بين اسماء شتى لكتاب ولكتب ، دون ان يسعى صاحب المقال الى دراسة اي انتاج للكتاب الذين اورد اسماءهم بصورة يوضح لنا كيف امتزج الفكر والادب عندهم .

٣ - عدم التمييز بين المستويات الفنية والنوازع الفكرية التي تفصل مثلا بين كاتب مثل احسان عبد القدوس وبين كاتب اخر مثل مطاع صفدي ، بين سهيل ادريس ويوسف الشاروني . ولست اعتقد ان احدا من القراء يستطيع ان يعتبر ان احسان عبد القدوس هو روائي جاد ومفكر مسؤول كالاسماء الاخرى التي اقترن بها .

٤ - لست ادري لماذا جعل من ليلى البعلبكي قاصة متفلسفة

في رواية « انا احيا » او من المحاولة الاولى لهاني الراهب وهي « المهزومون » عملا قائما على فلسفة . فلا شك ان الكاتب يستعجل فهم الفلسفة الوجودية كما انه سخي في اطلاق اوصاف الوجودية على اي انتاج « يحتمل صفات » كثيرة من اي نزعة من النزعات الفوضوية ما عدا ، الوجودية الحقيقية كما هي عند معلميها الاوائل .

٥ ـ لقد قال الكاتب انه يعجب كيف ان مطاع صفدي « الذي ينتمي الى مذهب يؤمن بقوة الانسان واصراره على المضي في سبيله رغم كل صعوبة ونقرأ قصصه فنجد شخوصا يمزقها القلق ويصرعها العجز والافيون والجنس » . وهو قول كما يرى القارىء ، يؤلف حكما عريضا يأخذ الامور من ظواهرها دونما تحقق او محاولة للتعليل على الاقل . فلقد اعتاد قراء مطاع صفدي ان يطالعهم بشخوص واقعية من الجيل ، مصورا مشكلاتهم الذاتية والاجتماعية والميتافيزيائية ليقدم لنا بذلك تجربة سبرية يشتمل على حقيقة الانسان العربي الصاعد دونما افتعال لبطولات خرقاء او يقيم اخلاقية سكونية . فادب التجربة هو ادب جدلي لايصور طرفا ايجابيا بدون طرف سلبي يقابله ، كما هو الامر عند كبار كتاب اليوم ، لورنس دورل وفوكنر وسارتر .

٦ ـ كل هذا يدل على ان الكاتب غريب عن الادب المعاصر في شرقه وفي غربه الذي حاول في مقاله ان يتسرره ابتسارا في مقاله . ولعل السبب في سوء وضع البحث يرجع اجمالا الى ان الكاتب يفهم من الاتجاه الفلسفي في الادب ان يجد « حكما » او « مواعظ اخلاقية » او « دعوات » اصلاحية او غير ذلك . ولم يستطع ابدا ان يفهم من الفلسفة في الادب المعاصر التجربة الانسانية ، التي يحاول الكاتب ان يقدمها لنا موحية بوجهة نظر تطرح مفهوما جديدا للعالم ، يأتي بمثابة تحرير شامل لوضع الانسان ازاء عقبات وجوده المادي والمعنوي .

وهكذا فان الكاتب جشم نفسه عناء بحث وضع وضعا في غير مكانه ، فبحث عنه في غير أبعاده ، او ابتعد بنفسه وبالقاريء عن الهدف الاساسي من هذا المقال . ماهو ، مثلا ، الانسان الذي يقدمه لنا يوسف الشاروني او مطاع صفدي وهما « الكاتبان الوحيدان اللذان يصح ان يبحث في انتاجهما عن رؤيه فلسفية للانسان والعالم » ؟ وكيف يقدم لنا مطاع صفدي ابطاله ضمن المواقف المختلفة ذات الابعاد الانسانية التي يصح لكل بعد منها ان يصبح موضوع تقييم فكري ووجودي معا ؟

والحقيقة ان كشف معاني التجارب التي يسعى الى تقديمها كتابنا الروائيون الشباب الاصيلون ليس بالامر السهل . لان هؤلاء الكتاب لم يظهر لهم بعد من يستطيع ابراز اسس فنهم وقيمة القضايا التي تتاجج من خلال معاناتهم ابرازا واضح المعالم والخطوط . ولا يزال مثل هذا الادب ، في اصوله الحقيقية وصوره المزيفة ، ينتظر الناقد المقيم الذي تحرر او عاني تجربة التحرر ، ليس من تراث اصفر فقط ولكن من رؤية محنطة للاثار الثائرة في ميدان ادبنا الجديد .

ان كاتبا يجهض مثل هذا البحث في نوع من احصاء الاسماء والكتب دون تمييز بين كاتب تعرض لمختلف المشكلات التي تطرحها الثقافة المعاصرة ضمن حدودها العالمية وبين اخر مابرح بعد يتهجى التجربة الفردية .. ان كاتبا لا يميز بين مطاع صفدي واحسان عبد القدوس ، بين يوسف الشاروني وحليم بركات ، يحسن به ان يعيد النظر في مقومات تقييمه . ان هذا التمييز ليس مطلوبا فقط في المستوى العقائدي او السياسي كما قد يتبادر لذهن الكاتب ، انما هو تمييز بين مستويات شاسعة من فنية الرواية ومن قيمة التجارب التي تقدمها . فاذا كان مجرد اجترار المصطلحات الوجودية يعطي لصاحبه قيمة ادبية بل فلسفية فان كتاب الفضائح و « الصراحة » الجنسية هم اولى بكثير من هذه الاسماء التي حشرت حشرا تحت قلم الناقد ـ اولى بالبحث والدراسة .

واذا انتقلت الان الى المقال الذي كتبه رجاء النقاش عن الفلسفة في الشعر العربي ، فاننا نلقى بعض ابتسارات من المقال السابق في شكل اخر يسيء الى جدية البحث ويرمي ظلا من خيبة الامل في نفس القاريء .

لقد حاول رجاء النقاش ان يتجه بالبحث الى نوع من التصنيف غير ذي غور . لقد اراد ان ينزه شعراء القومية العربية عن اتجاه سياسي لكي يكفل لهم ، في رأيه ، فنية خالصة . والنقاش يأبى ان يكون للاتجاه السياسي فلسفة ما ، متجاهلابذلك الامور الطبيعية في كل بساطة . هل يمكن ان لايكون لشعراء كصلاح عبد الصبور وبدر شاكر السياب واحمد عبد المعطي الحجازي وسلمى الخضراء الجيوسي ونازك الملائكة ، الذين قرأنا لهم مختلف القضايا الاجتماعية والقومية ـ هل يمكن ان لايكون لهم بعض الاراء السياسية والنظرات الاجتماعية والميتافيزيائية ، بصورة تنحدر فيها هذه الإراء والنظرات الى اعماق وجدانهم لتتفاعل هناك مع حصائل لتجارب اخرى ينكشف كلها او بعضها في انتاجهم الفني ؟ اذا سلمنا بذلك فان الاساس النظري الذي قام عليه مقال النقاش يبدو مغلوطا علميا ومنطقيا .

ومع هذا فلقد اراد النقاش ان يجد ركيزة فلسفية ـ ان صح التعبير ـ تجمع هؤلاء الشعراء ، مطلقا على هذه الركيزة ـ الفرضية ، اصطلاح « اللون الحزين » او « الحزن العميق » ، وهو عنده تارة « حزن اصيل » واخرى « حزن مزيف » .. ومن هذا الاتجاه العاطفي الجزئي سعى النقاش الى اعطاء تفسير شامل لانتاجات خصبة في الفكر والمعاناة فجعله ذلك يبدو وكأنه يتعمد اصطناع مقاييس خاصة في النظر الى الشعر والفلسفة ، بعيدا عن كل معجم حضاري حديث عرف في عالمنا المعاصر .

اننا نذكر على سبيل المثال ان هذا الحزن قد دعاه مطاع صفدي مرة في مقاله عن « اللحظة الحضارية والشعر » ب « الايقاع الندبي » الذي تجلى بصورة واضحة عند شاعر المأساة السلبية بدر شاكر السياب .

ولا شك ان قارىء المقالين يرى بكل وضوح مدى التهرب الذي يحاول مقال النقاش ان يحققه عبثا في الافكار الاساسية التي حللت وضع الشعر العربي المعاصر في مقال « اللحظة الحضارية والشعر » .

ومن اغرب ما وقع فيه النقاش هو انه تحاشى ان يصطدم بالعملاق، الذي اتحد عنده الفكر والشعر في اجلى مظاهرهما ، وهو الدكتور خليل حاوي ، هذا الشاعر الذي وفق كل التوفيق في الغوص الى اعماق التجربة الانسانية حيث كون نظرته الميتافيزيائية الشاملة الى الوجود والى مشكلات الوجود . لقد تناساه النقاش بصورة لا اعلم ان كانت عفوية او ارادية فلم يذكر له اسما او بيتا او فكرة مافي بحث ينتظر منه ان يتصدى للفلسفة في الشعر . ومن غير خليل حاوي استطاع في ادبنا المعاصر ان يكثف هذه التجربة الكبرى كما كثفها هو ثم اعطاها فلسفة وفنا ؟

واذا كنا نفتش عن حكمة في بيت عابر لشاعر قديم او نبحث عن ظل لفكرة وجودية لدى شاعر معاصر او ننبش عن بذرة تصوف كوني او اسطوري في ملحمة من ملاحم شعرنا الحديث ، فاننا لابد ان نفاجأ بموقف فلسفي شامل تحكم من داخل الشعر بالفكرة والصورة معا ، من القصيدة الاولى حتى القصيدة الاخيرة ، في الانتاج الذي ابدعه لنا خليل حاوي . ولا يحق لي الان ان اقوم مدافعا عن قيمة هذا الشاعر الكبير في ميدان اتحاد الفسلفة بالشعر في هذا المجال ، فلقد انصفه حقه نقاد كثيرون . غير انني اتيت بهذا المثال لاشير الى طابع اللامسؤولية الفكرية التي تسيطر على بعض شبابنا من النقاد والكتاب فينشرون اراء شخصية في اساليب صحافية يظلمون بها بعض الحقائق المشعة او يصطنعون النور في الفحم او فيما يشبه الفحم .

واذا رجعنا الان الى بعض رصيد النقاش الفكري في ميدان الفلسفة لاذهلنا تردده عند ابجدية الفلسفة . انه يصف ، مثلا ، النظرة الوجودية بالحزن كما لو كنا نقول ان فلانا من الناس حزين وفق مفهوم الحزن في حياتنا اليومية العادية . ان هناك انواعا من التحدي المطلق الذي يمتلكه بعض الوجوديين مثل نيتشه الذي قال « ان الله قد مات ، اريد الها يرقص » وكير كفارد الذي نصب من ذاتيته ينبوعا للحقيقة وجعل هذه الذاتية نقيضا لـ « الانت » الالهي . وكيف يمكن ان ننسى مع النقاش التحدي عند كامو وسارتر ؟ انهم افراد حزينون كأي شاعر رومانسي تبرزه لنا كتب الاغراء الادبي .. اليس كذلك ؟

ثم كيف يمكن ان توصف النظرة الرواقية بالتصوف وكيف يمكن ان نميز بعد ذلك بين تصوف الرواقية وتصوف رابعة العدوية ، اي بين الفيلسوف الذي تحدى بقدمه الملوية امبراطورية جبارة وبين اصحاب العشق الالهي واتباعهم ؟

ولنأت ايضا على بعض وجوه التناقض في هذا المقال . انه يقول « ان الشعر الجديد ليس تعبيرا عن فلسفة سياسية خاصة وليس تعبيرا عن فلسفة انسانية خاصة » ثم ينهي مقاله بهذه النتيجة الغريبة قائلا « ذلك هو الشعر الجديد ..فهو يقوم على فلسفة فنية قربته من الوجدان الانساني » ، فكيف يكون الشعر في الوقت نفسه ليس انسانيا خاصا ثم انسانيا عاما ؟ ثم كيف تنكر على الشعر فلسفة ما لنعود فنقرر ان له فلسفة فنية ؟ ان معنى ذلك ايضا ان كل مافعله الشعر الحديث انه احدث فلسفة فنية . وهذا مايتناقض ، على الاقل ، مع ماكان اثبته الكاتب نفسه عندما وجد ان هذا الشعر ملتحم بموضوعي اجتماعي وقومي. وهل يمكن ان تحدث فلسفة فنية ان لم يقم هنالك تنظيم جديد لموقف الشاعر من قضايا الانسان ومن علاقاته المختلفة من اجتماعية ونفسية وغيبية ؟

أورخان ميسر

غابة البرص

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٥ ـ

ـ هل لك أولاد ؟

ـ هل لك أولاد .

ـ هل تنتظرك زوجتك ؟

ـ هل تنتظرك زوجتك .

ـ انك معتوه ، أخرس ، مقتول .

ـ انك معتوه ، أخرس ، مقتول .

هل نتابع هذا النموذج ؟ ولكن لماذا أحس بشفقة صديدية ؟ ألان هذا الانسان مظلوم ؟ وكيف اقرر هذه التهمة بالنسبة له ؟ فلو كان قادرا على الكلام لرفض حقا هذا العيب . هنا لا يمكن ان يحدث الظلم . وان احدا لن يقبل بهذه الاهانة الصفراء .

حولت عينيه الى جهة اخرى . لقد أدرت رأسي فجأة . خبأته في صدري . ولكن رأس صاحبي قد استلقى على الارض . رأيت عينيه تصعدان الى عيني من ظلمة التراب نفسها . لقد قبض على نظري ثانية . وعدت الى الحملقة به . وقمت فقام معي. أحنيت رأسي قبل أن يصطدم بالسقف ، فحنى هو الآخر رأسه . والوضع مؤلم شاق هكذا . عدت الى جلستي الاولى .

ان صديقي الطبيب عندما نزل بلدتنا الصغيرة ، هرع الناس الفقراء اليه من كل جانب . لقد أغلقت الدكاكين القليلة في بلدتي . وترك الفلاحون حقولهم ، وتجمعوا بكوفياتهم البيضاء . وحلمت العوانس بالعرسان . وحلم الازواج القدماء بزيجات فتية . وحك كل انسان في بلدتي جرحه السري ، وكان يطلب العلاج بلسان صامت . وكانت الشمس صلدة فوق الرؤوس . وكانت العقول نظيفة كسماء كانون في موسم الجفاف . وكانت القلوب قوية تدفع بالدماء الحمراء الى الجلد الخارجي ، فتحبس الداء هناك في بعض خلايا مندحرة متقيحة .

وأمر الطبيب منذ الصباح الاول ان يتباعد الناس ، وان يغسل كل فرد منهم يده قبل ان يلحس يد جاره ، وان يغلق الناس ابوابهم منذ المساء الباكر ، وان يحذروا من الغرباء ، فالمرض يلحق ذيول الغرباء أينما حلوا .

وكانت الغابة تحيط بالبلدة ، كثيفة الاوراق ، قديمة الجذوع ، عريقة الظل والمرج .

كان الحاكم في بلدتي ، وهو ملك مدحور ، قد عجز عن مكافحة داء الحكاك في جلود رعيته ، فأسلم أمره الى الطبيب ، وأقفل على نفسه باب قصره . ولم تعد مواكبه تمخر عباب الشوارع المهترئة . ثم قل عدد الحراس حول قصره . واخيرا لم يبق احد امام الابواب . وبعد قليل ايضا ظهرت الحشائش الطفيلية في حديقته ، وسكن الغراب في اشجارها نهارا ، وسكنها البوم ليلا . واذ لم تعد النوافذ تفتح ، فلقد نسج العنكبوت شباكه الرقيقة فوقها ، ثم تكاثفت الشباك ، حتى انطمس شكل النافذة ، واغبر خشبها ، وصار جزءا من الحائط المرمل . وكذلك فان الشوارع أصبحت شبه مقفرة . وعشش العنكبوت فوق نوافذ البيوت .

وصدر أمر آخر من الطبيب ، عندما كشف معمله ان الوباء يعلق بأوراق الغابة . فطلب ان تقطع بعض الاشجار ، وان يجرد بعضها الآخر من أوراقها . وهكذا التهم العدم خضرة الغابة . وصعدت هياكل الاشجار في الفضاء كأنها خارجة من مقبرة . وزحف الرمل على جذورها . ففاض العشب من الارض . ثم لم تعد تستطيع السواقي ان تقاوم اشعة الشمس فوقها ، بعد ان ماتت الظلال ، ولا تربة الرمال حولها ، فتلاشت تدريجيا . والينابيع اخافها ذلك الوحش الذي لا لون له ، يحيط بها من كل جانب، فراحت تتراجع نحو الظلام في تجاويف الارض .

وظل حكيم البلدة وحده يأبى الاعتراف بوجود الوباء ، كما يرفض اوامر الطبيب وتوجيهاته . فانتشرت شائعة تقول ان لحية الحكيم في ايوانه موبوءة ، فلم يجرؤ احد من الناس على الاقتراب منه . وعندئذ أصبح لزاما ان تقص لحيته حفاظا على الصحة العامة . وهكذا تحول حكيم بلدتنا الى اضحوكة بين اطفال الاحياء وصبيانها . وفرح بذلك كهان المعبد ، وتلمسوا لحاهم ، فلقد عاد اليهم مجد الحكمة ، بعد ان انتزعها منهم لمدة طويلة ذلك الشيخ الملحد . وانطفأت ثورة السحرة القدماء الذين بطلت مهنتهم ، بعد ان جاء الطبيب من وراء البحار والصحاري بعلمه المخيف . فلقد كان كرههم للحكيم أشد من كرههم للطبيب . فتطوعوا هم وبقية الكهان ليعملوا ممرضين في معمل الطبيب ومستشفاه الكبير .

وكان الشباب يشتغلون في حفر مساحة كبيرة من الارض العارية خارج البلدة ، في جزء من الغابة الجرداء . كان ذلك مشروع المستشفى الضخم ، الذي صممه المهندسون العاملون في ركب الطبيب . وعرف الناس ان مرض الحكاك قد انتقل ايضا من جلود الناس والاشجار الى أديم الارض ذاتها ، وانه عما قليل سوف يصبح سطحها مليئا بحفر من القيح ، تتحول الى مستنقعات رهيبة ، تتصل ببعضها ، انه عصر آخر للارض لم تعرفه في بدء تكونها ، هو عصر مستنقعات الصديد .

وقمت من أرض القصر ، وانتصبت قامتي ، صدر صوت عن ارتطام عظم الرأس بصخر السقف . نسيت ان السقف اوطأ من رأسي هنا . وكان بديلي يحملق بي ، وهو يكتم ضحكة صعلوكية لا تجرؤ على شق الفم والاندلاع بصوت جنوني . هنا ، لا اصوات عالية . ونوبات الضحك ممنوعة بأمر سري ، أصدره كل محجور بينه وبين نفسه .

وحاولت ثانية ان أكرر شيئا ، فقلت :

ـ انك لا تفعل شيئا ، وانهم طلبوا منك هذا .

فردد كهف وراء شفتيه :

ـ انك لا تفعل شيئا ، وانهم طلبوا منك هذا .

ولقد كان فوق ، في بلدتي التي أصيب اديمها بجيوب من الحكاك والصديد ، كان مرة بيت صغير على طرف السفح ، محاطا بكرم من العنب الذي ينضج خلال ثلاثة مواسم متتالية ، ما عدا موسم الخريف . وكانت تقوم الى جانب البيت معصرة صغيرة ، مدهونة جدرانها باللون الاحمر العنيف . واعتاد الشباب ان يؤموا هذه المعصرة ، وان يشربوا بعض الخمر الجديدة . حتى تحولت المعصرة الى خمارة . وكانت ابنة صاحب الكرم فتاة شقراء . محروقة البشرة بلون الزبيب . وقد أشرفت دائما على معصرة ابيها ، وقدمت الخمر الى الشبان .

ولم اعد أحكي شيئا ، فان هذا الانسان الاخر ، بديلي ، نسختي ، لا يحب الحكايا . ولكنني لا استطيع ان اضغط مولد حكاية تحت لساني . فتابعت ، دون ان أحرك لساني . كان الآخر يراقب عيني وشفتي ، ويسمع مع ذلك كل شيء قبل ان الفظه .

.. وكان يا صديقي بين الشباب شاعر سقيم أحب الفتاة . ولقد كرهت الفتاة سقمه ، وأحبت شعره . وقد دأب على التغزل بها . وأصبحت قصائده موضوعا دائما لمناضد الخمرة . وكم حاول ان يقنعها بانها جميلة . وفي بلدتي يا سيدتي ، في الاعلى ، لم يكن احد يعرف المرآة . فهناك مؤامرة أزلية قديمة ، قام بها اجدادنا ضد المرايا ، فحطمت كل مرآة ، ولم يعد أحد يعرف فعلا ان في العالم مرآة حقيقية يمكن للانسان ان يرى وجهه من خلالها .

كان الشاعر السقيم يحب فتاة الكرم ذي المواسم الثلاثة . واما هي فانها لا تدرك من نفسها ، سوى انها خادمة للكرم ولمن يشرب من الكرم . ولم تكن تأبه لانوثتها الضائعة .

سمعت طرقا عجيبا فوقي . ان الصخور هنا ، رغم انها مصفحة بالصمت الازلي ، الا انها تستطيع ان تنقل تحركات بعضهم في الاعلى . وينتقل الصوت ، مضخما عبر جدران الصخور ، وسقوف الصخور . انك يا صديقي لا يرعبك شيء ، أليس كذلك ؟ حسنا ، لقد حاول الشاعر ان يقنع صديقته بكل صورة بيانية رائعة تعكس جمالها في نفسه . ولكنها طلبت منه ان يريها وجهها الحقيقي . وأسرت له ذات

يوم ، انها لن تعطيه قلبها ، ما لم يأتها بمرآة ، مرآة من أي مكان في الارض .

✶

وقبل ان يأتي الطبيب الى بلدتنا . ويجرد اشجار الغابة المحيطة من اوراقها ، ويقص لحى شيوخنا وحكمائنا ، ويبدأ الشباب بمشروع المستشفى الكبير ، كان السحرة ، عتيقي المنظر ، رديئي الاقنعة ، قميئي النفوس ، ولكنهم كانوا يصطادون اجمل العذارى ، ويلحقون أذكى الشباب بخدمتهم . ولم يعرف احد كيف كان الشاب الذكي الجديد يقبل ان يخضع لطقوس هؤلاء السحرة ، فيقطع لسانه ، ويلتحق بركب طويل من الخرس ، الزاحفين ركعا على ارض المعابد ، وبين دهاليزها .

ولقد تردد مرة ، عندما هموا بالشاعر ليقنعوه بخدمة الصمت والظلام ، تردد بين شباب المعصرة الواقعة الى جانب كرم ذي مواسم ثلاثة ، ان السحرة وعدوا الشاعر ان يقدموا له المرآة لساعة واحدة ، وان يمنحهم بعد ذلك لسانه الى الابد .

وانت يا صديقي لا تهتم لمثل هذه الالاعيب . كان ذلك منذ القديم ، ولم يعد الآن ثمة شيء من هذا ابدا . انك رجل عملي جدا . وانك تعرف مهمتك بصبر نادر . وانك لا تود مرة ان تطرف عيناك ، وان يلتهم المنظر الرتيب هنا . وانك مغرم بفمي ، تحب ان تحول حركات شفتيه الى بعض الفاظ . انك تفهمني أليس كذلك ؟ ولكنني اود ان انقل عن طريقك بعض هذه الالفاظ الى فوق ، الى أعلى ، فأنني سمعت ان قصد الطبيب ما زال قائما .. فوق ، ولعله قائم لوحده . ان احدا لا يدري مصير بلدتنا في الاعلى .

او تدري ماذا حدث بعد ذلك . أوه دعك من هذا الآن . انني أكره نهايات الحكايا . وانت ايضا ؟ هذا عظيم . اذن سوف نتسلى بموضوع آخر . أترى انني لا أكف عن الثرثرة . ولو انني رضيت مرة ان أمنح لساني للكهنة ، لكنت تخلصت انا وانت ، من قطعة اللحم الحمراء هذه، التي لا تكف عن الحركة في هذه المغارة ذات الجو الرطب المظلم .

لماذا لا نلقي نظرة على ذلك المثلث العجيب الذي شاهدناه قبل قليل في ردهة الكهف ؟ لقد بدأ الحكاك ـ ينهشك ، انت ايضا . أوه انك تهرش حول صدغيك . لقد أصابك المرض هنا بالذات ، حول الصدغين ، ذاك شيء لا يصدق ، يا عزيزي . بعضهم يقول ان رأسه يكاد ينفجر من صدغيه ، واما أنت ، فانك لو أوتيت التعبير لكنت ستصرخ ان يقشطوا لك جلدة رأسك ، وان يخلعوا لك عظم صدغيك . ما اشد الالم في هذه الناحية من الرأس ! انك محظوظ ، لقد أصابك المرض من رأسك، وسوف تفقد وعيك بعد قليل ، ولن تكترث لجسدك ، كيف سيتحلل كله تدريجيا ، ولن تختنق برائحة لحمك المتفسخ .

أقول لك ، انهم ما زالوا ثلاثة هناك . وان احدهم يهرش من اليتيه ، لانتفاخ جثته ببعض كرات متجانسة متناظرة بين رأسه وكرشه والبنه ، وان احدهم أيضا قد امتص عظمه الاجرب كل لحمه ، ونتأ رأسه من خلال مثلث حاد . وان الثالث بينهم ، قد تفشى المرض بين شفتيه ، فتدلت واحدة ، وتقوست اخرى ، وتحول كله الى دودة طويلة غريبه ، يلتصق جذرها بالتراب ، ويتأرجح جذعها بفعل ضعف كريه في فراغ الكهف .

ولست أعلم ما الذي جمد هؤلاء التعساء الثلاثة على هذا الشكل المخزي . انك تهز رأسك لانك تعرف السبب . ألم أقل لك ، انك لم تصبح ظلا لي عن عبث . فكثيرا ما يستعير المرء دور ظله . والمأساة هي عندما يعجز هذا الانسان عن التفريق بينه وبين ظله فعلا .

لقد اخبروك ولا شك ان صاحب الوجه المثلثي .. حسنا ، انك تفضل ألا نتحدث هنا عن حالة سابقة . ان ماضي كل انسان في القصر لا قيمة له ، وهو لا ينفع لشيء . هذا حق ، ولنكتف اذن ، بالكشف حقا عن منطقة المرض في جسده . وهذا أيضا لن يفيد ، ما داموا كلهم يحكون بطريقة ما .

ذاك الشاعر السقيم ، ما زال يبحث عن مرآة يقدمها لفتاة الكرم ، كيما تكتشف جمالها الحقيقي . ولعله اهتدى الى سحرة المعبد ، وقد يجازف بلسانه وجبينه ويتحول الى خادم للسحرة من أجل المرآة . ولكن احدى العجائز التي تسكن في الجوار ، حذرت الفتاة من خطر المرآة . فلسوف يحدث لها مكروه ان هي عكست ما خلقه الله فيما خلقه البشر .

وفتاة الكرم ذي المواسم الثلاثة ، لم تأبه لتحذير العجوز ، لم تأبه لما قد يصيب الشاعر وفاء لوعده في معبد السحرة . وكان الطبيب ايضا ، لا يزال يبحث عن مصدر الحكاك في جلود الناس . ولقد اكتشف بعض اعوانه معصرة الكرم . أتذكر ذلك اليوم ؟ انك تعرف كل شيء ، والا لما كنت بديلي .

لماذا لا تدعنا نتحرك قليلا من هذا التجويف الى تجاويف أخرى ؟ أليس التجول مسموحا به في عالم القصر ، ما دامت السلالم كلها قد أحرقت ، وتحولت الى كوم من الرماد فوق ارض من الصخر الرصاصي في العميق ، في العميق .

أوه .. أذكر تراتيل السحرة :
في العميق !
في العميق !
ستفوص المدينة
وحدنا ، نحن جذور الارض ، أرحام المدينة ..
ستفوص المدينة ..
في العميق .
قد طحنا الصخر ، أفنينا جذور الصخر
أضحى الصخر رملا .
خسفت هذي المدينة ..
في العميق ، في العميق
نحن أرضينا الدجى ظلا فظلا .
وجمعنا الذكر العاصي الى الانثى
وأولدنا المدينة
في العميق ، في العميق
قد حفرناها سراديب
سراديب لتاريخ عريق .
وكشفنا أسفل الارض
أفاعي القعر
اجدادنا على أجداث مجد تستفيق !
من قديم ، قديم
قبل ان يزني اله
بتراب الارض ، بالجسم الرجيم
ههنا نحن نعيد النطفة السوداء
للرحم القديم

من قديم ، قديم !

✶

ولقد حدث هذا يا صديقي . ولم يكن الا .. هذا . ولاننا لم نعش الا هذا . لقد حدث هذا . أتراني أهذي ؟ دعك مني يا بديلي ، فلست سوى هذا المقذوف الى أسفل القعر . من يشعر بصراخي ؟ لن يــذيب الصخر حولي ، فوقي ، أي صوت . لا اعرف الآهة ، ولا شــيء يشرخ الصخر الا دموع تسقط نحو أسفل ، وليس نحو أعلى ، فتزيد الهــوة ، وتعمق الحفرة اكثر فأكثر . ليس من ينابيع يا صديقي . ولكن قطرات ترشح ، ترشح ، نحو اسفل ، ويذوب الصخر تحت اقدامنا ، اكثر ، أكثر ، هكذا اذن .

ولقد حدث هذا يا صديقي !

✶

وبين جدران الصخر وقف ذو الوجه المثلثي ، وحملـق في وجــه الصخر :

ــ انني احلم ان اكشف هنا ، وفي هذا الجوف السرمدي ، كيف يبتدىء النهار ، وأين ينتهي الليل . لقد ولدت من عائلة تدين بعقيـدة طريدة في المدينة . وليس امامي سوى اختيار واحد ، اما ان اتابع قدر الطريدة ، او اقترح عقيدة اخرى فوق الجميع . ولكن إحدا لم يتقبلني. لقد اعتبرني اهلي يهوذا ، واحتقرني الآخرون . واحترفت نظم الالام . انك تقول : الاحقاد . ربما ، أليست آلام الانسان المسحــوق تشبــه الاحقاد ؟ . انني منسي ، أواه ! ولكم اشتقت الى تلك الفتاة الناهد ، في ثوبها القروي ، وهي تعصر الخمر ، ثم تعتقه بنظرة ، وتقدمه الينا ، فنحس في لذعته صرخة الازل كله . تلك المعصرة الالهية ، لو انك عرفت كيف تتذوق خمرها . لم أر في حياتي خمرة تجمع بين طعم العذريــة الجديدة ، وبين تخمر الآباد كلها . كان يكفي ان تحمل كفها كأسا ، مــن بين سيقان تلك الفتيات السمراوات ، وهن يعصرن العنب، وترمق رغـوة العصير في الكأس ، بتلك النظرة المهدلة الناعســة ، حتى يستحيـــل العصير الى صخر حقيقية ، تملك زخم الزمن المصهور حول جرارها .

انك يا عزيزة تخشين اخيرا ان اضع امام عينيك وجهك هــذا ، وجهك فوق بلور ناعم بارد ، لكنه يستطيع ان يعكس لك جمالك اليتيم . لا تتراجعي الى الخلف ، قلت لك ، كلما اشرقت الشمس مــن خلــف الهضاب الزرقاء ، ان لك اوسع عينين ، وان لك فما منتفخا بخمــرة عذراء سرية ، وان لك خدين ، يشربان من معصرة الآلهة ، دم الشبــاب الخالــد .

أوتخشين هذا التطلع الى الزجاج البارد ؟ لقد أتيتك اخـــيرا بالمرآة ، يا حبيبتي . ما اكتفيت بقصائدي ، لمساتي ، اغنياتي وأحزاني أهرقها على قدميك كل مساء . سأقدم اليك هذه المرآة ، وسيكون لــك وجهك الرائع .

يقولون ان عقابا مخيفا سيحل بكل فتاة جميلة تود ان ترى وجهها في المرآة ، ولهذا حطم شعبي مراياه من القديم ، ليحتفظ بفتياتـــه الجميلات. انهم ينشرون خوفا قبيحا حولنا . أتشممين رائحته الجرباء؟..

كان ذلك منذ زمن سحيق يا صديقتي . وكان شحذ الموسى يــرن بين صدغي .. انه صدى الموسى يقرع الجدران العارية في المعبد. هناك احتفال وطقوس جديدة لقطع لسان جديد. لقد أتيتك بالمرآة، وهم سوف يقاضونني الثمن قريبا ..

كيف انبثقت في عالمي هكذا دونما حياء ؟ . ما هو الحب الــذي سوف نتخلى عنه معا . انك ترتجفين ، وتحملقين في فراغ عيني . انــك تشعرين ان الحانة لم تعد ملك الضحك . لقد أظلمت الكؤوس فجأة . وماتت اشباح الشاربين حول الموائد ، ذات الخشب المنخور الهــرم . وانك ترتمين مع نظرتـك من خلال النافذة الوحيدة الى الدرب الجبلية ، فلا احد يشق أفق السواد من قعر المدينة ، ليتوجه الينا ههنا . نحـن وحيــدان .

سوف ترين وجهك في المرآة ، وسوف يقطعون لساني .

✶

ويا بديلي ، انك لا تحب مثل هذه الهمسات الخرساء التي تتبخر على حافة العالم ، بين شفاه رجل ، مشنوق بفعل حبل من الداخل . ان الكهان قد تناسلوا بصورة غير مرئية ، وطفحوا من فوهات المعبــد ، وسالوا في دهاليز الشوارع . فنضح زفت الشوارع بالمرض . انسـل الصدأ بين الابواب والنوافذ . وشاخت حبيبة الشاعر دفعة واحــدة . وكانت عاصفة خرساء من اللحى تمتص الربيع البكر الطافح من اشجار الغابة حول المدينة . ودب الحكاك بين اجفان العيون فلم تعد ترى الا من خلال الرمد ، وبين الشفاه ، فلم يعد يسيل من خلالها ! الا رنين الصديد، وبين الاليتين من كل انسان ، فرقص رقصة العاهر بدون سوق .

وقف رئيس الكهان على منبر في ساحة المدينة ، رفع يديه الــى السماء التي جفت من الغيوم قبل ثلاث سنوات ولم تزل قبة زرقـــاء فولاذية ، قبة رصاصية ، ونحن في القعر صغار في قفــص مصفــح شفــاف .

أتصغي الي يا بديلي ، سوف أحرك رأسي الآن . انها تصطدم ولا شك بقبة مصفرة عن السماء انها تجويف من الصخر .

وقف رئيس الكهان فوق أعلى منبر من الرمل والقش وشعر الاطفال، وصاح بالفراغ . وكانت قطة سوداء ضامرة البطن تبحث عن ثدي فــي بطن مبقور من قطة مقتولة بفعل الله . وكانت الحانة قد اغلقت منــذ زمن سحيق . وكان الرمل قد أحاط بالمدينة ، غزا الحدائق الغناء حول القصور ، التهم معالم الشوارع الرئيسية ، انصب في الآبار القليلة .

ولقد استجاب الفراغ للايدي المشرعة نحوه ، فضغط عاصفة مــن اعلى الى أسفل . كانت أسس البيوت الحجرية قـد تآكلت ، فلم تعتم على حجر . كانت عاصفة غريبة لا تمضي من شرق الى غرب ، من شمال الى جنوب ، كانت تضغط من أعلى . وكانت البيوت بلا أسس . وكانت الارض قد تفتت الى ملايين من الاشياء الصغيرة ، الــى رمــال . وكان الضغط عنيفا . وكان صراخ الكهنة قد تجرد حتى من الصدى . وكان الضغط يفرز نبات البيوت نحو جذوره . وسمع دوي هائــل ، مــن حوانيت الباعة . كانت صفائح الحديد المتلوي ، تتفتح عن البضائــع . لقد تحولت المتاجر الى مخازن للعي ، للضمادات ، لقلوب محنطة ، لكرامات مباعة . وتشقق أديم الارض ، أديم الجدران ، وغلى الكبريت فيهــا .

تفورت سمومه . وراح كل انسان يبحث عن بذرة المرض في ناحية ما من جسده ، يمدها الى برك الكبريت . وكان الطبيب يصرخ بالجموع من كل جانب ان لا كبريت ! وانه الصديد يغلي في الارض ، في شقوق من التراب ، وان كل شيء سيفيض ، وان البرص قد عم . ولكن احدا من الجموع لم يصغ اليه ــ أتصغي الي أنت ، يا بديلي ؟ حسنا .

وضغطت تلك العاصفة الخرساء ، عاصفة من أعلى الى أسفــل ، ضغطت البيوت نحو جذورها التي تفتت الصخر عنها .

ولم يعد يستطيع الطبيب ان يقاوم رائحة الخوف الكريهة ، فراح يسد أنفه . ثم لم يعد يمكنه ان يفتح فمه خوف الهواء الملوث . ولمــح رئيس الكهنة محمولا على الاعناق ، وحوله جيش من الخرس الذين قطعت السنتهم ، وحلقت شعور رؤوسهم ، وارتخت لحاهم نحو الارض تلتقط جراثيم الصديد من التراب المتعفن المريض ، لتنشرها على جلود الناس الاخرين ، الذين لم يصب القرع رؤوسهم بعد ، ولم تتقرح اجفـــانهم وشفاههم . ولكنهم كانوا قد خرجوا من بيوتهم التي اخذت تغوص فــي الرمال . وهاموا على وجوههم . ساروا سواقي مختلفة من الاحيـــاء الدهليزية والاحياء الهندسية ، ثم تلاقوا في الشوارع الكبيرة وهـدروا كلهم نحو الساحة الكبرى .

وكان رئيس الكهنة ما زال محمولا على اعناق الخرس من اتباعه ، وكلما مر امام حانوت اسبل على احد اتباعه ثوبا من الدمقس العريق ، وكلما مر امام عذراء تقلص وجهها وحمت ما بين ساقيها بكلتا يديهــا ، وكلما شاهدت الموكب أم ، وضعت يديها على ثدييها . اما الشبـــاب فكانوا يصابون بدوار لزج ، ثم يتقيئون بشراهة .

وكانت العاصفة الصماء تضغط كل ما هو قائم ، وتحط زوابع مــن

الوباء المرصوص فوق الرؤوس ، وتضغط بها نحو الجذوع ، والجذوع نحو الاقدام ، والاقدام نحو صفر من الرماد ، تظل تأكل حوافيها بسكون لولبي مخزوم .

ولقد احترقت مياه النهر الكبير وسط المدينة منذ زمن . وكانت جموع الناس تمر فوق الجسر الرئيسي عندما شاهدت ، ويا للهول ، ان الضفادع التي كانت تكبر يوما بعد يوم ، قد اصبح لها حجم الفيل ، وها هي ذي تدب من الناحية الاخرى مجتمعة متراصة ، انها تغلق الطريق دون الجموع . فلا مهرب من مدينة تغوص بيوتها في الرمال ، وتضغط رؤوس اهلها بعاصفة من أعلى ، وتتشقق فيها جلود الناس ، وتتكشف عن جيوب من القيح .

وعلا الصياح من كل جانب ، وصرخ احدهم ، وكان صاحب حانوت كبير ، صرخ مناديا الطبيب ، الذي اختفى ثوبه الابيض من الافق . والتفت الى الكاهن الاكبر المحمول على اعناق الخرس :

ـ نجنا ، نجنا ، نجنا !

وترددت الصيحات من كل جانب ، بينما يقترب قطيع الضفادع اكثر فأكثر . فأشار بعض حاشية الكاهن الاكبر ، اشاروا على صاحب الحانوت الإكبر ، ان : اصمتوا ، اصمتوا ..

ودار صاحب الحانوت الى الجموع قائلا: اذن لا بد من قطع الالسنة كلها ، ولا نجاة لنا بغير ذلك .

ثم اشار الكاهن الاكبر نحو الشاعر ، والى جانبه كانت ساقية الحانة تقف ممسكة مرآتها بيد ، وجديلة من شعرها بيد اخرى . وعندئذ ادرك الجميع ان الشاعر وصديقته هما سبب الوباء ... لسانه ومرآتها.

ـ فلنبدأ بقطع لسانه هو اولا !

ـ فلنبدأ بتحطيم مرآة العاهرة ، ثم فلنشوه جسدها الابيض !

ـ ولكن الضفادع العملاقة تقترب ، وسوف تسحقنا بعد قليل ..

ـ انظروا الى العاصفة قد تحولت الى زوابع هائلة تتجمع من اعماق الفراغ لتضغطنا الضغطة الاخيرة !..

ـ الوباء يخنقنا !

ـ جلودنا تحترق ، الصديد ينقط من جسدنا !

ـ فلنقطع لسان الشاعر ، وحده ما زال جسده بدون حكاك ، انظروا اليه سوف يضم حبيبته ، ولن يشتم منها رائحة الصديد !

ـ مرآة هذه الفاجرة سبب المصائب كلها !

واقترب قطيع الضفادع ، فسارعت الجموع لتجتمع حول موكب كبير الكهنة . اشار هذا الى اتباعه . اشار اتباعه . صاح صاحب الحانوت : يريد ألسنتنا هيا ماذا تنتظرون !

ومد كل انسان لسانه . وتعالت اصوات من الحلوق ان : الي قبل كل غيري ، الي ، هاك لساني .

وبطقس سريع رهيب ، نظم الكاهن الاكبر عملية قطع الالسنة ، فصف الناس صفين متقابلين ، وحمل كل واحد من الصف الاول موسى وقطع بها لسان الرجل المقابل ، ثم استلم هذا الآخر الموسى وقطع لسان زميله ..

وبعد لحظات سريعة امتلأ الجو بنعيق رهيب كآلاف من مدافع الميدان فتحت في وقت واحد . فلقد قطع أهل المدينة السنتهم ، لتطلق الضفادع العملاقة العنان لنعيقها الهادر .

وبارك كبير الكهنة الحادث العظيم وعندئذ تراجعت الضفادع ، ونزلت الى جوف النهر المجدب .

ولكن انتبه احد اتباع الكاهن الى اختفاء الشاعر وحبيبته. وعندئذ دب الذعر مجددا في النفوس . لم تهدأ العاصفة الخرساء . بل تابعت ضغط البيوت نحو أسسها المتفتتة . وتعالت أصوات خرقاء لا ألفاظ لها من حلوق الناس الذين قطعوا السنتهم بطقس واحد رهيب . وادرك الجميع ، كآخر ما يدركون ، انهم لن يستطيعوا ان يتفاهموا ، وان اللغة قد اندرست الى الابد ، وانه لم يعد لهم سوى ان يطلقوا صيحات عجماء من حلوقهم ، التي تحولت الى فوهات لكتل من لحم خام متآكل بفعل البرص ، الذي هو بفعل اللعنة المجهولة .

وانطلقت هذه الكائنات تهدر في دهاليز المدينة باحثة عن الشاعر قبل ان تغوص المدينة كلها .

*

كيف انبثقت في عالمي هكذا دونما حياء .. ما هو الحب الذي سوف نتخلى عنه معا . انك ترتجفين وتحملقين في فراغ عيني . وتعلمين ان العالم يفور من تحتنا ، وانك لن تعصري كرمتك ، ولن أنشد قصيدتي لاحد . وان القصر وحده هو الذي سوف يبتلعنا بحب أزلي عميق .

هذا هو وجهك امام وجهك . وتلك هي الملامح الدقيقة ، التي لن تصورها اية قصيدة ، اية عيون سلبها الحب الثقة بنفسها . انك لست نادمة على شيء . هذا حق ، ولكنني انا وحدي من يرفض ان يدفع الثمن ، لان الكآبة لا ثمن لها .

عندما تفور المدينة ، ويختفي الكهان مختنقين في الرمال ، ويموت مشروع الطبيب ، وينطمر الوباء مع الجثث ، وتنغلق حفر الصديد ، سوف نبحث عن مقر اخير لنا ، نحن ايضا لنا مقرنا .

ويا بديلي سوف يظلم في النهاية هذا الجوف من الصخر الذي انزرعنا في مركزه . اننا نتحرك ونثرثر ، وهو صامت جلف ، صمته رخامي ، لم تمتد اليه يد نحات برعشة انسانية .

لقد انطفأت غابة البرص في الاعلى ، او انها اشتعلت الآن ، لا فرق انك تحملق بي بدهشة وخوف : نبت لي لسان جديد ، صحيح .. وحبيبتي في جهة ما من هذا الشعر قد امتلكت مرآتها ، ولكنها بدون نور بين الوجه والوجه ، فكيف ستنظر جبينها الاشم ، وعينيها السوداوين ، وفمها المزركش بنبات من الفاظ ربيعية ، أبدعت لغة جديدة ، بعد ان قطعت لغة القوم مع السنتهم وتحولوا الى مجرد كائنات تتصايح بغباء وجنون . بينما راحت الضفادع العملاقة ، تهدر بأصوات النقيق ، في جوف النهر ، وتقفز فوق اكمات الطحالب التي يقتطع منها الكهان لحاهم ، ويلصقونها بذقونهم ، عندما ينوون ان يجدوا طقسا جديدا لوباء آخر جديد .

انطفأت غابة البرص يا صديقتي ، ولم يبق سوى هياكل من اشجار متفحمة تمد اذرعتها في الفضاء ، بينما تآكلت المدينة ، وغارت البيوت في الرمال المتحركة وتركت مكانها حفرا قذرة ، تنهار اطرافها بحركة لولبية خرساء .

وفي القصر تتحرك اشباح ، يصيبها الحكاك ، فتقفز ، وتتدلى من افواهها مغارات بدون اسماء ، اصوات لمان ، سوى صراخ غبي مجنون.

والشاعر في مكان ما يحملق في وجه حارسه ، انه انتصر عليه بوعد خفي ، وحده سيصعد الى أعلى ، وستلحق به صديقته ، وسوف يعمران مدينة من مرايا شفافة ، وينجبون نسلا لا لحى له ، ولا افواه بدون ألسنة .

ان لغة جديدة ستتفتح من لحم نظيف . ولكن حتى ذلك الوقت فان طقوس القصر سوف تظل مرعبة بخشبية ثقيلة مظلمة .

انها لغة لكائنات بدون ألسنة ، تجمدت في نقاط لتمارس حكاكا سريا في جهة ما من جسدها المتقيح .

مطاع صفدي

قصيدة النثر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧ ـ

صادقا ينص على الوزن الذي حاولوا قتله . ولسوف يبقى الناثرون حيث كانوا مع الناثرين .

المناقشة على اساس النقد الادبي

يبدو لنا ان دعوة النثر ، في احكامها على الشعر ، تستند الى تعريف له يضع الالحاح كله على المحتوى او (المضمون) . فالشعر ، في نظر أصحاب هذه الدعوة ليس الا معاني من صنف معين ، فيها خيال وعاطفة وصور ، وسواء بعد ذلك أن يكون موزونا او غير موزون ، لان الوزن ، في رأيهم ، ليس شرطا في الشعر . وعلى هذا الاساس يكون للشعر في نظرهم عنصر واحد هو المضمون . فاذا أردنا ان نستخلص للشعر تعريفا مشتقا من آرائهم هذه قلنا انه « تجمع معان جميلة موحية فيها الاحساس والصور » .

ومن الواضح ان مفهومهم هذا للشعر يقف في الطريق الاقصى المواجه للتعريف العربي القديم الذي كان يحدد الشعر بانه « الكلام الموزون المقفى » وهو تعريف يجعل الوزن الاساس الاعظم للشعر دون اعتراف بالمضمون . والحقيقة ان كلا التعريفين قاصر ناقص : التعريف الجديد يهمل الشكل والتعريف القديم يهمل المضمون . فكأن هؤلاء المعاصرين ارادوا تصحيح مفهوم مغلوط قديم فوقعوا في مفهوم مغلوط جديد . ولا يخفى علينا ان غلط التعريف الجديد اشد واكبر من غلط تعريف اسلافنا .

واما اذا اردنا ان نرجع الى صوت الواقع في انفسنا ، وان نحكم عقولنا فلسوف ننتهي الى أن للشعر ركنين ضروريين لا بد منهما في كل شعر وهما :

١ ـ النظم الجيد (الشكل) او (الوزن) .

٢ ـ المحتوى الجميل الموحي ، المتموج بالظلال الخافتة والاشعاع الغامض الذي تنتشي له النفس دون ان تشخص سر النشوة .

وانه لمن المؤسف ان كلمة « نظم » قد اصبحت تزدرى في عصرنا وكأنها اهانة يسب بها الشاعر . ذلك انها كلمة جليلة ، لا بد لكل شاعر من ان يملك ناصيتها . ذلك ان الشاعر المبدع لا بد ان ينطوي على ناظم متمكن بارع والا لم يكن شاعرا . والنظم هو المرحلة الاولى في كل شعر . وأما ان هناك اناسا ينظمون شعرا موزونا يخلو من عبقرية الابداع ورعشة الموسيقى فان ذلك لا يهين كلمة « النظم » . ان كل شاعر ناظم بالضرورة ، وليس كل ناظم شاعرا ، وذلك لان الشعر أعم من النظم ، فهو يحتويه دون ان يقتصر عليه . وواقع الامر ان الناس ، بالنسبة للشعر ، ثلاثة :

١ ـ انسان يتذوق الشعر ويطرب له الا انه لا يميز الموزون من المختل وقد يمر على غلط عروضي فلا يدركه . ومن هذا الصنف كثير من الناس .

٢ ـ انسان ينظم الموزون نظما متقنا جاريا على قواعد العروض ، دون ان تنبض منظوماته بالجمال أو تتفجر بدفء الابداع . وهذا هو الناظم .

٣ ـ انسان يحسن النظم ويتقنه حتى ليوجع النشاز سمعه وروحه وهو فوق ذلك يمتلك موهبة تفجير الموسيقى والسحر فيما يكتب . وهذا هو الشاعر . وهو في هذا الباب في المرتبة الاولى من اصناف الناس .

والذي لا ريب فيه أن الناظمين اناس ذوو موهبة وان لم تكن موهبتهم كاملة ، ولذلك ينبغي لنا ان نحترم موهبتهم ، وأن نثني عليهم بما يستحقون . نقول هذا ونحن نرى الاتجاه لدى طائفة من الشعراء اليوم الى احتقار الناظمين والتشنيع عليهم . وانما الحق أن ينظر هؤلاء الشعراء الى انفسهم ليكملوا ما ينقصهم من عدة الناظم ومقدرته . فما قيمة شعر جميل الصور ولكن أوزانه تتعثر بالسقطات ؟ ان الناظم الذي يحسن النظم أجدر باعجابنا ، لو انصفنا ، من شاعر لا يحسن النظم . ذلك ان الاول ، بصفة كونه ناظما ، قد استكمل عدة فنه حين أتقن النظم وضبط اصوله . واما الشاعر فانه ، وهو يجهل قواعد النظم ، انما يفتقد جزءا مهما من عدة الشاعر ، لان الوزن هو الروح التي تكهرب المادة الادبية وتصيرها شعرا ، فلا شعر من دونه مهما حشد الشاعر من صور وعواطف . لا بل ان الصور والعواطف لا تصبح شعرية ، بالمعنى الحق ، الا اذا لمستها أصابع الموسيقى ، ونبض في عروقها الوزن .

هذا مجمل رأينا ، والواضح ان انصار (قصيدة النثر) يخالفوننا فيه . وانما الوزن ، في عرفهم ، مجرد شكل خارجي عارض اصطلح الاقدمون عليه ، فلو حذفناه وكتبنا الشعر من دونه لانقذنا شعرنا من التقليد وجئنا بشيء طريف .

واننا لنحب ان نسألهم ، على ذلك ، سؤالا لعل له عندهم جوابا : ترى اذا استطاع ناثر وشاعر ان يعبرا ، كل باسلوبه الشخصي ، عن عين الكمية من الصور والعواطف والاخيلة ، فايهما سيهز السامعين هزا اشد ؟ أيهما سيبعث فيهم مقدارا من النشوة اكبر ؟ والى ايهما سيستجيب الذوق الانساني استجابة أرهف وأحر ؟ اما في رأينا فان الجواب واضح وبديهي . ان الوزن الطافح بالصور والاخيلة والعواطف سيملك قلوبنا ويهزنا ويثيرنا اكثر من النثري الطافح بنفس المقدار من الجزئيات . وذلك لان عنصرا جماليا جديدا قد أضيف اليه هو الموسيقى والايقاع .

والسبب المنطقي في فضيلة الوزن ، هو انه ،

بطبعه ، يزيد الصور حدة ، ويعمق المشاعر ويلهب الاخيلة . لا بل انه يعطي الشاعر نفسه ، خلال عملية النظم ، نشوة تجعله يتدفق بالصور الحارة والتعابير المبتكرة الملهمة . ان الوزن هزة كالسحر تسري في مقاطع العبارات وتكهربها بتيار خفي من الموسيقى الملهمة . وهو لا يعطي الشعر الايقاع وحسب وانما يجعل كل نبرة فيه أعمق واكثر اثارة وفتنة . ولذلك كان الشعر مؤثرا بحيث كان القدماء يعدونه ضربا من السحر يسيطر به الشاعر على الجماهير . وقديما كان الشعر قرين أصحاب الرؤي والكهان وحتى الانبياء الى درجة جعلت القرآن الكريم يبرىء الرسول في الآية « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » .

ولا ريب في ان النثر ، بافتقاره لهذه الموسيقى المؤثرة ، يفقد خاصية يتفوق بها الشعر عليه في اثارة المشاعر ولمس القلوب . ولذلك كان النثر ، في الغالب ، قرين البحث العلمي والدراسة الموضوعية ، حتى اصبحنا نصف الشعر الذي لا يطربنا بانه « نثري » . والحقيقة التي لا مفر لنا من مواجهتها ان الناثر ، مهما جهد في خلق نثر تحتشد فيه الصور والمعاني ، يبقى قاصرا عن اللحاق بشاعر يبدع ذلك الجمال نفسه ولكن بكلام موزون . فالوزن في يد الشاعر قمقم سحري يرش منه الالوان والصور على الابيات المنظومة . وهيهات للناثر ان يستطيع ذلك بنثره . اترى دعاة قصيدة النثر ينكرون ان خواطر محمد الماغوط التي اخترناها تكون اجمل لو كتبت شعرا لا نثرا ؟ نقول ذلك لا لننتقص من تلك الخواطر وانما لمجرد انها كتبت نثرا وتطاولت الى ان تسمي نفسها شعرا . وانما النشوة والموسيقى والدفء من مصاحبات الوزن ، فمن رغب فيها فليكن شاعرا وليعرف كيف يرقرق معانيه في قصائد متدفقة . وبعد فليس يعيب النثر انه ليس شعرا . وأن الموسيقى ملازمة للشعر لا له . ان تلك هي طبيعة الاشياء وكل لما خلق له .

وفي وسعنا ، ختاما ، ان نلخص تعريف الشعر بانه ليس عاطفة وحسب ، وانما هو عاطفة ووزنها وموسيقاها . وعلى ذلك فان قدرة الناثرين على حشد العواطف والصور في نثرهم لا يقرب ما يكتبون من الشعر اي تقريب . وانما جمال ما يكتبون مرتبط بكونه نثرا ، ولن يكون شعرا الا اذا نجحوا في صياغته شعرا . وتلك موهبة الشاعر دون الناثر ، وهو أمر يترك النثر خارجا مهما قالوا ومهما جهدوا .

واحب ان أذكر اصحاب الدعوة اخيرا بانهم ، بعد كل ما قالوا وكتبوا وضجوا ، ما زالوا هم انفسهم مضطرين الى التمييز بين الشعر والنثر : وهذه خزامى صبري نفسها ، في فقرتها التي اقتبسناها ، تتحدث عما تسميه (وزنا تقليديا) — تقصد الشعر — ووزنا غير تقليدي — تقصد النثر . فلا نراها فعلت اكثر من استبدال الكلمتين العربيتين الدالتين : (شعر ونثر) باصطلاحات معقدة جديدة فيها عموم وغموض . وهل حقا ان قولهم (وزن تقليدي) أحسن من قولنا (شعر) ؟ أم ترى قولهم (وزن غير تقليدي) يصلح اسما للنثر ؟ ولماذا اضطروا الى التمييز بين الاثنين ؟ والواقع الذي لا جدال فيه ، انهم اذا لم يعترفوا بان الشعر شعر والنثر نثر ، فلا بد ان يعترفوا بان بينهما فرقا واضحا . وهذا يدحر كل مناقشة قد يوردونها . ان هناك شيئا اسمه الوزن ، وهو يفرض عليهم نفسه مهما تجاهلوه .

نازك الملائكة

البعث والرماد

— تتمة المنشور على الصفحة ١٣ —

وفي نفس هذا القسم الاخير من القصيدة يعود فيقول :

... آه خلني لمرة اخيرة
احلم ان رئتي جمرة
آتية على جناح طائر
من افق مغامر
وخلني اشم فيها اللهب الهياكلي
ربما لصور فيها سمة
وربما تجسدت قرطاجة :
دقائق الغبار فيها لهب
بلى ، بلى ، حتى الغبار لهب
والطفل فيها حطب ، ذبيحة المصير
مثل قبس ان لم يضيء يموت ، لايكون .
آه خلني لمرة اخيرة
احلم ان رئتي جمرة
يأخذني بخورها ، يطير بي
لموطن اعرفه اجهله .

ان المدينة الجديدة التي يحلم بها الشاعر ليست هي الجزائر الثائرة التي قدمت في سبع سنوات مليونا من الضحايا ، وليست هي بور سعيد التي تلقت على صدرها الاف الاطفال والشباب والنساء والرجال قتلوا كلهم في معركة اليمة حزينة . ليست هذه هي المدينة الجديدة التي يحلم بها ادونيس ، ولكن المدينة التي يحلم بها هي قرطاجنة ، والبطل الذي يحلم به هو بطل القوميين السوريين ولا شيء غير ذلك .

ابعد هذا كله يمكن ان تكون اسطورة طائر الفينيق هي « جوهر » قصيدة البعث والرماد لادونيس ؟ اننا لسنا مجموعة من السذج لنصدق هذا او نسلم به ، فالحقيقة تكشف نفسها من بين سطور ادونيس ، فما اسطورة طائر الفينيق الا حجة فنية خارجية يلجأ اليها ادونيس ليخفي امله الحقيقي المنشود في جو اسطوري : وما هذا الامل الا عودة فينيقيا الى الحياة وانتصارها على الحريق التاريخي القديم .

وعندما قلت ان ادونيس ينادي فينيقيا ، في قصيدته لم اكن اجهل الاسطورة التي اشار اليها صاحب الرسالة الصغير ، وانما كنت ادرك تمام الادراك ان هذه الاسطورة انما هي حجة زائفة للوصول الى الهدف السياسي الذي يقصد اليه الشاعر ، لان النتيجة البعيدة تكشف نفسها لكل من يحاول ان يقرأ هذه القصيدة بشيء من التأني او الانتباه .

ولا يمكن لاحد ان يعترض على استخدام الاسطورة في الشعر ، فمثل هذا الاستخدام اذا تم على يد شاعر موهوب فانه يدفع الشعر الى اعماق بعيدة ، ويجعل منه عملا فنيا غنيا بمادته ، يقف امامه الانسان طويلا ويتأمله ، وهذا الاتجاه يدفع الشعر العربي بالذات الى آفاق جديدة خصبة ، لم يعرفها تاريخنا الادبي ، لان الشعر عندنا قد وقف في تاريخه القديم عند حدود الشعر الغنائي ، ولم يتعد هذه المرحلة ، ولا شك ان ادونيس يحاول هذه المحاولة ، ولا شك ايضا انه شاعر موهوب قادر ، ولكن ادونيس لايستطيع ابدا ان يصل الى « الصدق الفني » ، لانه يستخدم الاساطير لفرض اخر غير فني ، هو التعبير عن شعوره العدائي نحو القومية العربية بطريقة ايحائية خفية ، والتعبير عن ايمانه بافكار القوميين السوريين عن الحضارة الفينيقية وعودة الحضارة الفينيقية .

وقصيدة « البعث والرماد » ليست الا نموذجا من محاولات ادونيس لاخفاء مشاعره الحقيقية ، والتعبير الملتوي عن المعاني الاساسية التي يريدها ويدعو اليها ، انه يريد ان يقول شيئا معينا ولكنه لايجرؤ على الجهر بهذا الشيء ، ولذلك تخرج قصائده مرتبكة مليئة بالضباب ، وهذا هو ماسميه « بعدم الصدق الفني » ، ولكن رغم هذا الارتباك فان شعر ادونيس يكشف عن مقاصده الحقيقية وافكاره المختفية .

ووجهة النظر العامة لادونيس تؤكد انه يرمي الى احياء افكار القوميين السوريين بهذه القصيدة وبغيرها من القصائد ، فقد اختار لديوانه الاخير عنوان مهيار الدمشقي ، ولماذا اختار اسم « مهيار » ان لم يكن يرمي بذلك الى تشبيه نفسه بشخصية « مهيار الديلمي » الشاعر القديم الفارسي الاصل ؟ ان دلالة هذا الاسم هي ان ادونيس يريد ان يقول لنا انه ليس من اصل عربي ، وانه ينتمي الى اصل اخر كما كان مهيار ينتمي الى الفرس .

هل يريد صاحب الرسالة ان يقول ان مهيار هو ايضا نوع من الطيور او الحيوانات ؟... ان صاحب الرسالة يعرف كما يعرف ادونيس تماما انهما يحملان في راسيهما افكار القوميين السوريين المعادية للعروبة والقومية العربية. ولست بذلك اريد ان احرج احدا ، او ان اتهم احدا ، فأنا اول من يتمنى ان يعود شاعر موهوب مثل ادونيس الى نطاق التفكير العربي الصحيح ، هذا التفكير الذي يتفق تماما مع مصلحة كل مواطن عربي .. مصلحة حاضره ومستقبله ... والذي يتفق مع آمالنا في خلق حضارة قوية قائمة على أسس عصرية في المنطقة العربية ، وخلق ثقافة عربية عالمية تقف جنبا الى جنب مع اي ثقافة عالمية متقدمة .

ولست اريد ان اقطع في المستقبل براي ، ولكنني مع ذلك احس ان ادونيس واصحابه من امثال كاتب الرسالة قد باعوا انفسهم للشيطان واصروا على الوقوف في وجه

آمال شعبهم واماني هذا الشعب ، وملأوا انفسهم بمشاعر الغرور والتعالي والحقد ، فلم يعد باستطاعتهم ان يعترفوا بضرورة السير في الطريق الصحيح .

وليس امامنا الا ان نعرف ماذا يقولون وماذا يريدون لكي نتجنب اخطارهم ، فهم لو استطاعوا لاحرقوا الوطن العربي ، مثلما احرق الرومان قرطاجنة ... وكما احرق نيرون روما وهو يضحك ، وقد عجزوا ان يحرقوا المدن والقرى ، ولذلك فهم يملأون الحروف والسطور حرائق وهم يشعلون في هذه الحرائق كل ما آمنت به الامة العربية في معركتها الراهنة ، وكل ماتضمه هذه الامة العظيمة في صدرها من عقائد واحلام .

وكل محاولة للفهم هي اطفاء لحرائقهم ، ولذلك فمحاولات الفهم بالنسبة لهم شيء اليم مزعج ، وهم لايملكون ان يكونوا واضحين او ان يناقشوا الامور بطريقة موضوعية ، ولذلك فهم يلجأون الى امثال تلك التهم التي وجهها صاحب الرسالة التي قدمت نصها في هذا المقال .

ان هناك شيئا كبيرا يربط بين القوميين السوريين ذلكهو الحقدعلى مصر،ومحاولةخدشها والتقليل من قيمتها. لماذا؟ لان انضواء مصر تحت الراية العربية قد بدأ يغير اتجاه الريح بالنسبة للقضية العربية الكبرى ، ولن يبقى مكان لدعاة الفينيقية ولدعاة الفرعونية ، لان الامة العربية احرص على تراث الفينيقيين والفراعنة من هؤلاء الدعاة الزائفين الذين يقفون في ذلك الطابور الهزيل امام السفارات الاجنبية المرتجفة من المد الثوري العربي .

انهم يحقدون على مصر ، لان اهلها « الحشاشين والحشاشات » ـ كما يقول صاحب الرسالة الصغير ـ يعيشون الان في القرن العشرين ويتخطون عصور التخلف التي يعيش فيها صاحب الرسالة وامثاله ... ان الحشاشين والحشاشات يصنعون معجزة السد العالي ، ومعجزة الجيش العربي ، ومعجزة الصناعة العربية المستقلة لاول مرة في التاريخ العربي ، وهم الذين يدخلون التجارب العظيمة بجراة واقدام ، وينجحون بلا غرور ويفشلون بلا مرارة لانهم قرروا ان يقوموا بدورهم في طليعة الثورة العربية ، هذا الدور الذي يحتاج الى الكثير من التضحيات والالام ، ولقد قرر « الحشاشون والحشاشات » ان يدفعوا هذه التضحيات ويتحملوا هذه الالام لكي تعود فلسطين وتنتصر الجزائر ويسترد العرب لواء الاسكندرونة ، ولكي لايبقى في الوطن العربي العظيم كلاب صغيرة تنبح يمزقها الحقد وتقتلها المرارة ، وتفرز كل يوم مشاعر سوداء في شكل سخرية ثقيلة الظل واتهام بالجهل يوزعونه على الناس واصحاب هذا الاتهام غارقون في جهل روحي لانهاية له رغم التشدق بأسماء الاساطير القديمة والحديثة والسهر في كباريهات باريس وروما وبيروت .

ان الذي يتحكم في هذه الكائنات هو الفزع من زيادة الوعي العربي في مصر ، ومحاولة التقليل من اهمية هذه الظاهرة الهامة في ثورتنا العربية ... وهي ان مصر تقطع كل يوم مراحل ضخمة في اتجاهها العربي الصحيح . ولكن التاريخ يتحرك في عكس الاتجاه الذي يتمناه الخوارج على الثورة العربية من اعدائها الصرحاء والمستترين .

القاهرة — **رجاء النقاش**



الادب العراقي المعاصر

✶

لم يصادف أدب أي من الاقطار العربية من الاهمال والتجاهل والتهوين من شأنه على يد الدارسين الادبيين مثيل ما صادفه أدبنا العراقي المعاصر ، كأن لم يكن أعني هذا الادب مسهما في التعبير عن مطالب المجتمع العربي وتطلعاته ، وكأن لم يقم أعلامه وشخوصه بدورهم الخطير في تطوير الحركة الادبية ويرصدوا مجهوداتهم وطاقاتهم الفكرية لاداء رسالتهم حياله على غرار ما هو معهود عن أسلافهم من اعلام الادب العربي القدامى ممن تقادمت عليهم العصور والاحقاب وظلت آثارهم الادبية من دواوين الشعر وكتب النقد والرسائل الفلسفية وغيرها تتداول الايدي وتنطق بما توفروا عليه سابقا من سمو المواهب وغنى الملكات ،وتأتي لهم من العمق في البحث وبراعة الاستدلال والقدرة على الاحاطة الوافية الشاملة بأي من الموضوعات واستسهال تناوله ، وتذليل ما قد يعتور مسالكهم الفكرية من الوعور والصعاب ، فقد درج جل مؤرخي الادب العربي المعاصر ، « من غير العراقيين ! » على الغض من قيمة النتاج العراقي الذي يؤلف جانبا منه ،فلم يحصل لواحد منهم أن أولى ثمار القرائح الادبية في العراق قسطا من اهتمامه ونصيبا من عنايته مثيل ما يرصده منهما لادب بقية الاقطار العربية في ابحاثه ودراساته . تعن لنا هذه الخاطرة ، في الوقت الذي يطالعنا الدكتور زكي المحاسني بكتيبه : نظرات في ادبنا المعاصر ، الذي يدخل ضمن سلسلة المكتبة الثقافية الصادرة عن وزارة الارشاد القومي في الجمهورية العربية المتحدة ، ولسنا في معرض ازجاء النقد لمنهجية الدكتور المحاسني في الاطلاع بنظراته الثاقبة النفاذة ، وليس في نيتنا البتة تقديم فكرة مجملة وعامة عنه ، وان كنا نحسب ان الادب العربي الحديث قد قطع اليوم في مسيرته من المراحل الشاسعة وبلغ من الاشواط البعيدة وجاز من الحدود الكثيرة بحيث لم يعد في امكان الباحث الادبي ان يسلط عليه نظراته العجلى ليفرغ منها لتدوين ما عن له وخطر في واعيته من الانطباعات والمؤاخذات ، ان فعلة كذي لا يمكن بحال ان تخدم أدبنا وتطوره ان لم تبخس من اقدار أعلامه وافذاذه وتنل من مكانتهم وتتنكر لما أسلفوه من الاثار والخدمات وأوفت عليه عبقرياتهم النادرة من الابداع والنضج والاكتمال .

يتناول الدكتور محاسني في كتيبه المبتسر الوجيز ذاك ، تقييم انبعاث الحركة الشعرية في أخريات القرن الفائت ويرصد لمسارها وتطورها حتى الحقبة التاريخية التي نعايش ويصنع مثل صنيعه هذا ازاء أدب القصة والمسرح والمقالة والنقد ، باسلوب مدرسي شائق على الرغم من كونه لا يعنى بعرض الاراء المختلفة بقدر ما يهتم بازجاء الاحكام المقررة وكأنها حقائق مسلمة لا تقبل الدحض والتفنيد ويصح استهدافها للنقاش .

ان المطالع المنصف الذي يرود الحقيقة ويعنيه اقتفاؤها والاستهداء بها في مجالات حياتنا المختلفة دون ان تستبد به نوازع الطائفية الفكرية ومشاعر الاقليمية الضيقة ، سيصعق حتما اذ يستجلي ان المحاسني لم يكلف نفسه جهد تحليل النتاج العراقي او الالماح الى بعض آثاره والتنويه بأسماء جهابذته وفي الشعر والقصة على وجه الخصوص ، أسوة بما استبعه واختطه حيال نتاج الاقلام الكريمة في بقية أقطار العروبة ، ولا يشفع له أن لا يعتد كتيبه « تاريخا للادب الحديث » بل يعتبره ويدخله ضمن اطار « دراسة ونظرات ! » من أن يستهدف لشتى الظنون ويعرض لمختلف المطاعن ! .

فأين هي الصفحات العديدة التي يحسن — ولا نقول يجب — بالدكتور الفاضل ان يخصصها من مؤلفه النفيس لدراسة التجديد في اشعار فحول الشعر العربي في العراق ، الرصافي الزهاوي ، الكاظمي ، الازري وخيري الهنداوي والبصير والشرقي والشبيبي فالجواهري والحبوبي وحافظ جميل وغيرهم من النابغين والمجودين الذين تسنى لهم أن يعالجوا في شعرهم مختلف الموضوعات ويطرقوا متباين الاغراض ويسهموا في مد معين الشعر العربي برافد غزير لا ينقطع مسيله وتنضب ثرارته .

وأين هم أعلام القصة العراقية الحديثة أمثال ذو النون أيوب وعبد الملك نوري وادمون صبري وكثار غيرهم ممن اتسمت آثارهم القصصية بنزعتها الانسانية ورسالتها المجتمعية ، ويبدو ان الدكتور لم يطلع بعد على أعداد الآداب الاولى الصادرة عام ١٩٥٣ بغية تدارس البحث المسهب المعمق الذي أوقفه الدكتور سهيل ادريس لتسجيل انطباعاته المجملة وخطراته المتفحصة حول القصة العراقية الحديثة ، مما يصح معه اعتبار هذا البحث المسهب من مصادر دراسة الادب العراقي !

ولم يغفل المؤلف المحترم عن أهمية الابحاث اللغوية والدراسات الادبية القيمة التي توفر على اعدادها اساتذة الجامعة عندنا امثال الدكاترة:السامرائي والوائلي والمخزومي وعلي الطاهر ومصطفى جواد واضرابهم ، في معرض رصده للدراسات اللغوية المعنية بتطوير لغتنا وانمائها واثراء أصالتها .

ان شتى الذرائع والحجج التي يركن اليها الباحث الادبي في تبرير قصوراته الفكرية وتحريرها من قبيل قلة توفر المصادر وتفرغه لدراستها والاطلاع عليها ، لا تعصمه من الريب! وتدفع عنه الشكوك ! وتنفي من الاذهان والعقول اتهامه بتزييف التاريخ الادبي ومسخه وتحريفه والاستلال من اقدار نبغائه والغمز من مكانتهم ولا تفقد الامل البتة في أن يطلع الدارسون الادبيون المنصفون في أيام قادمة بدراساتهم القيمة التي يصدرون بها عن فكر ثاقب وضمير نقي .

بغداد — مهدي العبيدي



بمناسبة بلوغ ((الاداب)) عامها العاشر

***

حضرة ...

افتتاحية السنة العاشرة من عمر مجلتكم ـ ومجلتنا ـ جعلتني أفكر في الدور الذي لعبته ((الآداب)) ، طيلة تسع سنين ، في غمرة الحركة الادبية الصاعدة ، وفي الصرح الذي بنته بالامس ، فاذا به اليوم ، يكسر العين ارتفاعه ، وتتعلق به آمال جيل . ورأيتني أطوي الصفحة ، وقد انتهيت الى أن ((الآداب)) تفوقت بخمس، لا أجامل ان ذكرتها ـ وما أبعد عصرنا عن المجاملة ـ مستوحيا من واقع ، ومقررا حقيقة .

فهي أولا مثلت نهضة الادب العربي الحديث ، بما جمعته بين دفتيها من شعر وقصة وبحث .

ثانيا : هي مجلة حاولت قدر المستطاع الا تقطع الخيط الواصل بين الادب النهجي القديم وبين الادب الحديث النامي ، أي انها حاولت أن تكون نهاية تلحقها بداية ، لا نهاية تتحجر عند حدود ((ضيقة)) ، ولا بداية تجهل وتتجاهل ما قبلها .

ثالثا : هي مجلة عربية ، فيها مقال لمصري ، الى جانب قصيدة للبناني ، ودراسة أدبية لعراقي ... فساهمت بذلك في تقريب أدباء العربية بعضهم الى بعض .

وهي رابعا : مجلة ثورية ، تبنت مبدأ قوميا عربيا ، حملت الراية ، وتؤدي الرسالة ، فاعطته بهذه وبتلك مثالا على الوطنية الاجتماعية التي للادب . (أقرر هذا بالرغم من اختلافي العقائدي مع المجلة) .

خامسا وأخيرا ، هي مجلة بلورت المفاهيم ، وشجعت الرواد وأقامت الدعائم. ولا أعرف مجلة معاصرة في بلادنا ، اشترك في تحرير مواضيعها عدد من الادباء ـ الادباء الذين يشقون الطريق ـ يقرب من الذين اشتركوا في تحرير ((الآداب)) . ولا بد أن يذكر تاريخنا الادبي ، انها حضنت القباني والعيسى ، الملائكة وطوقان والسمان ، السياب والحاوي، الصوفي والخوري ، الصفدي ومحمد محيي الدين وغالي شكري ..

غير اني ارى بالمقابل ، ان الآداب ما زالت تشكو انحدارا في بعض أعدادها .

فلم يعد فيها أثر لادبائنا الكبار من الجيلين السابقين ، فأين طه حسين وميخائيل نعيمه ومارون عبود ، وأين عبدالله العلايلي وأمين نخله وبدوي الجبل ؟ لا أخال ((الآداب)) تنسى فضلهم على أدبنا ولغتنا في هذا العصر ، الفرع من أصل ، والاصل الى جذور . وهي ـ ((الآداب)) ـ فقيرة في باب النقد ، ليس فيها غير ركن واحد له ، يقول فيه كل شهر ناقد ما يقول . والذي أعرفه ان النقد ، في حساب الادب ، قد لا يكون في مستوى الشعر والقصة ، لكن الشعر والقصة لا يستقيم لهما حساب دونه . وتفتقر المجلة أيضا الى ركن فني ، فغير مجهول ان الرسم والنحت والموسيقى ، في تطور ، كما القصيدة والقصة والبحث ، وهذا الركن ألفته ((الآداب)) في يوم من الايام ، ثم غاب عنها ، ونرجو أن لا يفرق بينهما بعد الساعة مفرق !

من كل ما ذكرت ، استخلص تهنئة صادقة لمجلتكم ، ولكم ، راجيا لها الاستمرار في أداء الرسالة ، والكمال موضوعا وتبويبا وتنويعا ، فتصبح كما تشتهون ونشتهي .

دمشق **فاروق مردم بك**

***

((الآداب)) والجيل الجديد

عزيزي ...

تحية العروبة العاطرة ، ازفها اليك ، والى كل المحررين المحترمين في مجلتنا ((الآداب)) الزاهرة . هذه المجلة التي عبرت ، بصدق ، خلال التسع سنوات الماضية ، عن ابتسامات الجراح التي تسطع في عين كل عربي . وكانت، بحق ، المشعل الفكري الخلاق لجيلنا الباحث عن أبعاد حقيقية لوجوده الاسمى !

والذي اتمناه ، في مطلع العام الجديد ، هو ان تبقى ((الآداب)) في الصف الاول في معركة المصير لتحقيق أمانينا القومية ، مشيرة الى كل نبع عذب ، ومعرية كل انواع الزيف والكذب .

ان ((الآداب)) عندما تفسح المجال امام الجيل الطالع من الادباء ، فانما تحقق ، بذلك ، نظرتها الصادقة تجاه الحياة . وسيسجل التاريخ، باعجاب ، أن ((الآداب)) هي التي احتضنت كل أديب وجدت في عينيه بريق أمل صادق ، ثم كان في الطليعة من أدباء العروبة .

بغداد **خالد علي مصطفى**

***

رئيس التحرير ...

تحية طيبة واحترام ..

لا ادري كيف ابدأ رسالتي بل كيف أعبر عن شعوري المتدفق ازاء مجلة (الآداب) الغراء ، تلك المجلة التي حملت راية الادب العربي ولقحته بلقاح الادب العربي المعاصر وجعلت منه ادبا يستطيع الوقوف على رجليه ليقاوم التيارات المعاصرة ويستفيد من خبرها وتجاربها .. أقول لا ادري كيف ابدأ رسالتي .. عفوا بل لا ادري كيف اشرح لكم عواطفي الغزيرة تجاه مجلة (الآداب) المنبر الحي النابض الذي ينير الدرب امام الجيل العربي المتطلع الى المستقبل .. ذلك الجيل الذي تركه الاستعمار يتخبط في دياجير مظلمة لا يستطيع الاهتداء الى

الشمس ليمسكها بيديه القويتين .. الجيل الذي صارع ولا زال يصارع القدر ليثبت وجوده ويثبت بانه جيل يستحق الحياة الحرة الكريمة .. الجيل الراقي بتفكيره .. المعتمد على نفسه .. العميق بارائه واحكامه .

حقا ان الجيل العربي الصاعد قد اعطى حكمه لمجلتكم بل لمجلته (الآداب) وجعلها نبراسا بل مشعلا ينير به الدرب الطويل وانه لاحسن حكم واقوى اختيار .

بين يدي الآن العدد الاول من السنة العاشرة من عمر المجلة المديد بثوب جديد قشيب .. بمواضيع ثورية قوية وانا معكم في كلمتكم التي بينتم فيها خط سير الآداب .

انا كقارىء استطيع ان اعطي حكما ويؤيدني كثير من القراء في البلاد العربية على رأيي من ان المجلة الغراء تسير على خط ثابت من الثورية بل ولم تتخل عن ثوريتها في اية أعداد من اعدادها وذلك راجع كما ذكرتم في كلمة العدد آنفة الذكر الى الادباء والقراء وعلى كل حال اتمنى للمجلة العزيزة عيد ميلاد سعيدا وعمرا مديدا طافحا بالعمل الدائب المثمر الخلاق لتستطيع ان تضع لبنة في صرح الثقافة العربية المتطورة نحو الامام دائما وابدا ولتساهم في تشييد الحضارة العربية الجديدة فالى الامام ولكم مني كل تأييد واسناد والى الامام نحو ثورية اكثر وديناميكية متطورة ولكم ولجميع العاملين في دار الآداب اجمل تحية وأطيب تمنيات .

بغداد — **عطا الونداوي**

***

((الآداب)) والمزيفون

حضرة ...

تحية عاطرة

استغل هذه المناسبة فاقدم تهاني لبلوغ مجلتنا عامها العاشر ونتمنى من الله ان يديمها لخدمة لغتنا وآدبنا ، فقد كانت اما رؤوما أرضعتنا لبان منهلها الصافي العذب ، ونبراسا زحزح العتمة المنكورة حولنا ، فحطمت قوقعتنا المظلمة المتمسكة باذيال ماض عتيق ، وفتحت امامنا آفاقا جديدة للكلمة ، كما انها ساعدت ـ مشكورة ـ على اظهار اقلام جديدة ، بالاضافة الى انها كشفت الزيف الذي تتخفى به بعض جماعات مدعية العروبة زورا .. وكل هذا عمل جليل جسيم ادته لنا ((آدابنا)) .

وختاما نرجو لكم التوفيق في اكمال رسالتكم ودمتم .

بغداد — **محمد مجيد السعيد**

قرأت العدد الماضي

***

عهدت ((الآداب)) هذا الشهر في نقد العدد الماضي (الممتاز) الى ثلاثة من كبار الادباء (الدكاترة في الادب والفلسفة) في الوطن العربي . ولكن المؤسف ان الثلاثة جميعا تخلفوا عن الكتابة في آخر لحظة لاسباب ليست كلها مبررة .

فنعتذر للقراء ونأسف لعدم تمكننا من ادراج باب ((قرات العدد الماضي)) في هذا العدد .

((التحرير))

كلمة ...

من فضلكم لا تظنوني شحاذا أطلب منكم نشر مقالتي ! ؟

اسمحوا لي بكلمة قبل أن تضعوا مقالتي في سلة المهملات .

انني أعرف .. والله أعرف .. أنكم لن تنشروا هذه المقالة فلأدبائكم أسلوب .. وانا لي أسلوب آخر . فأنتم تريدون عدم تشجيع الادباء الناشئين من أبناء أمتكم العربية وهذا الظاهر طبيعي . فوربي لم أجد في أي من مجلاتكم مقالة أو قصة أو حتى أقصوصة لناشىء أديب في التاسعة عشرة من عمره ،

أبدا ، ان هذا في رأيي استغلال واحتكار للادب قد بلغ حده (فبلغ السيل الزبى) .

فلتكن مجلتكم للجميع لا لافراد يعدون على أصابع اليد الواحدة...

وعفوا أنا لا أريد أن أشتمكم أو أسبكم فأنا انقد الظاهر المستنار .

والذي يتساءل عنه الجميع والكثير من الادباء الناشئين . فويحكم : حيث أنه لا ينحمق من النقد الا الذين عقولهم أقرب للجنون .

وتقبلوا هذه النفحة الادبية ومقالتي بين أصابعكم لتلقون بها في سلة القاذورات .

حلب — **اسعد عجلة**

جوائز أصدقاء الكتاب

*

جاءنا من جمعية اصدقاء الكتاب البيان التالي :
تعلن جمعية أصدقاء الكتاب أن جوائزها لعام ١٩٦٢ ستمنح على النحو الآتي :

١ ـ **جائزة فخامة رئيس الجمهورية** : وقيمتها خمسة آلاف ليرة لبنانية .

تقدمها وزارة التربية الوطنية وتمنح لمجموعة آثار مؤلف لبناني تميزت بالجودة وصدرت باللغة العربية .

٢ ـ **جائزة أصدقاء الكتاب** : وقيمتها ثلاثة آلاف ليرة لبنانية .

تمنح لمجموعة آثار مؤلف لبناني تميزت بالجودة وصدرت بلغة أجنبية .

٣ ـ **جائزة الدراسات اللبنانية** : وقيمتها ثلاثة آلاف ليرة لبنانية تقدمها وزارة الانباء والارشاد والسياحة . وتمنح لافضل دراسة تعالج جانبا من التاريخ اللبناني ، ألفها لبناني ونشرت في لبنان .

٤ ـ **جائزة الكويت** : وقيمتها ثلاثة آلاف ليرة لبنانية تقدمها وزارة الارشاد والانباء في الكويت وتمنح لافضل دراسة تاريخية تعالج جانبا من الحياة العربية حتى نهاية العصر الاموي ، ألفها مؤلف من البلاد العربية ، ونشرت في أي بلد عربي .

٥ ـ **جائزة مدينة بيروت** : وقيمتها ثلاثة آلاف ليرة لبنانية يقدمها مجلس بيروت البلدي وتمنح لافضل دراسة تعالج ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية العربية اليوم ، ألفها مؤلف من الاقطار العربية الشقيقة ونشرت في لبنان.

٦ ـ **جائزة الرواية** : وقيمتها ثلاثة آلاف ليرة لبنانية . تمنح لافضل رواية ، كتبها لبناني ونشرت في لبنان.

٧ ـ **جائزة الشعر** : وقيمتها ثلاثة آلاف ليرة لبنانية . تمنح لافضل أثر شعري ، لشاعر لبناني ، ونشر في لبنان .

٨ ـ **جائزة البحث الاقتصادي** : وقيمتها ثلاثة آلاف ليرة لبنانية .
تمنح لافضل دراسة في موضوع اقتصادي ، ألفها لبناني ونشرت في لبنان بأية لغة .

٩ ـ **جائزة الفن** : وقيمتها ثلاثة آلاف ليرة لبنانية .
تمنح لافضل دراسة في فن من الفنون الجميلة، ألفها لبناني ونشرت في لبنان .

١٠ ـ **جائزة المسرحية** : وقيمتها ثلاثة آلاف ليرة لبنانية تقدمها لجنة مهرجانات بعلبك . وتمنح لافضل مسرحية نثرية موضوعها لبناني قابلة للتمثيل ألفها لبناني ولم تنشر أو تمثل بعد .

شروط الجوائز :

١ ـ يجب أن تكون جميع الكتب المرشحة للجوائز مؤلفة باللغة العربية الفصحى ومنشورة خلال عامي ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ . (ما عدا الجوائز التي نص عليها خلاف ذلك) .

٢ ـ يجب ان تكون الكتب المرشحة (ما عدا المسرحية) مطبوعة لا مخطوطة ، ومنشورة للمرة الاولى .

٣ ـ يرسل الراغبون في ترشيح مؤلفاتهم لاحدى الجوائز (ما عدا الجائزة الاولى والثانية اللتين تمنحان تقديرا) خمس نسخ من الكتاب الى عضو الجمعية الاستاذ بهيج عثمان (دار العلم للملايين ـ بيروت ـ شارع سوريا ـ بناية درويش ـ ص.ب ١٠٨٥)

٤ ـ يجب أن تسلم النسخ الخمس في موعد لا يتجاوز آخر أيلول ١٩٦٢ لقاء وصل مؤرخ بالاستلام .

٥ ـ لا يحق لاعضاء جمعية أصدقاء الكتاب أن يرشحوا مؤلفاتهم لاحدى الجوائز .

٦ ـ يحق لجمعية أصدقاء الكتاب ، بناء على توصية لجنة احدى الجوائز أن تحجب الجائزة اذا لم تقدم لها مؤلفات في المستوى المنشود .

٧ ـ لا يجوز ترشيح كتاب سبق ان اشترك بجوائز أصدقاء الكتاب من قبل .

جمعية أصدقاء الكتاب

عاصفة على السكر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤ ـ

الانتاج ونشاطه . فتنمية الانتاج الجماعي للامة يقتضي رفع انتاج كل فرد . والسبيل الاول لذلك تصنيع الزراعــه بالاضافه الى شفاء الفلاح من امراضــه الثلاثــة : البؤس والمرض والجهل .

وتدأب الثورة في عملها . شبان صغار لايجاوز اكثرهم الثلاثين من العمر ، ولا يجاوز قائدهم كاسترو هذا العقــد الثالث . وزير الاقتصاد في التاسعه والعشرين من عمره، و « غيفارا » احد زعماء الثورة الكبار يطوف حول الثلاثين . وشبابهم هذا ينقذهم ، اذ يتيح لهم ان يباشروا العمــل الثوري في صلابته وقوته . عمل مستمر طوال الساعات الاربع والعشرين منذ اربعة عشر شهرا . والليالي في معظم الاحيان بيضاء لاتعرف فيها اجفان رجال الثورة طعــم الكرى . وبين ساهري الليل هؤلاء ، كان كاسترو اشدهــم سهرا . وبين جميع هؤلاء الصائمين الذين يتبلغون بلقحات مكتبهم ، كان كاسترو اقدرهم على الطعام واقدرهم علــى الصوم . لقد عرفوا جميعهم من قبل طعم الجوع وطعــم الارق ، يوم كانوا على رؤوس الجبال لاتصلهم المؤن الا لماما ويوم كان « غيفارا » لايتناول طوال خمسة واربعين يوما اكثر من احدى عشرة وجبة . وفي مقابل تضحياتهم هذه من اجل الامة يرفض هؤلاء ان يبذروا مالها . ان احدهم حين يذهب الى خارج البلاد يأبى الا السفر في الدرجــة السياحية مثلا .

واهم مايميزهم التمرد والروح الانسانية . ان الثقافة نفسها تتضاءل امام مواقفهم الانسانية الحية ، لان اعمــق الثقافات تتحول الى اوراق ميتة ، الى كلمات : حين توضع امام وعي ثوري عميق . انهم لايحبون الايديولوجيات ، فيما يرى سارتر ، ولكن واقع كوبا هو الذي يرشدهم الى احسنها واعمقها . ان اعمق صفاتهم انهم متمردون الى الابد . لقد زهدوا بالحياة فمنحوا معنى الحياة .

وماذا تفعل الولايات المتحدة الاميركية في حمى تلك الثورة ! انها تحاول التآمر والتخريب دون شك ، وتنســف الباخرة الحربية « لوكوبر » ، وتقيم في الجزيرة وضعــا من القلق والتوتر ، وتحيل المعركة الى صراع ينمو ويتزايد بين مصالح الجزيرة وبين مصالح الشركات الاميركية الخاصة ولكن هذا كله يمنح الثورة دما جديدا ،ويزيد في قوة التمرد والحقد ، انه يكشف للكوبيين بجلاء ان وراءهم اعــداء لايتورعون عن قتلهم في سبيل المصالح ، ويحتقرون الشعب الكوبي وحقوقه ، يحتقرون قاطع قصب السكر وعامــل المرفأ . ان هذا الخطر الدائم الذي تواجهه كوبا من اعدائها هو مصدر قوتها ، وهو مصدر قوة ثوارها ، وهو المولد الذي ينتج اكبر قوة لصالح الثورة . انه يعيدها دوما الى التمرد والعصيان . ولو لم تكن الولايات المتحدة موجودة ، « فربما كانت الثورة الكوبية تخترعها ، فهي التي تحفظ عليهــا نضارتها واصالتها » . فالكوبيون ، في مختلف نواحــي الجزيرة ، يجدون انفسهم الان تجاه الولايات المتحدة في وضع مشابه لوضع المتمردين في سلسلة جبال « ماسترا » في عام ١٩٥٨ عندما كانوا قلة امام خمسين الف رجــل من رجال باتيستا .

ويزيد في ضراوة هذا الصراع بين كوبا واعدائها ، ان الولايات المتحدة لاتجد من الافكار ماتطرحه وسط هــذه المعركه سوى ان تأخذ على الثوره ورجال الثورة بعدهم عن النظام الديمقراطي . فليس في النظام الجديد اثر للبرلمان . والوزراء انفسهم تحت امرة كاسترو . ولكن هذه الثغرات التي تجدها الولايات المتحدة في النظام الجديد تعيد علــى المسرح ، في شكل حي واقعي ، قصة الديمقراطيه السياسيه والديمقراطيه الاجتماعيه . لقد ادرك الكوبيون ، بحكــم طبيعه حياتهم وارضهم وسكرهم ، ان الاقتصاد هو الذي يكيف السياسه . ويرى قوادهم ان الشعب لن يكون حرا ابدا اذا لم يحقق اولا حريته في المصنع وفي الحقل . ولئن كان هؤلاء القواد لاينكرون الديمقراطيه في مظهرها السياسي فهم يمنحون الاولوية لديمقراطية العمل .

وههنا نلتقي من جديد وعلى شكل حاد بالمشكلة العالمية الكبرى مشكلة التوفيــق بيــن الديمقراطيــة السياسيــة والديمقراطية الاجتماعيه . وليس المجال ههنا مجال التحدث عن امكانيات هذا التوفيق . وفي رأينا ان مواجهة هــذه الصعوبة ومحاولة التغلب عليها هي الرسالة المفروضة على الانسان في كل مكان . وكل ثورة مفروضة الضياع بسبب عجزها عن حل هذه المشكلة الاساسية ، وهي لابــد ان تتنكب بدايتها الانسانية اذا لم تعبيء قواها في سبيــل الحفاظ على وجهي الديمقراطية ، اللذين لاينفصلان .

يقول كاسترو متحدثا الى سارتر : « ان العهد الجديد كان عهدا انسانيا » . ويعلق سارتر فيكتب : « وهــذا صحيح . ومع ذلك فيجب الاقرار بان كثيرا من الثورات قد استحقت في عهودها الاولى هذا اللقب الجميل ، ثــم فقدته تحت عبء مهماتها الساحقة . وان مايحمي ثورة كوبا اليوم ــ وما قد يحميها مدة طويلة ايضا ــ هو ان التمرد يشرف عليها ويراقبها » . فهل صدقت نبوءات سارتر ؟ وهل ظلت الثورة الكوبية محافظة على تمردها وخطهــا الانساني ؟ يبدو ان خط الديمقراطية الاجتماعية اخــذ يتغلب في هذه الثورة ايضا ، شأنه في الكثير من الثورات . ويبدو ان اتجاه الثورة ، بعد الفترة التي عرفها بها سارتر ، اخذ يجنح شيئا بعد شيء نحو المنازع التي يمثلها مثــل « غيفارا » ، دماغ الثورة وفيلسوفها ، نعني نحو المنــازع الماركسية . ولا ندري اذا كانت هذه الثورة قادرة بعد على حماية نفسها من الانزلاق نحو ديكتاتورية تطوح بالانسان باسم المبادئ وباسم الديمقراطية الاجتماعية .

وبعد هذه وقفات عابرة عندما يوحي به كتاب سارتر من افكار وما يثيره من مشكلات . ان خير مافيه مايدفــع اليه من ربط وثيق بين تجربة الانسان في الثورة الكوبيــة وبين تجربة الانسان في كل مكان . ان حياة انسان العصر الحديث ، في نضاله ضد اعدائه وضد النظم الاجتماعيــة التي تحميهم ، غدت متشاكلة الى حد بعيد . والثورة فــي كوبا تلقي اضواء واضواء على العديد من اوضاع البــلاد المتخلفة في صراعها ضد الاستعمار والاستثمار . ويجــد فيها الفرد العربي مايؤكد فهمه لطبيعة المشكلات التي يعاني منها ، وما يفتح عينيه على الحقائق التي يجهد الاستعمار وانصاره في طمسها وتزييفها . على انها فوق هذا وقبــل هذا انذار رهيب ، ينضاف الى اصوات الحركات الحرة في العالم كله ، ليطلق في اذن الاستعمار والرجعية صيحــة الانسان في تصميمه على حماية الانسان .

الدكتور عبدالله عبد الدائم